القسم الثالث

مَرحَلة الجهاد السياسى

وانتصار الرسالة

المرحَلة الثانية : الجهاد السيَاسى وانتصار الرسالة

تمهيد

الخط العام الذى ينتظم هذه المرحلة هو الخط السياسى، لكن ضمن إطار القوة المكافئة. فتعاظم قوة المسلمين ، وتحولهم إلى شوكة مرهوبة الجانب أتاح لقائد الدعوة محمد ﷺ الفرصة لعرض أفكاره ، وهيأ النفوس للاستماع لها ، إذ إن الناس قلما يصغون إلى غير القوى .

وكما نشهد اليوم الحرب الدعائية بين الدولتين القويتين فى العالم إذ تتقاسمان مناطق النفوذ ، وأن هذه الدول قلما تضطر لاستعمال قوتها العسكرية إلا تحت ضغط الظروف الطارئة ، نجد تلك الصورة فى ذلك الوقت .

صحيح أن غزوة الخندق لم تحقق نصراً قوياً للمسلمين ، لكنها أكدت فى الوقت ذاته أن المسلمين قوة لا تقهر .

وفشل أضخم هجوم عربى على المدينة يعنى أن الكفة بدأت بالرجحان لصالح المسلمين ، وجعل هذا الأمر عند المشركين يأساً قاتلاً من إمكانية الانتصار على محمد صلوات الله وسلامه عليه .

وكان رسول الله ﷺ حريصاً كل الحرص على أن يعمق هذا المعنى فى صفوف المشركين ، فراح يطاردهم فى أعماق أرضهم ، وهو ينفذ القول الذى أعلنه :

« الآن نغزوهم ولا يغزونا » (١).

وسنعرض للسمات المحددة لهذه المرحلة بالتفصيل :

---

(١) السيرة لابن هشام ٣/ ٢٩٣ .

السمة الأولى
التحدى المعنوى للمشركين

ولعل عرض المقريزى لغزوة بنى لحيان يوضح هذه السمة ، حيث كانت غزوة تحمل طابع حرب الأعصاب أكثر مما تحمل طابع الحرب النظامية . . . فلقد كانت قوة المسلمين فيها لا تعدو مائتى رجل معهم عشرون فارساً ، وكانت المهمة بث الرعب فى صفوف العدو ، والثأر لأصحاب الرجيع ؛ خبيب وأصحابه الذين غدر بهم بنو لحيان وقتلوهم ، وكان هذا الأمر قبل سنتين من هذا الموعد .

أما الهدف الأول فقد تحقق حين فر بنو لحيان وتمنعوا فى رؤوس الجبال ولم يجرؤوا على المواجهة ، ولكن لهذا الهدف آمادا أبعد وأعمق .

يقول عليه الصلاة والسلام : « لو أنا هبطنا عسفان لرأى أهل مكة أنا قد جئنا مكة » [1] ، وتحرك بقوته لعسفان، ولم يكتف بهذا الأمر بل أقدم على خطوة أشد خطورة ، فبعث أبا بكر رضي الله عنه إلى كراع الغميم التى تبعد عن مكة أميالاً عدة فى عشرة فوارس ، وكان الهدف واضحاً من هذا التحدى كما تقول رواية الواقدى:

(إن هذا يبلغ قريشاً فيذعرهم ، ويخافون أن نكون نريدهم ، وكان خبيب ابن عدى يومئذ فى أيديهم . فخافوا أن يكون جاء ليخلصه) .

وإن كان الهدف الثانى لم يتحقق ، من حيث الأخذ بالثأر المادى من بنى لحيان ، لكن الخوف الذى لزم بنى لحيان ، جعلهم يشعرون بخطورة المسلمين فى المنطقة .

ولم يكن اختيار أبى بكر بهذه الفوارس العشرة ليمضى إلى كراع الغميم ، اختياراً عشوائياً، بل كان مرتبطاً بالهدف ارتباطاً وثيقاً . فأبو بكر المهاجر ابن مكة، يعرفه القاصى والدانى فى الأرض الحجازية ، وليس نكرة عند أهل كراع الغميم ، بل هو الصاحب الأول لمحمد رسول الله .

ويكفى أن نذكر أن بين الخندق التى كان المسلمون فيها محاصرين ، وبين

---

(١) إمتاع الأسماع ١/٢٥٧

بنى لحيان التى تحول المؤمنون فيها إلى مهاجمين أقل من خمسة أشهر، وهذا يعنى التنفيذ العملى للكلمة الخالدة :

« الآن نغزوهم ولا يغزونا ».

وهذه دروس عميقة للحركة الإسلامية ، فالقيادة حين تعلن هدفاً أو موقفاً ، وتتلكأ فى التنفيذ تفقد ثقة قواعدها بها ، وتزلزل طبيعة العلاقة بين طرفى الجماعة المسلمة ، فالتجسيد العملى للكلمة هو الذى يُكسب احترام العدو والصديق .

صحيح أن هذه الغزوة لم تحمل فى ثناياها أنباء انتصارات عسكرية حاسمة ، لكنها أصابت كبد العدو ، وبثت الذعر فى قلبه ، وغزته فى عقر داره . ومن جهة ثانية ، رفعت معنويات الجيش المسلم ، وأعادت إليه الثقة فى نفسه بعد الحرب الطاحنة فى غزوة الخندق .

وانتصار المسلمين فى بنى قريظة ، رغم رفعه المعنويات الضخمة للمسلمين ، لكنه لم ينه عقدة التفوق القرشى عندهم ، وكانت هذه الغزوة كفيلة بمحو هذه العقدة .

ودرس آخر تحتاجه الحركة الإسلامية اليوم ، هو أن رسول الله ﷺ رافق الحملة إلى عسفان ، التى تبعد أميالاً عن مكة ، وهو الهدف الأول من العدو ، وكان بإمكانه عليه الصلاة والسلام أن يبعث فى هذه الغزوة مئاتٍ بل ألوفاً من أصحابه ، لكنه مع ذلك آثر أن يرافق الحملة بنفسه ، لرفع معنويات أصحابه كذلك ، ودفع بأعز القادة عنده إلى كراع الغميم ليؤكد ضرورة الالتحام العملى بين قيادة الأمة ورعيتها .

وفكرة ألا تذهب دماء المسلمين هدراً فكرة إسلامية أصيلة، فتحرك رسول الله ﷺ إلى بنى لحيان للثأر لأصحاب الرجيع، وذلك بعد مرور سنتين على اغتيالهم. والغدر بهم يعنى درساً ثالثاً للحركة الإسلامية ، أن الثأر من الطغاة فيما يقترفون من جرائم هو الذى يردع هؤلاء الطغاة ويسقط الأمر فى أيديهم .

إن طبيعة الحرب لا تقبل التضحيات فقط ، ولا تقبل الخسارة من جانب واحد فقط ، بل لابد أن يشعر الجندى المسلم بقيمته عند قيادته ، وكرامة دمه عند جماعته ، فهناك من يثأر له ، وهناك من يدافع عنه ، أما أن يحس الجندى المسلم

أنه مدفوع به للذبح والتضحية، وقيادته فى حصن حصين من العدو ، لا يمكن أن يتابع الطريق مهما ارتفع المستوى الإيمانى عنده .

وأخيراً فحاجة الحركة الإسلامية إلى الهجوم على العدو بعد المحنة هى خط أصيل فى طبيعة المعركة مع العدو ؛ كى يستعيد الجيش ثقته بنفسه .

لقد رأينا رسول اللّه ﷺ يلاحق قريشاً بعد أحد بثلاثة أيام فى حمراء الأسد، وها هو يصل إلى مشارف مكة بعد الخندق بأربعة أشهر ، كى يبقى الجيش على تحفزه وتوثبه واقتناعه بقدرته الحربية وكفاءته القتالية كذلك .

وحرى بنا أن نفقه هذه الدروس ، ونتعلم من خلالها أسباب أزمة الثقة التى تسود أحياناً الصف المسلم بين قيادته وقاعدته ، وحين نهتدى بهداها نجد أن هذه الأزمة تذوب وتتلاشى بمثل هذا الالتحام وهذه التضحيات .

السمة الثانية
حديث الإفْك

واخترت هذا العنوان ، على طبيعته ؛ لأصل بهذا المصطلح الخاص إلى النص العام الذى لابد أن يشعر به أبناء الصف المسلم وخطورة أخذهم بالإشاعة دون تثبت ، وكيف أن الإشاعة كفيلة بتحطيم هذا الصف كله .

إنه وإن تجسد باتهام الصديقة بنت الصديق عائشة رضي الله عنها ، لكنه صورة قد تتكرر فى كل جيل وتضع النيل من القيادة هدفاً رئيساً لتحطيم ثقة القواعد بها ، وحين تعجز القوة المادية عن النيل من القيادة فليس أمام العدو إلا الحرب المعنوية على هذه القيادة وتحطيمها من خلال هذه الحرب ؛ ولذلك لن نتناول حادثة الإفك كحدث تاريخى بتفصيلاته ودروسه ، ولكننا سنتناوله من خلال حرب الإشاعة التى يبثها العدو المنبث فى الصف ضد القيادة .

وأهم ما فى هذا الحدث هو أن مصدر الفرية ـ على ما يبدو ـ هم المنافقون تحت راية زعيمهم عبد اللّه بن أبى ، وحين يتحصن الصف من الفرية ، وتبقى فى صفوف المنافقين فلا خطر منهم ولا هم ، لكن عندما تنتقل إلى داخل الصف المسلم فتسرى فيه سريان النار فى الهشيم عندئذ يبدو خطرهم الكبير .

والنص القرآنى حين تحدث عن هذه الحادثة كان يخاطب الصف المسلم أكثر مما يخاطب صف المنافقين ، ويربى المؤمنين الصادقين الذين تأثروا بهذه الغرية ، واستجابوا للحديث فى الظنة دون بينة ، والنقاط المحددة التى نعرض لها فى هذا الحديث المؤتفك هى ما يلى :

أولاً : البعد عن مظان التهمة واجب أساسى على الصف المسلم ، وعليه أن يعلم ـ وخاصة القيادة ـ أنه هدف لأنظار العدو والصديق ، فيتجنب ما استطاع البعد عن موطن الريبة .

ثانياً : عدم الأخذ بالإشاعة كما يقول القرآن الكريم : ﴿ **لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون** ﴾ [النور : ١٣] وأى خبر غير موثّق بالنسبة للفرد المسلم هو مرفوض عنده، وليعلم هذا الأخ أن رواية الإشاعة، وتناقل الخبر غير الموثق تحيله إلى أخ كاذب . . . وهذا حكم القرآن فى أمثال هؤلاء ، هم الكاذبون عند الله ، ولو لم يفتر الكذب ، لو كان نقله صدقاً محضاً عمن سمع منه فهو عند الله تعالى من الكاذبين.

ثالثاً : ليبق الميزان الحساس فى الحكم على الإشاعة هو الميزان الذاتى ، فلابد من ثقة الأخ بإخوانه ثقته بنفسه ، وقد أقر القرآن الكريم هذا الميزان وأثنى عليه ، وذلك بمناسبة الحديث الذى جرى بين أبى أيوب الأنصارى وزوجه أم أيوب ﷺ إذ قالت لزوجها : (أما تسمع ما يقول الناس فى عائشة ؟ قال : نعم وذلك الكذب . أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت : لا والله ما كنت لأفعله . فقال : فعائشة والله خير منك) [1] . ونتمنى لكل أخ وهو يثير الإشاعة بحسق أخيه أو قيادته أن يحسب على أقل تقدير أن أخاه أو مسؤوله ليس أقل حرصاً على دينه منه، وليس أقل ديناً وورعاً منه ، ولو نفذ هذا الميزان الذاتى لانهارت الإشاعة وانهار الإفك من جذوره .

رابعاً : ألا يتدخل الهوى إطلاقا فى قضية النقل للإشاعة والمساهمة فيها، وهنا صورتان متنافرتان لاتباع الهوى فى الإفك ، وللتبرؤ منه ، والصورتان هما لأختين مسلمتين شقيقتين الأولى : هى زينب بنت جحش ﷺ ، والثانية : لأختها

---

(١) السيرة لابن هشام ٢/ ٣٠٢ .

حمنة بنت جحش ، فقد أورد المقريزى عن زينب هذا الحوار بينها وبين رسول الله ﷺ: قالت : (حاشى سمعى وبصرى ، ما علمت عليها إلا خيراً ، والله ما أكلمها وإنى لمهاجرتها ، وما كنت أقول إلا الحق) (١) .

وآن تستطيع ضرة أن تكتم هواها فلا تمضى فى الإشاعة يدل على المستوى العظيم الذى بلغته هذه المرأة المسلمة والأفق العالى الذى ارتقت عليه . وهذا ما دعا عائشة رضي الله عنها أن تبرئ ساحة زينب من ولوغها فى هذه الفرية .

تقول رضي الله عنها : (ما كان أحد يسامينى عند رسول الله ﷺ إلا زينب بنت جحش) فقد وضعتها فى موقعها الصحيح من طبيعة المنافسة مع عائشة رضي الله عنها ، لكنها مع ذلك لم تجد حرجا من الثناء عليها فى هذا الموقف فقالت :

(أما زينب فقد عصمها الله بدينها فلم تقل شيئاً) .

أما الموقف الثانى ، فهو موقف أختها حمنة التى انطلقت فى الإشاعة تنقلها من بيت إلى بيت ، ولا شىء يقف فئ وجهها ، وذلك ثأراً لأختها زينب .

تقول عائشة رضي الله عنها :

(أما أختها حمنة فأشاعت من ذلك ما أشاعت تضادنى لأختها فشقيت بذلك) .

ولا نتمالك من الإعجاب العظيم بعائشة رضي الله عنها ؛ إذ استطاعت أن تفصل بين الموقفين للأختين الشقيقتين ، ولم تحمل زينب شيئاً من وزر أختها حمنة .

خامساً : موقف المفترى عليه، هو أثقل الأدوار وأضخمها فى حديث الإفك.

والمنهج الذى يجب أن يسود فى هذا الصدد هو ألا يقابل الافتراء بافتراء آخر، ولا تقابل الإشاعة المؤتفكة بإشاعة أخرى ، وأن يتمالك الأخ المفترى عليه فلا يطلق لسانه فى أعراض الآخرين ولو اعتدى عليه حتى تتم براءته وتبرئته ، هو موقف أصيل ندعو إليه هذا الأخ فى هذا المجال ، ونلحظ موطن القدوة من العناصر الثلاثة الذين نيل من عرضهم فى حديث الإفك :

أولهم : محمد رسول الله ﷺ وهو سيد الأمة والبشرية ، وهو الحاكم

(١) إمتاع الأسماع للمقريزى ١/ ٢٠٨ .

والقائد ، وبيده السلطة ، وبإشارة واحدة منه يمكنه أن ينهى حياة الوالغين فى عرضه ، ومع ذلك لم يملك فى هذا الأمر ـ بعد أن استشار كبار أصحابه ـ إلا أن يخطب فى المسلمين قائلاً على المنبر بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « أيها الناس ، ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى ، ويقولون عليهم غير الحق ، والله ما علمت منهم إلا خيراً ، ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت عليه إلا خيراً ، وما يدخل بيتاً من بيوتى إلا وهو معى » .

وعندما وقعت الأزمة بين الفريقين ـ الأوس والخزرج ـ لم يكن ليملك عليه الصلاة والسلام إلا أن يكون حكماً بينهما ، رغم أن أحد الفريقين يدافع عن الوالغين فى عرض عائشة رضي الله عنها والآخر يهاجمهم ، ومع ذلك فقد أرضى الفريقين ولم يتحيز لأحدهما ؛ لأنه لا يملك البينة ليرد بها على الفريق المتهم ، وحتى عندما تجاوز صفوان رضي الله عنه فى ثورته لنفسه وضرب حسان بن ثابت على اتهامه لم يسنده رسول الله ﷺ من الخلف ويشجعه على تجاوزه قبل صدور البينة مع أنه يبرئ أحب الناس إليه عائشة رضي الله عنها ، وقد حضر حسان وصفوان عند رسول الله ﷺ ولنستمع إلى تلك المحاكمة الهادئة للجنديين المتجاوزين :

(قال صفوان بن المعطل : يا رسول الله ، آذانى وهجانى فاحتملنى الغضب فضربته ، فقال رسول الله ﷺ لحسان : « أحسن يا حسان ، أتشوهت على قومى أن هداهم الله للإسلام » ثم قال : « أحسن يا حسان فى الذى أصابك » قال : هى لك يا رسول الله .

قال ابن إسحاق : فحدثنى محمد بن إبراهيم : أن رسول الله ﷺ أعطاه عوضا عنها . . . وأعطاه سيرين ـ أمة قبطية ـ فولدت له عبد الرحمن بن حسان) [1] .

وهكذا كلفت ضربة صفوان لحسان أرضاً وجارية وهبها رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت بعد عفوه عن صفوان بن المعطل ، وكان هذا العطاء لمن ينشد الشعر فى اتهام زوجته ويمضى فى الإشاعة دون توقف .

وثانيهم : هو أبو بكر رضي الله عنه وزوجه أم رومان ، وقد نزل بهم من البلاء ما لم ينزل بمسلم ، وأقصى ما قالته أم عائشة التى تعرض عرضها للثلم والإهانة :

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٠٥ ، ٣٠٦ .

أى بنية ، خفضى عليك الشأن ، فوالله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلا كثرن وكثر الناس عليها .

ولم يتمالك أبو بكر رضى الله تعالى عنه أن يقول :

(ما أعلم أهل بيت من العرب دخل عليهم ما دخل على آل أبى بكر ، والله ما قيل لنا هذا فى الجاهلية حيث لا نعبد الله ، فيقال لنا فى الإسلام !!) .

وثالثهم : عائشة ﵂ التى لم تنته عن البكاء حتى ظنت أن البكاء سيصدع كبدها ، وحين ووجهت **بالأمر** من رسول الله ﷺ يسألها عن الحديث فقالت :

(إنى والله قد علمت أنكم سمعتم بهذا الحديث ، فوقع فى أنفسكم فصدقتم به، فلئن قلت لكم : إنى بريئة لا تصدقونى ، ولئن اعترفت لكم بأمر يعلم الله أنى منه بريئة لتصدقننى، وإنى والله ما أجد لى مثلا إلا أبا يوسف إذ يقول : ﴿ **فصبرٌ جميلٌ واللَّهُ الْمُستعانُ علىٰ ما تصفُون** ﴾ [يوسف : ١٨] .

إنها مواقف لا يحمل لها التاريخ مثيلاً من أطهر أهل الأرض يوصمون بشرفهم وعرضهم ، ومع ذلك فلم يخرج أحد منهم عن طوره ولا أطلق لسانه فى عرض أحد ، وضبط كل واحد منهم أعصابه ، وأما الذى خرج عن طوره فهو صفوان بن المعطل ﵁ ، وضرب حسان بالسيف ، وكاد الأمر أن يستفحل لولا أن عالجه رسول الله عليه الصلاة والسلام .

إنه أدب الإسلام العظيم مع الذين يرددون الإشاعة ، ويسيرون فى الإفك قبل أن تعرف أنها إفك أو إشاعة .

سادساً : والموقف الأخير الذى نستخلصه من حديث الإفك هو عقوبة المغترين اللاغطين المثيرين للفتنة ، فلا يكفى أن تثبت براءة المتهم ، ولا يكفى أن تدفع القيادة عنها قالة السوء وانتهى الأمر .

بل لابد فى الصف المسلم من العقوبة الصارمة مع من يثير الإشاعة ويسعى فى نشرها بعد التثبت منها . وما تعانيه الحركة الإسلامية اليوم هو إهمال ملاحقة مثير الإشاعة وناقل الإفك، وبذلك لا تنتهى الجماعة من فتنة إلا وتقع فى أخرى، ويكفى أن نعلم أن حكم الإسلام كان فى هؤلاء الثلاثة الذين ساروا فى الإفك ـ مسطح بن أثاثة ، وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش ـ أن أقيم عليهم حد

القذف ثمانين جلدة ، وإن كانت بعض الروايات تشير إلى أن هذا الحد طبق فيما بعد ، ولم ينفذ عليهم ؛ لأنهم خاضوا فى التهمة قبل نزول الحدود .

والحديث عن هذه السمة يأتى فى هذه المرحلة ؛ لأن تاريخ الدعوة لم يشهد مثيلا لها من قبل ، وفى الصف المسلم بالذات ، وطبيعة المرحلة إذن هى أن الإشاعة تسرى حين يضعف البناء الداخلى ويستجيب لها ، لكن عندما تنشغل الأمة بالجهاد والمواجهة ، فقلما تستطيع الإشاعة أن تفعل فعلها فى النفوس .

السمة الثالثة

الزواج وأثره فى الدعوة

فى هذه المرحلة تم زواج رسول الله ﷺ من خمس من نسائه هن :

زينب بنت جحش ، أم حبيبة بنت أبى سفيان ، جويرية بنت الحارث ، صفية بنت حيى ، ميمونة بنت الحارث ، رضى الله عنهن جميعاً .

وحين نقارن بين زواج هذه المرحلة وسابقتها ، نلاحظ فرقاً واضحاً فى الاتجاه يحدد ملامح المرحلة نفسها ، ونستطيع القول : إن سمة الزواج فى المرحلة السابقة ينصب على بناء وتمتين الصف الداخلى ، بينما تظهر سمة الزواج فى هذه المرحلة من خلال العمل على كسب الصف الخارجى وجعله معبراً لنشر الدعوة فى الأرض العربية ، ولنقف لحظات سريعة عند كل واحدة منهن :

أم حبيبة ، رملة بنت أبى سفيان : وقد عقد عليها رسول الله ﷺ وهى فى أرض الحبشة، وأكرم غربتها فى سبيل الله بعد ردة زوجها عبيد الله بن جحش، وكونها ابنة زعيم قريش ذات دلالة ضخمة على تقريب القلوب وتأليفها من هذا القائد الكبير ، ولقد رأينا أثر هذا الزواج قريب فتح مكة حيث جاء أبو سفيان ونزل ضيفا على رسول الله ﷺ وفى بيت ابنته ولا يزال على شركه،وموقفه من الدعوة، ولا نشك أن موقف ابنته منه من خلال فراش رسول الله ﷺ ورغم أنه جرحه فى أعماقه، لكن كان له أكبر الأثر الخفى فى أن يعيد النظر فى مواقفه وعدائه للدعوة، وأن يفقه من خلاله عظمة هذا الدين وعظمة رجاله ونسائه.

لقد طوت فراش رسول الله ﷺ عن أبى سفيان فقال لها :

(يا بنية أرغبت بى عن هذا الفراش ، أم رغبت به عنى ؟ قالت : بل هو فراش رسول الله ﷺ ، وأنت رجل مشرك نجس، ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ فقال : والله لقد أصابك بعدى شر) (١) .

وللتعرف على أثر هذا الزواج فى نفس أبى سفيان نلاحظ أنه بعد إسلامه يعرض ابنته الثانية على رسول الله ﷺ للزواج منها ، فيعتذر رسول الله أنه لا يحل له ذلك .

زينب بنت جحش : وهى زوجة مولاه زيد رضي الله عنه ، وقد هاب رسول الله ﷺ هذا الزواج هيبة عظيمة تحدث عنها القرآن بقوله جل وعلا : ﴿ ... **وتخشى الناس والله أحقُّ أن تخشاه** ... ﴾ لكن الأمر الربانى جاءه بذلك ليحطم العادة المستأصلة فى المجتمع عادة التبنى من خلال الواقع العملى بعد القرار النظرى ، ولتعلم الدنيا ذلك كما يقول القرآن الكريم : ﴿ **لكيْ لا يكُونَ على المُؤمنين حرجٌ في أزْواج أدْعيائهم إذا قضوْا منهُنَّ وطرا** ﴾ [الأحزاب : ٣٧] .

وإن كان هذا الزواج يحتمل صفة البناء الداخلى ، فهو يحمل كذلك صفة البناء الخارجى ؛ إذ إن زينب رضي الله عنها هى أول امرأة غير قرشية يتزوجها ـ عليه الصلاة والسلام ـ فهى من بنى أسد وإن كانت ابنة عمته .

جويرية بنت الحارث : وهى ابنة سيد بنى المصطلق، وكان زواجها سبباً فى فداء أهلها وقبيلتها من الأسر، ثم سبباً فى إسلام قومها ، ونستمع إلى أثر هذا الزواج عند ابن إسحاق رحمه الله ، قال : (. . . وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله ﷺ قد تزوج جويرية ابنة الحارث بن أبى ضرار فقال الناس : أصهار رسول الله ﷺ ، وأرسلوا ما بأيديهم .

قالت ـ أى عائشة : فلقد أعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بنى المصطلق، فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها) (٢) .

صفية بنت حيى : وهى ابنة حيى بن أخطب أكبر أعداء الإسلام ، وقد قتل فى بنى قريظة ، لكن الزواج من صفية فيما بعد كان له آفاق أبعد وأعمق ؛ إذ إنه ربط أهل الكتاب برابطة المصاهرة ، وعندما كانت عائشة رضي الله عنها تعير صفية بأنها من

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٩٦ .

(٢) المصدر السابق ٢/ ٢٩٥ .

سلالة يهود كان رسول الله ﷺ يغضب ويقاطعها ، ويقول لصفية قولى لها : « إن أبى هارون وعمى موسى » .

وهذا العمل الاجتماعى الضخم يعنى كثيراً فى مفهوم الدعوة ، ويعنى أن التعايش بين المسلمين وبين أهل الكتاب قائم ، ولو أدى إلى نكاح نسائهم ، فالمرأة حين تعيش الإسلام سوف يصفو قلبها بعد ، وتدخل فى الإسلام كما يتآلف قلب طائفتها فى هذا المجتمع .

وعلى غرار هذا المستوى كان زواج رسول اللّه ﷺ من مارية القبطية والتى ربط زواجها بأمة كاملة إذ قال :

« استوصوا بالقبط خيراً ، فإن لى فيهم نسباً وصهراً » .

وقد أثرت هذه الدعوة فيما بعد وحدت بأهل مصر أن يدخلوا فى دين اللّه أفواجا حين رأوا حسن معاملة المسلمين لهم تنفيذاً لوصية رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ وكان من حكمة الله تعالى فى هذا الأمر أن رسول اللّه ﷺ لم يرزق ولداً بعد خديجة إلا من مارية رضي الله عنها ، وكان ولده إبراهيم قد استأثر بحب النبى ﷺ أكبر استئثار ، ولم يتمالك ـ عليه الصلاة والسلام ـ من القول بعد وفاته :

« إن العين لتدمع ، وإن القلب ليخشع ، وإنا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون » .

« تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضى الرب ، وإنا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون » .

ميمونة بنت الحارث الهلالية : وهى التى وهبت نفسها للنبى ﷺ ، وقد حرص ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يستثمر هذا الزواج فى تقريب قلوب قريش بعد عمرة القضاء ، إذ قال لهم عندما جاؤوا لإيذانه بالخروج من مكة :

(« وما عليكم لو تركتمونى فأعرست بين أظهركم ، وصنعتُ طعاماً ؟ » فقالا : لا حاجة لنا فى طعامك اخرج عنا ، ننشدك اللّه والعهد الذى بيننا وبينك إلا خرجت من أرضنا) [1] .

---

(١) إمتاع الأسماع للمقريزى ١/ ٣٤٠ .

وهذه السمة ذات دلالة واضحة على الاتجاه العام فى تأليف قلوب الخصوم وتقريبهم للإسلام ، وأن الجهاد السياسى قد يكون من وسائله الناجعة الزواج والمصاهرة من الخصوم.

وما أحوج شباب الإسلام إلى هذا الفقه السياسى والأفق الواسع فى فهم طبيعة هذا الدين . إن الشباب المسلم كثيراً ما يتحمس فى قضية التميز والمفاصلة ، حتى يتحجر على نفسه ، وينغلق على ذاته ، ويجعل سدّا منيعاً على أفراده ، فلا يدخل فى الصف الإسلامى أحد ، ولا يحرص على دخولهم فى الأصل ، وتسيطر عليه فكرة الحرب والكراهة لأعداء الله ، وفكرة الإذلال والإهانة لهم ، وينسى أنه داعية قبل كل شىء ، وأن هدفه الأخير كذلك أن يدخل الناس فى دين الله أفواجاً ، وبالتالى فلابد أن يدرك الداعية أن هداية هؤلاء الخصوم ودخولهم فى الإسلام هو الهدف الأول ، وليس ذبحهم والقضاء عليهم ، وأن تآلف كبار الخصوم وربح قلوبهم هو ربح لقلوب أتباعهم جميعاً ، ونتمنى أن يفرق الأخ بين أساليب التأليف والتحبيب بالإسلام وبين أساليب المداهنة فى دين الله ، والتنازل عن الإسلام فى سبيل ذلك .

وشىء آخر ما أحوج دعاة الإسلام إليه ، فالزواج نفسه قد مسخ عن مفهومه الأول ، واقترب فى الواقع العملى ، وفى صفوف شباب الإسلام من الزواج الكهنوتى النصرانى ، حيث إن التعدد قد أصبح نشازاً فى الصف الإسلامى ، وأصبح غريبا غربة اقتراف المنكر ، وقادة الدعوة هم المثل المقتدى به فى هذه الدعوة ، فلابد أن يكونوا نماذج حية فى تطبيق هذا الفهم النبوى فى جعل الزواج والتعدد وسيلة من وسائل بناء الدعوة وتقريب القلوب والالتحام مع الخصوم والأصدقاء ، وما رأيناه من إقدام رسول الله ﷺ على الزواج من زينب وتحطيم عادة التبنى من خلال الزواج بمطلقة متبناه ، وما تحمله من مواجهة المجتمع الجاهلى الذى يحرم هذا الزواج حتى يزيل الحرج عمليّا عن المؤمنين فى الإقدام على هذا الزواج ـ هو دفع للدعاة الكبار أن يتأسوا برسول الله ﷺ وينتقلوا قضية الزواج من مفهومها المحدود ـ حيث البحث عن الجمال والبكر والسن الصغير ـ للارتقاء بها إلى الأفق الواسع الذى يشيع المودة والرحمة بين أبناء الأمة جميعاً ، ورفع مستوى المرأة الثيب وزوجات الشهداء إلى المستوى الكريم اللائق بهن أنهن

محط أنظار القيادة ، ولسن من المحرومات اللواتى انصرف النظر عنهن فقط ؛ لأنهن ثيبات .

إنها مسؤولية جسيمة يضطلع بها الدعاة ، وأخص بالذكر القيادات لوضع الزواج فى وظيفته الاجتماعية العامة، وجعل الكفاءة حقيقة من خلال الدين والخلق لا من خلال الجمال والحسب والبكارة، ومن خلال مصلحة الإسلام العليا لا من خلال الرغبة الجنسية المحدودة .

والنظر إلى الزواج على أنه وسيلة هامة من وسائل الدعوة لا على أنه معيق من معيقاتها، ولابد أن تتدرب الأخوات المسلمات كذلك على هذه المعانى ويلجمن أهواءهن وأنانيتهن وغيرتهن أمام مصلحة الإسلام وعقيدة الإسلام ومصلحة أخواتهن اللاتى لم يكن لهن من ذنب إلا أن فقدن أزواجهن فى سبيل الله .

السمة الرابعة

الصف الداخلى القوى من خلال صلح الحديبية

لئن كانت غزوة بنى لحيان إرهاصاً لابتداء المرحلة الجديدة ، فلقد كانت عمرة الحديبية هى التنفيذ العملى البين لقوله ـ عليه الصلاة والسلام : « الآن نغزوهم ولا يغزونا » ، ولكن هذا الغزو لم يكن غزواً عسكريًا بحتا ، بل كان غزواً سلميًا بهدف العمرة إلى البيت الحرام، لكن لا يغيب عن ذهن رسول الله ﷺ أبعاد هذه العمرة ، وأنه قد يلقى مقاومة مسلحة. غير أن التحرك السياسى فى الاتجاه الجديد كان لابد منه (وقد استنفر الأعراب ومن حوله من أهل البوادى ليخرجوا معه، وهو يخشى من قريش الذى صنعوا ـ أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت ـ فأبطأ عليه كثير من الأعراب . وخرج رسول الله ﷺ بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب وساق معه الهدى ، وأحرم بالعمرة ليأمن الناس على حربه وليعلم الناس أنه إنما خرج زائراً لهذا البيت ومعظماً له . . . وكان جابر ابن عبد الله يقول : كنا أصحاب الحديبية أربع عشرة مائة . . .) [1] .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٠٨ ، ٣٠٩ .

ولن نستطيع دراسة صلح الحديبية من كل جوانبه ، لكننا سنعالج هذا الجانب فى هذه السمة ونرجئ الحديث عن الفتح المبين فى السمة التالية .

أما مظاهر هذا الصف القوى الموحد ، فقد بدت على الصور التالية :

أولاً : إن مجرد استجابة المهاجرين والأنصار للنفير هو دليل حى على مدى الطاعة والالتزام والانضباط فى هذا الصف ، فبعد أقل من سنة على غزوة الأحزاب كان هذا التحرك بهذا العدد الضئيل ألف وخمسمائة، فلا ينسى المسلمون أن الأحزاب غزوهم بعشرة آلاف مقاتل .

فكيف يتحرك هذا الجمع الضئيل من المئات إلى مشارف مكة ، ولا شك أن الدافع الإيمانى القوى هو الذى حدا بالمسلمين إلى الاستجابة؛إذ إن رسول الله ﷺ قص عليهم رؤياه أنه دخل البيت وحلق رأسه وأخذ مفتاح البيت، وعرَّف مع المعرفين[1] ، وإنها لجرأة متناهية أن يغامر المسلمون بألف وخمسمائة رجل يتجهون بهم إلى مكة التى تعلن الحرب عليهم.

ثانياً : وكانت حرب الأعصاب الأولى التى تلقاها هذا الصف المسلم بُعسفان حيث لقيه بشر بن سفيان قائلاً له : يا رسول الله، هذه قريش قد سمعت بمسيرك فخرجوا معهم العوذ المطافيل[2] ، قد لبسوا جلود النمور ، وقد نزلوا بذى طُوى يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً ، وهذا خالد بن الوليد فى خيلهم قد قدموها إلى كراع الغميم ، فقال ـ عليه الصلاة والسلام : « يا ويح قريش ، لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب، فإن هم أصابونى كان ذلك الذى أرادوا، وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة فما تظن قريش ، فوالله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة [3] » [4] .

وعندما يسمع جيش هذا الوصف لتحرك قريش بشيبها وشبابها ونسائها وأطفالها لمواجهة محمد ﷺ لابد أن يصيبه الذعر ، ويتخلخل من الرعب وتنتشر به الفوضى ، وصراع الآراء ، لكن جيش النبوة الملتزم بقيادته قد تجاوز هذه

---

(١) أى وقف فى عرفة .

(٢) يريد أنهم خرجوا ومعهم النساء والصبيان .

(٣) السالفة : صفحة العنق ، وكنى بانفرادها عن الموت .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٣٠٩ .

المرحلة، والضعفاء المخذولون المتخاذلون ولو كانوا موجودين فى داخل الجيش هم أجبن من أن يرفعوا عقيرتهم بالمخالفة أو يظهروا هلعهم وجبنهم ، ويدعو إلى الاستسلام أو الفرار ، فأى قوة فى الصف تعدل هذه القوة ؟

لكن الجانب الآخر من القضية هو الجانب السياسى ، فهذه أول مرة يعلن فيها رسول الله ﷺ رغبته فى تجنب الحرب مع قريش ودعوتها إلى المهادنة ، وذلك ضمن خط واضح متميز أن يقفوا على الحياد بينه وبين العرب ، ولم يكتف ـ عليه الصلاة والسلام ـ بذلك ، إنما أوضح أبعاد هذا الموقف بأنه لصالح قريش سواءً انتصر محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ أم لم ينتصر ، وفى هذا كبح لجماح التهور القرشى من الاستمرار فى المعركة ، وفتح لآفاق الدعوة أن تخطو الطريق الذى سدته قريش من كل جانب . إنه السلام القائم على مصلحة قريش ذاتها قبل أن يكون مصلحة المسلمين .

إلا أن هذا الكلام يعنى من طرف آخر خفى أن وهناً قد حل بالمسلمين، فراحوا يبحثون عن الحل السلمى للابتعاد عن المواجهة ، فكان لابد من إسماعهم منطق القوة الذى يفهمون فيه ، وهو :

« فوالله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة » إنه المنطق المتوازن الذى لا يريد الحرب للحرب ، إنما لإظهار هذا الدين وإعلانه وهو جاهز لأن يتفهم وجهة نظر الخصم ، غير أن هذا المنطق لا يعنى خللاً فى القوة أو وهناً فى الصف ، ونحن نرى الصف القوى هنا كذلك بعد إعلان النبى ﷺ عن استعداده لخوض المعركة دون أن يعترض جندى واحد على ذلك ، فى الوقت الذى خرج الجيش فيه للعمرة لا للقتال .

ثالثاً : والتحام الصف الإسلامى مع قيادته يبدو جليّا كذلك فى أثناء عرض عضلات قريش من قادة وفودها ، وذلك على أربعة نماذج :

النموذج الأول : وهو بديل بن ورقاء الخزاعى ، وهو أقرب ما يكون لمحمد ﷺ لما بين خزاعة ومحمد من ود ، واعتبرت قريش أن هذا الرجل كفيل بأن يثنى محمداً عن عزمه على دخول مكة .

فأخبرهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه لا يريد حرباً ، وأنه إنما جاء زائراً لهذا البيت معظماً له ، وأسرع بديل ليقول لقريش : إن محمداً لم يأت لقتال ، وإنما جاء زائراً لهذا البيت .

فقالت قريش لهم : وإن كان جاء لا يريد قتالاً . فوالله لا يدخلها علينا عنوةً أبداً ، ولا تحدث بذلك عنا العرب .

النموذج الثانى : مكرز بن حفص حيث حدد ـ عليه الصلاة والسلام ـ طبيعته قائلاً : «هذا رجل غادر » وقال له مثل ما قال لبديل ، وكان الأمر حتى الآن طبيعيا لا يثير حفيظة هذا الجيش القوى .

النموذج الثالث : وقصدت به قريشٌ أن تعلم محمداً أن قريشاً ليست وحدها فى المعركة، بل معها القبائل المجاورة لمكة، فالحليس بن علقمة سيد الأحابيش[1]. ولم تفت هذه القضية رسول الله ﷺ . فقال للمسلمين : « إن هذا من قوم يتألهون [2] فابعثوا فى وجهه الهدى حتى يراه »، فلما رأى الهدى رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاماً لما رأى ، فقال لهم ذلك . فقالوا له : اجلس فإنما أنت أعرابى لا علم لك .

وغضب الحليس عند ذلك وقال : يا معشر قريش ، والله ما على هذا حالفناكم ، ولا على هذا عاقدناكم ، لتخلُّن بين محمد وما جاء له أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد ، فقالوا له : مه ، كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به .

والدلالة فى هذا النموذج صارخة على العبقرية العظيمة للنبوة حين صرف سيد الأحابيش وقد تبنى رأيه بالعمرة دون أن يلقاه ، وكاد صف مكة الداخلى أن يتفجر وتقع المواجهة بين الأحابيش وقريش لولا أن تداركت قريش الأمر وأصلحته مع الرجل ، ومع ذلك فقد أصبح فى صف مكة تيار قوى ، أعلن عن رأيه بضرورة السماح لمحمد ﷺ بالاعتمار ، وهدد بالسلاح ما لم يتم تنفيذ ذلك ، وقد تم هذا الأمر ـ حتى دون لقاء بين رسول الله ﷺ وسيد الأحابيش ـ بحسن اختيار الأسلوب المناسب الذى يفهم به هذا الرجل ، وهو بعث الهدى فى وجهه .

---

(١) الأحابيش : قبائل كانت حول مكة ، وتسكن فى جبالها .

(٢) يتألهون : يتعبدون ويعظمون أمر الإله .

النموذج الرابع : وقصدت به قريشٌ حربا نفسية كذلك لمحمد وأصحابه لتعلمه أن ثقيفا مع قريش حليفة فى هذه المواجهة، فبعثت بأذكى وأدهى ما عندها ليفت فى أعضاد أصحاب محمد ﷺ ، وكان تخطيط قريش بأنه مجرد رؤية عروة بن مسعود زعيم ثقيف يأتى ممثلا لقريش فى هذه المفاوضات كفيل بأن يزلزل هذا الصف المتين ، فكيف إذا استعمل خبثه ودهاءه ، ولننظر إلى هذه الحرب السياسية من المنتصر فيها فى نهاية المطاف .

(خرج حتى أتى رسول الله ﷺ ، فجلس بين يديه ثم قال :

يا محمد ، أجمعت أوشاب الناس[1] ثم جئت بهم إلى بيضتك [2] لتفضها[3] بهم ، إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمور ، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبدا ، وايم الله ، لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك غدًا ، قال : وأبو بكر الصديق خلف رسول الله ﷺ قاعد ، فقال : امصص بظر اللات ، أنحن ننكشف عنه ؟ قال : من هذا يا محمد ؟ قال : «هذا ابن أبى قحافة » ، قال : أما والله لولا يد كانت لك عندى لكافأتك بها ولكن هذه بها ، قال : ثم جعل يتناول لحية رسول الله ﷺ وهو يكلمه ، والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله ﷺ فى الحديد ، قال : فجعل يقرع يده إذا تناول لحية رسول الله ﷺ ويقول : اكفف يدك عن وجه رسول الله ﷺ قبل ألا تصل إليك . فيقول عروة : ويحك ما أفظك وأغلظك . قال : فتبسم رسول الله ﷺ فقال له عروة : من هذا يا محمد ؟ قال : « هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة » قال : أى غدر ، وهل غسلت سوءتك إلا بالأمس . . . فقام من عند رسول الله ﷺ وقد رأى ما يصنع أصحابه ، لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه ، ولا يبصق بصاقا إلا ابتدروه، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه. فرجع إلى قريش فقال: يا معشر قريش ، إنى قد جئت كسرى فى ملكه، وقيصر فى ملكه ، والنجاشى فى ملكه ، وإنى والله ما رأيت ملكا فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه ، ولقد رأيت قومًا لا يسلمونه لشيء فروا رأيكم) [4] .

فلقد عاد عروة بن مسعود بعد هذه الجولة داعية لمحمد ﷺ على غير وعى منه

---

(١) أوشاب الناس : أخلاطهم .
(٢) بيضة الرجل : أهله وقبيلته .
(٣) تفضها : تكسرها .
(٤) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣١٣ ، ٣١٤ .

بدل أن يحمس الناس على حربه ، لقد هزمت قريش وهزم عروة أمام صلابة الصف المسلم الذى أبدى من ضروب الطاعة والانضباط والالتزام ما أذهل عروة وهزمه فى أعماقه . لقد بالغ المسلمون فى إظهار الطاعة أمام العدو الغادر ما لم يفعلوه من قبل، وجيش هذا طبيعته وهذه نفسيته، يُجابَهُ به قوى الأرض لا قريش وحدها أو قريش ومعها ثقيف والأحابيش ، حتى الهادئ الوديع الحليم أبو بكر ينقلب أمام عدو الله ليثًا يزأر ، ويتهكم بأسلوب فج من عروة سيد ثقيف وعقله حين أراد أن يفتن الصف بتخويفه من قوة قريش ، ويضرب القيادة بالقاعدة فيثنى عزيمة محمد عن الحرب لتفرق أصحابه عنه ، فكان لابد أن يسمع ما يكره بأسلوب ما عهد عن أبى بكر قط ﷺ . وكلام غير عفيف يجعل عروة فى جحره لا يتعداه . وكان الرد الثانى أعنف وأشد من المغيرة بن شعبة ، فلئن اعتدت قريش بعروة الثقفى معها ، فالبطل الثقفى المغيرة هو سيف محمد صلوات الله عليه ولا يفل الحديد إلا الحديد ، إن عظمة النبوة السياسية التى لا تدانيها عظمة هى فى حسن استعمال اللين فى محله والعنف فى محله . . . لقد ارتد كيد قريش فى نحرها ، وهزمت نفسيًا أمام محمد صلوات الله عليه وصحبه وجنده ، وراحت تعالج أمرها بعد خطبة ابن مسعود فيها من باب المفاوضة لا من باب التهديد والمواجهة ، وصار الصف المسلم القادم إلى العمرة بألف وخمسمائة أقوى بألف مرة من صف قريش وثقيف والأحابيش الذى تزعزع وهدد بعضه بالسلاح .

إنه درس عظيم للحركة الإسلامية ، درس للقيادة التى تتقن فن التعامل مع العدو فتحطم أعصابه ، وتهز نفسه من الأعماق، وتتعامل مع الخصوم كل حسب طبيعته ونفسيته.

ودرس إلى القاعدة كى تفقه معنى الالتزام والانضباط خاصة أمام العدو وعلى أرضه فتكون كلها سهمًا واحدًا ويدًا واحدة وقلبًا واحدًا فى مواجهة العدو .

رابعًا : وكانت المحاولة الرابعة من قريش فى إيجاد ثغرة فى الصف المسلم من خلال عملية فدائية كلف بها حوالى خمسين من قريش علهم ينالوا بعضا من أصحابه أسرًا أو قتلاً فيجزع المسلمون ، ويحاولون إيقاع الرعب فيهم ، فماذا كانت النتيجة ؟

أخذوا جميعًا أسرى بيد المسلمين حيث ظفر بهم محمد بن مسلمة قائد حرس

المسلمين، وبلغ قريشًا حبس أصحابهم ، فجاء جمع منهم ورموا بالنبل والحجارة، فرماهم المسلمون وأسروا منهم اثنى عشر فارسًا .

وكانت هذه العمليات المرتجلة من قريش صدمة عنيفة أخرى لهم ، وكانت مع آراء الوفود كفيلة بأن توقع الوهن فى صف العدو .

وترى كم يسر الجنود المسلمون حين يرون بين ظهرانيهم خمسين رجلاً واثنى عشر فارسًا أسرى بيدهم .

خامسًا : وكانت محاولة عرض العضلات الأخيرة والتهديد بالسلاح من قريش هى من خلال خيلهم التى كان على رأسها خالد بن الوليد .

ودنا خالد بن الوليد فى خيله حتى نظر إلى المسلمين ، فصف خيله فيما بينهم وبين القبلة ، فقدَّم رسول الله ﷺ عبّاد بن بشر فى خيله ، فقام بإزائه وصف أصحابه ، وحانت صلاة الظهر فأذن بلال وأقام ، فصلى رسول الله ﷺ بأصحابه مستقبل القبلة وهم خلفه ، يركع بهم ويسجد ثم قاموا فكانوا على ما كانوا عليه من التعبئة . فقال خالد بن الوليد : قد كانوا على غرة ، لو كنا حملنا عليهم أصبنا منهم ، ولكن تأتى الساعة صلاة هى أحب إليهم من أنفسهم وأبنائهم . فنزل جبريل عليه السلام بين الظهر والعصر بهذه الآية ﴿ **وَإِذَا كُنتَ فِيهِم** ... ﴾ [النساء : ١٠٢] ، فحانت العصر فصلوا صلاة الخوف [١] .

يقول خالد رضي الله عنه : فعلمت أن الرجل ممنوع .

لقد غُزى قائد فرسان قريش فى أعماقه ، وأيس من النصر ، فمن الذى أعلم محمدًا بما بيته من غدر ؟ لقد عرف خالد بن الوليد أنه أعجز من أن ينال شيئًا من محمد. وأضيف هذا الرصيد من الوهن إلى الرصيد السابق فأسقط فى يد قريش، وعرفت أن لا جدوى من المواجهة ففكرت فى المصالحة.

وها هما الصورتان متقابلتان ؛ صورة الصف المسلم الملتحم القوى المصمم على الثبات ، وصورة الصف المتناقض فى الرأى والمهزوم نفسيًا فى أعماقه من هؤلاء المئات القلائل .

---

(١) إمتاع الأسماع للمقريزى ١/ ٣٨٠ .

سادسًا : وكانت الصورة المقابلة التى لابد أن يقوم بها رسول الله ﷺ هو أن يبعث بسفير من عنده يسمع مباشرة من قريش وينقل لهم وجهة نظره حتى لا تلتبس الأمور فكان. (وبعث رسول الله ﷺ إلى قريش خِراش بن أمية على جمل لرسول الله ﷺ ليبلغ أشرافهم أنه إنما جاء معتمرًا ، فعقر الجمل عكرمة بن أبى جهل وأرادوا قتله فمنعه من هناك من قومه فرجع، فأراد النبى ﷺ أن يبعث عمر بن الخطاب رضي الله عنه فخاف على نفسه ، وأشار بعثمان رضي الله عنه ، فبعثه ليخبرهم: إنا لم نأت لقتال أحد، وإنما جئنا زوارًا لهذا البيت معظمين لحرمته، ومعنا الهدى ننحره وننصرف، فأبوا على عثمان أن يدخل عليهم رسول الله ﷺ ، ورحب به أبان بن سعيد بن العاص وأجاره ، وحمله من بلده إلى مكة وهو يقول:

أقبل وأدبر ولا تخف أحدًا بنــو سعيـد أعــزة الحـرم

فبلغ عثمان من بمكة ما جاء فيه ، فقالوا جميعا : لا يدخل علينا محمد عنوة أبدًا. . . وبلغ النبى ﷺ بعد إقامة عثمان بمكة ثلاثا أنه قتل،وقتل معه عشرة رجال مسلمون قد دخلوا مكة بإذن رسول الله ﷺ ليروا أهاليهم . . . وأم رسول الله ﷺ منازل بنى مازن بن النجار ، وقد نزلت فى ناحية من الحديبية جميعا ، فجلس فى رحالهم وقد بلغه قتل عثمان رضي الله عنه، ثم قال : « إن الله أمرنى بالبيعة » فأقبل الناس يبايعونه حتى تداكّوا، فما بقى لهم متاع إلا وطئوه ثم لبسوا السلاح وهو معهم قليل، وقامت أم عمارة إلى عمود كانت تستظل به فأخذته بيدها ، وشدت سكينا فى وسطها، وكان رسول الله ﷺ يبايع الناس وعمر بن الخطاب رضي الله عنه آخذ بيده فبايعهم على ألا يفروا ، وقيل : بايعهم على الموت . . . فبايعوه إلا الجد بن قيس اختبأ تحت بطن بعير . . . وبعثت قريش إلى عبد الله بن أبى بن سلول: إن أحببت أن تدخل فتطوف بالبيت فافعل ، فقال له ابنه : يا أبت أذكرك الله أن تفضحنا فى كل موطن ، تطوف ولم يطف رسول الله ﷺ فأبى حينئذ ، وقال : لا أطوف حتى يطوف رسول الله ، فبلغ رسول الله كلامه فسر به) [1] .

الحرب بين الفريقين قائمة ، وخراش بن أمية الخزاعى يقابل بديل بن ورقاء الخزاعى فخزاعة مسلمهم ومشركهم عليه نصح لرسول الله ﷺ وهى مع قريش كذلك ، ومن أجل هذا وَجَدَ من يمنعه من قومه عندما تعرض للقتل .

---

(١) إمتاع الأسماع ١/ ٢٨٩ ــ ٢٩١ (مقتطفات) .

وكانت الشخصية الثانية المرشحة للسفارة هى عمر بن الخطاب ﷺ ، ولعل ما نزل بخراش من جهة ، وحقد قريش على عمر ﷺ من جهة ثانية ، وكون شوكة بنى عدى فى مكة ضعيفة ، كل هذه العوامل حدت بعمر ﷺ أن يبسط عذره بين يدى قائده؛ لأن سفارته لن تحقق الهدف المطلوب منها ، ومن أجل ذلك قال :

يا رسول الله إنى أخاف قريشًا على نفسى ، وليس بمكة من بنى عدى بن كعب أحد يمنعنى ، وقد عرفت قريش عداوتى إياها وغلظتى عليها ، ولكنى أدلك على رجل أعز بها منى عثمان بن عفان .

وقبل رأى ابن الخطاب دون تردد ، فليس هو محل تهمة أو ظنة ، لكن لكل أمر رجاله ، وعثمان للسفارة خير من عمر ، مع العلم أن السفارة فى الجاهلية كانت عند بنى عدى ، غير أن مكة اليوم يتقاسم النفوذ فيها بنو مخزوم وبنو أمية، ومن أجل ذلك وجد عثمان ﷺ من يحميه حتى يؤدى رسالة رسول الله ﷺ ، وكان لعثمان كذلك مهمة سرية أخرى هى الاتصال بالمؤمنين فى مكة ودعوتهم إلى الصبر والثبات حتى يأذن الله تعالى بالفتح من عنده ، ولما فرغ من تأدية رسالته عرضوا عليه أن يطوف بالبيت فأبى أن يطوف حتى يطوف رسول الله .

وكان هذا درسًا بليغا فى الالتزام حتى ولو كان طواف الكعبة الذى يحلم به المسلم منذ سنين خلت ، لكنه لم ينفذ أمرًا حتى يرجع إلى قيادته فيسألها ، وامتنع عن الطواف قبل طواف النبى عليه الصلاة والسلام .

وحين يلتزم الجندى بأمر قائده عند الأعداء رغم الإحراجات الكثيرة من عشيرته ، فهذا يعنى أن الولاء لن يكون إلا لله ورسوله ، لكن هذا الولاء لم يمنع من قبول حماية أبان بن العاص أحد قادة بنى أمية ، وما أحوجنا إلى أن نفرق بين القضيتين ، لأن الأولى لا علاقة لها بطبيعة المهمة ، وتتم المهمة بدونها ، أما الثانية فهى صلب مهمة عثمان ﷺ ، فلم يجد حرجًا أو إثما بقبول إجارة أبان ابن سعيد .

وننتقل إلى المعسكر الإسلامى وقد بلغه إشاعة مقتل عثمان ﷺ، وكان لهذه الإشاعة وقع البارود المتفجر فيه ، فمضى رسول الله ﷺ إلى أعز معقل من معاقل الأنصار إلى منازل بنى مازن بن النجار ، وأخبرهم بأمر البيعة .

(فأقبل الناس عليه حتى تداكُّوا فما بقى متاع إلا وطئوه ، ثم لبسوا السلاح ، وهو معهم قليل . . .) .

يقول ابن إسحاق : (فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة . فكان الناس يقولون : بايعهم رسول الله ﷺ على الموت . . . وكان جابر بن عبد الله يقول : إن رسول الله ﷺ لم يبايعنا على الموت ولكن بايعنا على ألا نفر) .

وإنه لمن أغرب ما روى التاريخ من ولاء والتزام والنصرة ، لقد خرج القوم للعمرة ، وألحوا على رسول الله ﷺ أن يحملوا السلاح ، فرفض ذلك وقال : «لست أحمل السلاح إنما خرجت معتمرًا » ، وساهم فى هذا الرأى قادة المهاجرين والأنصار ، ومع ذلك فها هو يدعوهم إلى المواجهة والموت فيتزاحمون إلى البيعة حتى لا يبقى متاع إلا وطئوه .

لقد أصبح الصف الإسلامى من القوة والتلاحم بحيث نكاد نقول : إن النفاق قد انتهى منه.

وحين نذكر أن المنافقين كانوا بضعة عشر فى غزوة الأحزاب ، فها نحن لا نجد وجودًا لهم فى الحديبية .

إن الصورة الواقعية فى عالم الأسباب تقول : ألا يستجيب للبيعة على الموت والمواجهة إلا أفراد قلائل ؛ لأن القوم لم يخرجوا للقتال ، وقائدهم أكد لهم أن خروجه للعمرة، ولم يعدوا سلاحًا لذلك ، وما نعلمه عن عالم الأحزاب اليوم فى مثل هذه الحالة أن يغتال القائد ويحاكم بتهمة توريط الجيش فى الهلاك ، أما أن يسارع الجيش كله للبيعة ويتزاحم عليها ، فهذا يعنى أن النفاق فى هذه المرحلة قد ولى كأمس الدابر ، وأن ينفرد رجل واحد من هذا الجيش فيختبئ بظل بطن ناقته ولا يبايع ، وأن يكون عبد الله بن أبى من بين المبايعين . فهذا يعنى أن الجيش الإسلامى قد تجاوز أزمته ، وأجهز على عناصر الضعف فيه.

ونذكر مع هذا الالتزام العجيب النسوة الأربع اللاتى شاركن الحملة ، فقد شاركن فى البيعة كذلك ، وكأنى بأم عمارة رضي الله عنها ، وقد التمع بعينيها بريق أحد بعد أن تسلحت بعمود البيت وشدت السكين على وسطها ، وجددت بيعتها كما بايعت يوم العقبة ؛ لتكون مع الصف المسلم المقاتل وهؤلاء النسوة القليلات هن

اللاتى شددن نظر عروة بن مسعود ، وكان مما قاله لقريش : (رأيت نُسيات معه ، إن كنَّ ليسلمنه أبدًا على حال) (١) .

ولم يفكر جندى واحد من هذا الصف القوى أن يعتب على قائده ـ عليه الصلاة والسلام ـ الذى يطلب منه الآن البيعة على الموت ، وقد جاء به إلى العمرة ومنعه أن يهيئ سلاحه .

ومن قوة هذا الالتزام كذلك أن نجد عبد الله بن أبى الذى جاءه وفد خاص من قريش يدعونه ليدخل مكة ويطوف بالحرم ، وكان بإمكان ابن أبى أن يهتبل الفرصة ، ويطوف بالكعبة فى عز حراب قريش ، لكن ظل ابنه عبد الله والموقف الرهيب الذى وقفه منه يوم المريسيع ووضع السيف على عنقه آنذاك عاد فارتسم أمامه ، وابنه يذكره بالله فما كان من زعيم النفاق إلا أن رضخ لهذا الجو العام ، وأحنى رأسه للعاصفة وقال :

لا أطوف حتى يطوف رسول الله .

وهذا درس عظيم للجماعة المسلمة تتعلم منه أصول الانضباط والسمع والطاعة للقيادة.

وكانت البيعة هى محك الرجال فلم يتخلف منهم أحد، بل سارع النساء إليها كذلك.

والنقطة الأخيرة فى هذا المجال وهى التى نتوجه بها لقيادة الحركة الإسلامية أن تستوعبها بعد درس القاعدة هى أهمية الجندى المسلم عند قيادته .

لقد قرر رسول الله ﷺ أن يشن حربًا على قريش مع من بايعوه على الموت ثأرًا لجندى واحد من جنوده هو عثمان بن عفان عندما أشيع أنه قتل .

والجندى الذى يرى هذا الاهتمام من قيادته به ، وهذه الكرامة والحظوة له عندها ، لا ضير أن يفتدى هذه القيادة بروحه ودمه ووجوده وأعز ما لديه فى هذا الوجود ، ولا ضير إذن أن تغير القيادة موقفًا مصيريًا ثأرًا لجندى من جنودها بعد أن علمها هذا الدرس رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام .

---

(١) إمتاع الأسماع ١/ ٢٨٨ ، والنُسيات : جمع تقليل وتصغير للنسوة .

سابعًا : ونحن نعرض للصف الداخلى القوى لابد أن نعرض للصلح نفسه كما تعرضه كتب السير .

(فلما اصطلحوا ولم يبق إلا الكتاب، وثب عمر ﷺ فقال: يا رسول الله، ألسنا بالمسلمين ؟ قال رسول الله ﷺ : « بلى » ، فقال : فعلامَ نعطى الدنية فى ديننا ؟ فقال رسول الله : « أنا عبد الله ورسوله ، ولن أخالف أمره ، ولن يضيِّعنى » ، فذهب عمر إلى أبى بكر ﷺ فقال : يا أبا بكر، ألسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى ! قال: فلمَ نعطى الدنية فى ديننا ؟ فقال : الزم غرزه فإنى أشهد أنه رسول الله ، وأن الحق ما أمر به ، ولن يخالف أمر الله ولن يضيعه الله . ولقى عمر من القضية أمرًا كبيراً ، وجعل يردد على رسول الله ﷺ الكلام وهو يقول: « أنا رسول الله ولن يضيعنى » ، ويردِّد ذلك. فقال أبو عبيدة بن الجراح ﷺ : ألا تسمع يا بن الخطاب رسول الله يقول ما يقول ! تعوذ بالله من الشيطان واتهم رأيك! فجعل يتعوذ بالله من الشيطان الرجيم حينًا، وكان المسلمون يكرهون الصلح؛ لأنهم خرجوا ولا يشكون فى الفتح لرؤيا رسول الله ﷺ أنه حلق رأسه وأنه دخل البيت فأخذ مفتاح الكعبة، وعرَّف مع المعرِّفين ، فلما رأوا الصلح داخلهم فى ذلك أمر عظيم حتى كادوا يهلكون .

وبينا الناس قد اصطلحوا والكتاب لم يكتب، أقبل أبو جندل بن سهل . . . وقد أفلت يرسف فى القيد متوشح السيف . . . ففرح المسلمون به وتلقوه حين هبط من الجبل فسلموا عليه وآووه ، فرفع سهيل رأسه فإذا بابنه أبى جندل ، فقام إليه فضرب وجهه بغصن شوك وأخذ بتلابيبه فصاح أبو جندل بأعلى صوته : يا معشر المسلمين ، أأرد إلى المشركين يفتنونى فى دينى ؟ فزاد المسلمين ذلك شرا إلى ما بهم وجعلوا يبكون لكلام أبى جندل ؛ فقال حويطب بن عبد العزى لمكرز ابن حفص : ما رأيت قوماً قط أشد حبا لمن دخل معهم من أصحاب محمد لمحمد وبعضهم لبعض ! أما إنى أقول لك : لا نأخذ من محمد نصفاً بعد هذا اليوم حتى يدخلها عنوة ! فقال مكرز : وأنا أرى ذلك ، وقال سهيل بن عمرو : هذا أول من قاضيتك عليه ردَّهُ ! فقال رسول الله ﷺ : « إنا لم نقض الكتاب بعد » فقال سهيل : والله لا أكاتبك على شىء حتى تردَّه إلى فرده عليه ، وكلمه أن يتركه فأبى سهيل وضرب وجهه بغصن من شوك ، فقال رسول الله ﷺ : « هبه لى ،

أو أجره من العذاب» ، فقال: والله لا أفعل ، فقال مكرز وحويطب : يا محمد، نحن نجيره لك. فأدخلاه فسطاطاً فأجاراه فكفَّ عنه أبوه ، ثم رفع رسول الله ﷺ صوته فقال : « يا أبا جندل ، اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك فرجاً ومخرجاً ، إنا عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك عهداً وإنا لا نغدر » ، وعاد عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ، ألست برسول الله ؟ قال : « بلى! » قال : ألسنا على الحق ؟ قال : « بلى! » قال: أليس عدونا على الباطل ؟ قال : « بلى! » قال : فلمَ نعط الدنية فى ديننا ؟ فقال: « إنى رسول الله ولن أعصيه، ولن يضيعنى » ، فانطلق إلى أبى بكر رضي الله عنه فقال له مثل ذلك، فأجابه بنحو ما أجاب به رسول الله ثم قال: ودع عنك ما ترى يا عمر ، فوثب إلى أبى جندل يمشى إلى جنبه وسهيل يدفعه وعمر يقول : اصبر أبا جندل ، فإنما هم المشركون ، وإنما دم أحدهم دم كلب ! وإنما هو رجل ، ومعك السيف ـ يحرضه على قتل أبيه ـ وجعل يقول : يا أبا جندل ، إن الرجل يقتل أباه فى الله! والله لو أدركنا آباءنا لقتلناهم فى الله فرجل برجل ، فقال له أبو جندل : مالك لا تقتله أنت ؟ قال عمر : نهانى رسول الله عن قتله وقتل غيره ، قال أبو جندل : مـا أنت أحق بطاعة رسول الله منى ! وقال عمر ورجال معه : يا رسول الله ، ألم تكن حدثتنا أنك تدخل المسجد الحرام وتأخذ مفتاح الكعبة، وتعرِّف مع المعرِّفين ؟ وهدينا لم يصل إلى البيت ولا نحن! فقال: « قلت لكم فى سفركم هذا ؟ » قال عمر : لا ، فقال ﷺ : « أما إنكم ستدخلونه ؛ وآخذ مفتاح الكعبة وأحلق رأسى ورؤوسكم ببطن مكة ، وأعرِّف مع المعرِّفين » ، ثم أقبل على عمر فقال : « أنسيتم يوم أحد إذ تصعدون ولا تلوون على أحد وأنا أدعوكم فى أخراكم ؟ أنسيتم يوم الأحزاب إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار ؟ أنسيتم يوم كذا ؟ أنسيتم يوم كذا ؟ » والمسلمون يقولون : صدق الله ورسوله. يا نبى الله، ما فكرنا فيما فكرت فيه .

فلما حضرت الدواة والصحيفة بعد طول الكلام والمراجعة دعا رسول الله ﷺ أوس بن خولى يكتب ، فقال سهيل: لا يكتب إلا ابن عمك على ، أو عثمان ابن عفان ، فأمر علياً فكتب فقال : « اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم » فقال سهيل : لا أعرف الرحمن، اكتب ما نكتب : باسمك اللهم ـ فضاق المسلمون بذلك ، وقالوا: هو الرحمن ، والله لا نكتب إلا الرحمن، قال سهيل: إذن

لا أقاضيه على شيء ، فقال رسول الله ﷺ : « اكتب باسمك اللهم ، هذا ما اصطلح عليه محمد رسول الله » فقال سهيل : لو أعلم أنك رسول الله ما خالفتك ، واتبعتك ، أفترغب عن اسمك واسم أبيك محمد بن عبد الله ؟ فضج المسلمون ضجة هى أشد من الأولى حتى ارتفعت الأصوات ، وقام رجال يقولون : لا نكتب إلا محمد رسول الله ! وأخذ أسيد بن حضير وسعد بن عبادة رضي الله عنهما بيد الكاتب فأمسكاها وقالا : لا تكتب إلا محمد رسول الله ، وإلا فالسيف بيننا علام نعط الدنية فى ديننا ؟ فجعل رسول الله يخفِّضهم ، ويومئ إليهم بيده : اسكتوا . وجعل حويطب يتعجب مما يصنعون ، ويقول لمكرز : ما رأيت قوماً أحوط لدينهم من هؤلاء ، فقال رسول الله ﷺ : « أنا محمد بن عبد الله فاكتب . . . ») .

فلما فرغ رسول الله ﷺ من الكتاب ، وانطلق سهيل وأصحابه قال :

« قوموا فانحروا واحلقوا وحلوا » فلم يجبه أحد إلى ذلك ، فردد ثلاث مرات فلم يفعلوا فدخل على أم سلمة رضي الله عنها وهو شديد الغضب ، فاضطجع ، فقالت : مالك يا رسول الله ؟ مراراً وهو لا يجيبها ، ثم قال : « عجباً يا أم سلمة! إنى قلت للناس : انحروا واحلقوا وحلوا مراراً فلم يجبنى أحد من الناس إلى ذلك وهم يسمعون كلامى ، وينظرون فى وجهى » . فقالت : يا رسول الله ، انطلق أنت إلى هديك فانحره فإنهم سيقتدون بك ، فاضطبع بثوبه وخرج فأخذ الحربة ويمم هديه ، وأهوى بالحربة إلى البدنة رافعاً صوته : «بسم الله والله أكبر » ونحر فتواثب المسلمون إلى الهدى ، وازدحموا عليه ينحرونه ، حتى كاد بعضهم يقع على بعض ، وأشرك ﷺ بين أصحابه فى الهدى . . . فلما فرغ رسول الله ﷺ من نحر البدن دخل قبة له من أدم حمراء فيها الحلاق فحلق رأسه ، ثم أخرج رأسه من قبته وهو يقول : « رحم الله المحلقين » ، قيل : يا رسول الله ، والمقصرين ؟ قال : « رحم الله المحلقين » ثلاثاً ثم قال : « والمقصرين ») [1] .

هذا العرض المسهب يعطينا صورة بينة عن طبيعة هذا الصف العظيم بكل شعابه ومشاعره فنحن أمام وضع جديد كل الجدة ، وقد انتقل من النقيض إلى النقيض ، وبعد أن ارتفعت موجة المد الشعورى الحماسى إلى أقصاه بالبيعة على الموت ، وبعد ذلك التزاحم والتلاحم ، نجد الآن صورة معاكسة تتجه إلى المصالحة

(١) إمتاع الأسماع ١/ ٢٩٢ ـ ٢٩٦ (مقتطفات) .

فى شروط تبدو ظاهر الأمر مجحفة بحق المسلمين أيما إجحاف ، وأضخم هذه الشروط وأثقلها على أعصاب المسلمين هى أن يرجعوا هذا العام عن مكة خاصة وهم على أعتاب مكة ، وقلوبهم تتلظى شوقاً للمسجد الحرام ، وها نحن نرى عمر بن الخطاب يفقد أعصابه ، ولم يجرؤ أحد على إبداء هذا الانفعال غير عمر ابن الخطاب .

إن عمر رضي الله عنه الذى لم تحمل أعصابه فى أول لحظة من لحظات إسلامه التخفى فى دار الأرقم، واستأذن رسول الله بنفس الصيغة التى يتحدث بها اليوم: (ألسنا على الحق ؟ أليسوا على الباطل ؟ ففيم التخفى إذن ؟) وها هو يقول الآن: (فلم نعط الدنية فى ديننا) ، وراح عمر يتنقل بين رسول الله ﷺ وأبى بكر وأبى عبيدة رضي الله عنهم ، والجواب يأتيه أن الوحى قد أمر بذلك .

* والضغط الثانى على أعصاب المسلمين كان من خلال رؤيا رسول الله ﷺ أنه دخل الكعبة ، وأخذ مفتاحها وعرَّف مع المعرِّفين وهم يعلمون أن رؤيا الأنبياء حق .

* والضغط الثالث على أعصاب المسلمين كان من خلال بروز أبى جندل على الساحة وهو يصرخ : يا معشر المسلمين، أأرد إلى المشركين يفتنوننى فى دينى ، وأبوه يضربه بغصن الشوك،والمسلمون عليهم ألا يحركوا ساكناً أمام هذا التحدى لمشاعرهم أمام نص المعاهدة.

* والضغط الرابع على أعصاب المسلمين حين رفض سهيل بن عمرو أن يكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، ولم لا تثور الدماء فى العروق ؟ وتشتعل الحرب الضروس للحفاظ على الرحمن الرحيم ؟ ولم كانت هذه الحروب فى السنوات التى خلت ؟ إلا لإعلان الرحمن الرحيم فى الأرض .

* والضغط الخامس على أعصاب المسلمين كان حين كتب اسم رسول الله ﷺ على الصحيفة. ورفض سهيل بن عمرو اسم رسول الله ، وأعلن عن إلغاء المعاهدة لو ذكر .

* والضغط السادس على أعصاب المسلمين كان من بنود المعاهدة المجحفة فى ظاهر الأمر.

حيث إن عليهم أن يعودوا عن مكة هذا العام . وإنه من جاء من أهل مكة مسلماً رده رسول الله ﷺ ، ومن جاء من المسلمين إلى مكة مشركاً لم يرده المشركون .

هذه الضغوط جميعاً جعلت المسلمين فى حالة نفسية صعبة لا يعلم مداها إلا الله ، خاصة وهم يتحولون من المد الشعورى العالى بالبيعة على الموت ، ونصر الله المقترب بدخول مكة والذى لا يشكون فيه طالما أن رسول الله قد حدثهم عنه .

حتى إن وفداً منهم كما مر لم يتمالك أن ذكّر رسول الله ﷺ برؤياه ، وكان على رأس هذا الوفد عمر رضي الله عنه الذى لم يفقد أعصابه كما فقدها اليوم، فأجابهم ـ عليه الصلاة والسلام : « قلت لكم فى سفركم هذا ؟ » ، قال عمر : لا ، فقال ﷺ: « أما إنكم ستدخلونه، وآخذ مفتاح الكعبة، وأحلق رأسى ورؤوسكم ببطن مكة ، وأعرِّف مع المعرِّفين » .

والدرس الذى نود أن تدركه القاعدة من هذه الأمور جميعاً هو: أنه ليس بإمكان القيادة دائماً أن تعطى المبررات لتصرفاتها وأوامرها ، والمطلوب من جنود الدعوة أن تكون ثقتهم بقيادتهم أكبر من ثقتهم بآرائهم وقناعاتهم ، وليس بإمكان القيادة أن تفشى أسرار تصرفاتها للمستويات العامة ، وحق جنود الدعوة هو إبداء الرأى والمشورة وبذل النصيحة وعليهم من طرف آخر السمع والطاعة فيما يحبون ويكرهون ، وفى العسر واليسر وفى المنشط والمكره .

وما برز من صحابة النبى ﷺ يعطى صورة واضحة عن هذا التصرف ، فرغم أن عمر رضي الله عنه فقد أعصابه وأكثر من التساؤل ، لكنه لم يقم بأى تصرف أو مخالفة تحول دون تنفيذ أوامر قائده ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولم يكن أصلا يبيح لنفسه أكثر من إبداء الرأى قبل أن يسمع قول النبى ـ عليه الصلاة والسلام .

ولا شك أنه كان متوتر الأعصاب من هذه المعاهدة ، وتمنى فى قرارة نفسه لو فشل الصلح ، وانفض القوم بدونه، لكن ما كان له أن يتصرف أى تصرف يحقق هذا الغرض ، وحين عرض على أبى جندل أن يقتل أباه وسأله أبو جندل : مالك لا تقتله أنت ؟ قال عمر: نهانى رسول الله ﷺ أن أقتل أحداً. فأجابه أبو جندل: ما أنت أحق بطاعة رسول الله منى .

وكلمته التى كررها مراراً هى التذكير بالبنود المجحفة كما ظهر له من خلال قوله : فلم نعط الدنية فى ديننا .

وإذا وقفنا عند تصرف الصحابة أثناء كتابة الصحيفة عند الحديث عن البسملة والرسالة، نلاحظ أن رسول الله ﷺ ترك لهم إبداء الرأى قبل أن يعلن رأيه فأظهروا احتجاجهم وأعلنوا رفضهم ، وأمسكوا بيد الكاتب ، لكن إشارة واحدة منه ﷺ كانت كفيلة بالصمت التام والقبول .

ولهذه القضية أثران اثنان :

الأول : إشعار قريش قوة المسلمين واندفاعهم واستعدادهم للمواجهة والحرب فليست المعاهدة عن ضعف أو تخاذل من الصف .

الثانى : إشعار العدو كذلك مدى السمع والطاعة فى هذا الصف المسلم الذى يتراجع عن رأيه أمام رأى رسول الله ﷺ أو قوله .

ولابد من بروز هذين المعنيين أمام العدو ليعرف حقيقة هؤلاء الجنود، وقوة شكيمتهم، فلا تسول له نفسه نقض العهد .

إن السمع والطاعة فى المكره والعسر هو أعظم أثراً منه فى حالة المنشط واليسر، والذى يلتزم فى المكره والعسر لا شك أنه ملتزم عندما يتجاوب الأمر مع حبه وقناعته واستعداده ، وهو المعنى الحقيقى للسمع والطاعة .

والدرس الذى نود أن نتوجه به إلى القيادات الإسلامية والمسؤولين فى الحركة هو : أن يرحموا أعصاب جنودهم حين لا يستطيعون تفسير الأوامر لهم .

ففى صلح الحديبية ، وقائدهم رسول الله ﷺ الموحى إليه من عند الله عز وجل ومع ذلك لم تحتمل أعصابهم هذه الضغوط، وانتهى الأمر بهم أن توقفوا عن تلبية نداء الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ لهم بالإحلال .

انفض القوم ، ووقعت المعاهدة ، وانتهى الأمر الذى أصبح حقيقة واقعة ، فلا دخول للحرم اليوم ولا حرب ولا مواجهة .

ولعلنا نقول : إن الموقف الأخير هو الموقف الوحيد الذى يصدر فيه أمر نبوى ولا ينفذ للتو .

ومن أجل ذلك كان هم النبى ﷺ عظيماً على جنده الذين يهلكون إن خالفوا أمره ورفضوا تنفيذ توجيهاته .

ونؤكد أنه لا يوجد فى الأرض قيادة معصومة أو قيادة يوحى إليها ، وبالتالى فعلى القيادة أن تعذُر الصف حين يتلكأ فى أمر هو عكس قناعته ، أو يتباطأ فى تنفيذ قرار يناقض هواه، فإذا كان مجتمع الصحابة الذى هو خير مجتمعات الأرض لم يتمكن من الطاعة التامة بنفس الاندفاع السابق وقائده رسول الله ﷺ فلا غرابة أن يظهر مثل هذا التصرف فى أى صف مسلم قيادته منه تخطئ وتصيب.

كما نشير كذلك فى موطن استفادة قيادة الحركة الإسلامية من هذا الدرس إلى أهمية القدوة العملية من القيادة .

إن الأمر النظرى حين لا تكون القيادة أسرع الناس لتنفيذه لن تستجيب القاعدة له ، ولقد أدركت أم سلمة رضى الله عنها هذا المعنى حين ذكرت لرسول الله ﷺ ضرورة الإحلال والحلق منه ، واستجاب ـ عليه الصلاة والسلام ـ لاستشارة أم المؤمنين، وخرج دون أن يتكلم بشىء فنحر بدنه، وتسارع المسلمون للنحر ، وحلق رأسه وتسارع المسلمون للحلق .

فلم يعد لديهم عذر فى احتمال تغير الرأى .

إن القيادة التى تريد طاعة جنودها لابد أن تكون أسرع الناس فى تنفيذ ما تأمر به ، أما إذا كان واقعها يخالف أوامرها فقد تستجيب القواعد مرة أو مرتين لكنها سترفض الأوامر فى المرة الثالثة ، وتتخلى عن قيادتها وتدير لها ظهرها غير عابئة بالأمر ، وتكون المسؤولية فى مثل هذه الظروف على القيادة نفسها لا على الجنود.

لقد شهدت الحركة الإسلامية فى إحدى فصائلها صورة شبيهة بهذه الصورة حين استنفرت جنودها لمواجهة الطاغية ، وتسارع الشباب من أقصى الأرض ملبين النداء، وإذا بهم يشهدون انصرافاً عن المعركة فى ظاهر الأمر إلى حلف سياسى مع خصوم تاريخيين لهذه الحركة ، وانسحب هذا التراجع الظاهرى على الصف الداخلى فزلزل الصف وبقيت الحركة تعانى منه شهوراً طوالاً وسنين كذلك ، ولما تمح آثاره بعد .

والحقيقة أن الانضباط فى كف اليد عن المعركة هو أصعب بكثير من التوجيه

والدفع للمعركة ، فنفسية الجندى المسلم هى نفسية شجاعة ترغب فى مصارعة العدو وحربه لتحقيق موعود الله ، وحين تأتى الأوامر إليه بكف اليد يحس أن الأمر كبت وخنقٌ له فيتذمر ، وكثيراً ما تفقد الحركة الإسلامية النصر فى معاركها حين لا تملك السيطرة على جنودها ، وتحدد هى موعد المعركة ويلتزم شبابها بوضع اليد على الزناد فترة طويلة دون إطلاق .

نحن بحاجة أن نعيش هذه السيرة المطهرة جنوداً وقيادات ، ونعرف من خلالها الذى يجب علينا فنؤديه ، والذى يحق لنا فنطالب به .

وإذا كان تاريخ الدعوة لم يشهد اندفاعاً أعظم من الاندفاع نحو بيعة الرضوان، فهو كذلك لم يشهد تلكؤاً وتأزماً كما شهد يوم صلح الحديبية .

ولم يترك الله تعالى هذا الصف المسلم فى قلقه بعد أن أدى امتحانه العسير العسير ، واستجاب لأوامر نبيه ، بل جاء القرآن بعد ذلك ليهدئ النفوس الثائرة ويشرح أبعاد المعاهدة ، ويؤكد للصف المسلم أنها كانت الفتح المبين فى تاريخ الدعوة بل كانت بداية عهد جديد فُتحت أمامه آفاق وآفاق ، وكان نقلة هائلة للدعوة غيّرت مجرى التاريخ، وبقى الصف القوى الملتزم هو العدة الحقيقية للاستفادة من هذه الظروف .

وندع الحديث عن هذا الصف المسلم القوى للشهيد سيد قطب ـ رحمه الله ـ فى الظلال ومن خلال حديثه عن سورة الفتح .

(هذا الدرس كله حديث عن المؤمنين ، وحديث مع المؤمنين مع تلك المجموعة الفريدة السعيدة التى بايعت رسول الله ﷺ تحت الشجرة، والله حاضر البيعة وشاهدها وموثقها ويده فوق أيديهم فيها ، تلك المجموعة التى سمعت الله تعالى يقول عنها لرسوله ﷺ : ﴿ **لقد رضي اللهُ عن المُؤمنين إذ يُبايعُونك تحت الشَجرة فعلم ما في قُلُوبهمْ فأنزل السَكينة عليْهمْ وأَثابَهُم فتحاً قريباً** ﴾ [الفتح : ١٨] ، وسمعت رسول الله ﷺ يقول لها: « أنتم اليوم خير أهل الأرض» (١) حديث عنها من الله ـ سبحانه وتعالى ـ إلى رسوله ﷺ ، وحديث معها من الله سبحانه وتعالى يبشرها بما أعد لها من مغانم كثيرة وفتوح ، وما أحاطها من رعاية وعناية فى هذه المرحلة،

(١) أخرجه البخارى فى كتاب المغازى. انظر : فتح البارى ٧/ ٤٤٣ ح ٤١٥٤ .

وفيما سيتلوها ، وفيما قدر لها من نصر موصول بسنته التى لا ينالها التبديل أبداً .

﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا . ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزا حكيما ﴾

[الفتح : ١٨ ، ١٩]

وإنى لأحاول اليوم من وراء ألف وأربعمائة عام أن أستشرف تلك اللحظة القدسية التى شهد فيها الوجود كله ذلك التبليغ العلوى الكريم من الله العلى العظيم ، إلى رسوله الأمين عن جماعة المؤمنين . أحاول أن أستشرف صفحة الوجود فى تلك اللحظة وضميره المكنون وهو يتجاوب جميعه بالقول الإلهى الكريم عن أولئك الرجال القائمين إذ ذاك فى بقعة معينة من هذا الوجود ، وأحاول أن أستشعر شيئاً من حال أولئك السعداء الذين يسمعون بآذانهم أنهم هم بأشخاصهم وأعيانهم يقول الله عنهم لقد رضى عنهم ، ويحدد المكان الذى كانوا فيه والهيئة التى كانوا عليها حين استحقوا هذا الرضا ﴿ إذ يبايعونك تحت الشجرة ﴾ يسمعون هذا من نبيهم الصادق المصدوق على لسان ربه العظيم الجليل .

يا لله ! كيف تلقوا ـ أولئك السعداء ـ تلك اللحظة القدسية وذلك التبليغ الإلهى التبليغ الذى يشير إلى كل أحد فى ذات نفسه ، ويقول له : أنت ، أنت بذاتك ، يبلغك الله لقد رضى عنك وأنت تبايع تحت الشجرة ، إذ علم ما فى نفسك فأنزل السكينة عليك .

إن الواحد منا ليقرأ ويسمع : ﴿ اللهُ وَلِيُّ الَّذين آمنُوا ﴾ [البقرة : ٢٥٧] ، فيسعد يقول فى نفسه : ألست أطمع أن أكون داخلاً فى هذا العموم ؟ ويقرأ ويسمع : ﴿ إنَ الله مع الصابرين ﴾ [البقرة : ١٥٣] فيطمئن ، ويقول فى نفسه : ألست أرجو أن أكون من هؤلاء الصابرين ؟ وأولئك الرجال يسمعون ويبلغون واحداً واحداً أن الله يقصده بعينه وبذاته ، لقد رضى عنه إذ علم ما فى نفسه ، ورضى عما فى نفسه .

ياالله ! إنه أمر مهول . . .) [1] .

---

(١) فى ظلال القرآن لسيد قطب ٦/ ٣٣٢٥ ، ٣٣٢٦ .

السمة الخامسة

الاعتراف الرسمى من الوثنية بدولة الإسلام

شهدنا فى السمة الماضية الصف القوى ، وها نحن نشهد الآن عظمة القيادة النبوية من خلال صلح الحديبية .

(. . . فلما جاء سهيل بن عمرو، قال رسول الله ﷺ: « سُهِّل أمرهم! » فقال سهيل: يا محمد ، إن هذا الذى كان ـ من حبس أصحابك وما كان من قتال من قاتلك ـ لم يكن من رأى ذوى رأينا بل كنا له كارهين حين بلغنا ولم نعلم به، وكان من سفهائنا ، فابعث إلينا بأصحابنا الذين أسرت أول مرة ، والذين أسرت آخر مرة . قال : إنى غير مرسلهم حتى ترسلوا أصحابى . قال : أنصفتنا . فبعث سهيل ومن معه إلى قريش فبعثوا بمن كان عندهم ، وهم عثمان وعشرة من المهاجرين وأرسل رسول الله ﷺ أصحابهم الذين أُسروا وكان ﷺ يبايع الناس تحت شجرة خضراء ، وقد نادى عمر رضي الله عنه : إن روح القدس قد نزل على الرسول وأمر بالبيعة ، فاخرجوا على اسم الله فبايعوا . فلما رأى سهيل بن عمرو ومن معه ورأت عيون قريش سرعة الناس إلى البيعة وتشميرهم إلى الحرب اشتد رعبهم وخوفهم وأسرعوا إلى القضية . ولما جاء عثمان رضي الله عنه بايع تحت الشجرة وقد كان قبل ذلك حين بايع الناس قال رسول الله ﷺ : « إن عثمان ذهب فى حاجة الله وحاجة رسوله ، فأنا أبايع له ، فضرب بيمينه شماله . . . » .

(ورجع سهيل وحويطب ومكرز فأخبروا قريشاً بما رأوا من سرعة المسلمين إلى التنعيم، فأشار أهل الرأى بالصلح على أن يرجع رسول الله ﷺ ويعود من قابل [1] فيقيم ثلاثاً فلما أجمعوا على ذلك أعادوا سهيلاً وصاحبيه ليقرر هذا . فلما رآه النبى ﷺ قال : « أراد القوم الصلح » ، وكلم رسول الله فأطالا الكلام وتراجعا ، وارتفعت الأصوات ، وكان ﷺ يومئذ جالساً متربعاً وعبَّادُ بن بشر وسلمة بن أسلم مقنعان بالحديد قائمان على رأسه ، فلما رفع سهيل صوته قالا: اخفض من صوتك عند رسول الله! وسهيل بارك على ركبتيه رافع صوته والمسلمون حول رسول الله ﷺ جلوس . . .) .

---

(١) قابل : العام القادم .

(. . . فلما حضرت الدواة والصحيفة ـ بعد طول الكلام والمراجعة ـ دعا رسول الله ﷺ أوس بن خولى يكتب، فقال سهيل: لا يكتب إلا ابن عمك على أو عثمان بن عفان، فأمر عليا فكتب فقال : « اكتب . . .) .

(باسمك اللهم ، هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو، اصطلحا على وضع الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض، على أنه لا إسلال (١) ولا إغلال (٢) ، وأن بيننا عيبة مكفوفة (٣) ، وأنه من أحب أن يدخل فى عهد محمد وعقده فعل ، وأنه من أحب أن يدخل فى عهد قريش وعقدها فعل ، وأنه من أتى محمداً منهم بغير إذن وليه رده محمد إليه ، وأنه من أتى قريشاً من أصحاب محمد لم يردوه ، وأن محمداً يرجع عنا عامه هذا بأصحابه ، ويدخل علينا من قابل فى أصحابه فيقيم بها ثلاثاً لا يدخل علينا بسلاح إلا سلاح المسافر ، السيوف فى القُرَب).

شهد أبو بكر بن أبى قحافة ، وعمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبى وقاص، وعثمان بن عفان ، وأبو عبيدة بن الجراح ، ومحمد بن مسلمة، وحويطب بن عبد العزى، ومكرز بن حفص، وكتب علىٌّ صدر الكتاب.

قال سهيل : يكون عندى ، وقال رسول الله ﷺ : « بل عندى » ثم كتب له نسخة وأخذ رسول الله ﷺ الكتاب الأول ، وأخذ سهيل نسخته ، ووثب من هناك من خزاعة فقالوا : نحن ندخل فى عهد محمد وعقده ونحن على من وراءنا من قومنا، ووثبت بنو بكر فقالوا : ندخل مع قريش فى عهدها وعقدها ، ونحن على من وراءنا من قومنا .

(ثم أذن رسول الله ﷺ بالرحيل ، فلما ارتحلوا مطروا ما شاؤوا وهم صائفون (٤) ، فنزل ونزلوا معه فشربوا من ماء السماء ، وقام ﷺ فخطبهم فجاء ثلاثة نفر فجلس اثنان ، وذهب واحد معرضًا ، فقال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم خبر الثلاثة » قالوا: بلى يا رسول الله ، قال : « أما واحد فاستحيى

---

(١) **الإسلال** : السرقة الخفية والرشوة ، ويقال : هو الغارة الظاهرة بـل السيوف .

(٢) **الإغلال** : الخيانة .

(٣) **العيبة المكفوفة** : كناية عن الصلح المعقود على الوفاء .

(٤) صائفون : أقاموا بالمكان صيفاً أو مروا به .

فاستحيى الله منه ، وأما الآخر فتاب فتاب الله عليه ، وأما الثالث فأعرض فأعرض الله عنه » .

وبينما عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسير مع رسول الله ﷺ فسأله فلم يجبه ، ثم سأله فلم يجبه ، ثم سأله فلم يجبه ، فقال : ثكلتك أمك يا عمر! بدرت رسول الله ثلاثاً ، كل ذلك لا يجيبك ! وحرك بعيره حتى تقدم الناس ، وخشى أن يكون نزل فيه قرآن فأخذه ما قرب وما بَعُد لمراجعته بالحديبية ، وكراهته القضية . وبينما هو يسير مهموماً متقدماً على الناس ، إذا منادى رسول الله ﷺ ينادى : يا عمر ابن الخطاب ، فوقع فى نفسه ما الله به أعلم ، ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ فسلَّم ، فردَّ عليه السلام وهو مسرور ثم قال : « أنزلت علىَّ سورة هى أحب إلىَّ مما طلعت عليه الشمس » .

فإذا هو يقرأ : ﴿ إنا فتحنا لك فتحا مبينا ...﴾ [الفتح : ١] . فأنزل الله فى ذلك سورة الفتح فركض الناس وهم يقولون : أنزل على رسول الله ! حتى توافوا عنده وهو يقرؤها . ويقال : لما نزل بها جبريل قال : نهنئك يا رسول الله ، فلما هنأه جبريل هنأه المسلمون . . .)[1].

لقد كان اتجاه رسول الله ﷺ إلى المصالحة منذ اللحظة التى بركت فيها ناقته فقال الناس : خلأت [2] القصواء ، خلأت القصواء ، فقال النبى ﷺ : « ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل » ، ثم قال : « والذى نفسى بيده لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها » .

والظاهر أن الوحى نزل على رسول الله ﷺ بالصلح مع العدو ؛ لأن رسول الله ﷺ لم يستشر ـ كما تشير النصوص ـ أحداً فى هذا الأمر ، واكتفى بإعلان هذا الاتجاه بعد بروك الناقة ، وفى ذلك إشارة دقيقة : حبسها حابس الفيل عن مكة ، وهذا يعنى أن احتمال الرجوع عن مكة وارد .

ومع وصول سهيل بن عمرو الذى تفاءل به ـ عليه الصلاة والسلام ـ قائلاً : سهل أمرهم ، وانتهاء المفاوضات الأولى بتبادل الأسرى بين الفريقين ، لكن وصول هذا الوفد والبيعة على أشدها كان المهماز الأخير فى اتجاه قريش إلى

(١) مقتطفات من إمتاع الأسماع للمقريزى ١/ ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٧، ٢٩٨، ٣٠١، ٣٠٢ .
(٢) خلأت : بركت .

الصلح، وكان هدفها الأول: ألا تتحطم سمعتها العسكرية ، وتمرغ كرامتها بالتراب نتيجة دخول الرسول ﷺ مكة عنوة، أما بقية البنود فقابلة للأخذ والرد .

وبين رغبتين جامحتين : رغبة لقريش ألا يدخل عليهم مكة هذا العام أبداً ، ورغبة المسلمين أن يدخلوا مكة ويطوفوا بالبيت الحرام ، ورجوعهم هو هزيمة عسكرية لهم ـ بين هاتين الرغبتين الجامحتين كان النبى ﷺ يوازن بآفاق أبعد وآماد أرحب ، وهل من هزيمة أعظم من قبول قريش المصالحة وبعثها وفداً بذلك. قريش قبل عام واحد تحاصر المسلمين مع من جيشت من العرب، وتأتيهم من فوقهم ومن أسفل منهم وهى اليوم تبعث وفداً للمصالحة مع المسلمين على مشارف مكة .

إنه نصر ساحق ولا شك ، والنصر الآخر هو أن تقف مكة على الحياد، وتقف الحرب فى جزيرة العرب ، وتفتح أبواب الجزيرة أمام المد الإسلامى .

إنه نصر ساحق ولا شك .

وأن يعود المسلمون فى العام القادم ويدخلوا مكة باعتراف رسمى وحماية رسمية دون أن يتعرض لهم أحد بسوء ـ إنه نصر ساحق ولا شك .

وأن تفتح قريش صفحة جديدة مع المسلمين وتعترف بكيانهم ودولتهم ، ويسود الأمن والود بين الفريقين ، ويفتح باب الحوار الجديد مع قادة مكة من موقع القوة ـ إنه نصر ساحق ولا شك .

هذا من جهة ، ومن جهة ثانية : ماذا يعنى إصرار المسلمين على دخول مكة عنوة ؟

إن أول معانيه: أن يكون الحقد والثأر هو الذى يطبع نفوس أهل مكة جميعاً، وهذا يسد ـ إلى فترة غير قليلة ـ باب الدخول فى الإسلام أو التفكير به .

وما كان رسول الله ﷺ يغيب عن قلبه أبداً رغبته فى إسلام أهل مكة ، وهذه خسارة فادحة .

وأن تقع معركة غير متكافئة يسقط فيها مئات الشهداء من المسلمين لدخول مكة ، وهم قرة عينه وخيرة جنده ـ فهذه خسارة فادحة ثانية .

وأمام هذه التوازنات جميعاً وبتسديد الوحى، كان رسول الله ﷺ ماضيا فى

خطته، لا يراوده فيها أدنى شك ، نلحظ ذلك من خلال إجابته الواضحة الصارمة لعمر بن الخطاب :

« أنا عبد الله ورسوله ، ولن أخالف أمره ، ولن يضيعنى » .

والملاحظ أن رسول الله ﷺ لم يفصح عما فى نفسه إلا مضطراً،وذلك أمام إلحاح المسلمين على دخول مكة . فأعاد لهم شريط الأحداث ، لينتقلوا منه ومعه إلى النصر الجديد القادم:

« أنسيتم يوم أحد إذ تصعدون ولا تلوون على أحد وأنا أدعوكم فى أخراكم؟ أنسيتم يوم الأحزاب ؛ إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، أنسيتم يوم كذا ، أنسيتم يوم كذا ؟ » والمسلمون يقولون: صدق الله ورسوله ، يا نبى الله ، ما فكرنا فيما فكرت فيه ، ولأنت أعلم بالله وبأمره منا .

وعودة إلى نصوص المعاهدة ، نلحظ من خلالها أول اعتراف رسمى من قريش بدولة الإسلام.إنه اعتراف بالدولة وليس اعترافاً بالرسالة،ومن أجل هذا ناقشوا كثيراً بـ (الرحمن الرحيم) وبـ (رسول الله) ، ولكنها الخطوة الأولى على الطريق وإيقاف الحرب عشر سنين تهيئ لرسول الله ﷺ وللمسلمين مجالا رحباً للانطلاق بالإسلام إلى العرب كل العرب دون مقاومة أو مواجهة من أحد ، فقد كانت العرب تنتظر مصير الحرب بين الفريقين ، واقفة على الحياد ولا يجرؤ أى تجمع عربى على الانضمام لأحد الفريقين خوفاً من غلبة الفريق الآخر ، وإن كانت بعض القبائل العربية ظاهرت قريشاً على رسول الله ﷺ لكن تلك المظاهرة كانت منطلقة من الثقة المطلقة بقوة قريش، أما بعد الأحزاب ، وبعد فشل الهجوم الضخم انتهت التحالفات العربية فى المنطقة ضد الإسلام، وأيس الناس من إمكانية القضاء على الإسلام ورسول الإسلام .

٣ ـ وأهم بند من بنود المعاهدة انتهاء عنصر الخوف فى الأرض العربية ، فمن أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدها دخل فيه . لقد فتحت آفاق الدعوة على مصراعيها دون وجل أو خوف من أحد ، وهذا ما كان يريده رسول الله ﷺ منذ بداية الحملة .

(« إنا لم نأت إلى قتال أحد ، إنما جئنا لنطوف بهذا البيت ، فمن صدنا عنه قاتلناه، وقريش قوم قد أضرت بهم الحرب ونهكتهم ، فإن شاؤوا ماددتهم مدة يأمنون فيها ، ويخلون فيما بيننا وبين الناس ـ والناس أكثر منهم ـ فإن ظهر أمرى على الناس كانوا بين أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس ، أو يقاتلوا وقد جموا ، والله لأجهدن على أمرى هذا إلى أن تنفرد سالفتى ، أو ينفذ الله أمره » [1] .

٤ ـ والبندان الأخيران اللذان أثارا حفيظة المسلمين يجد الناظر لهما لأول وهلة أنهما مجحفان بحق المسلمين ، لكن النظرة الأبعد تؤكد أنهما لمصلحة المسلمين .

وأول هذين البندين :

(وأنه من أتى محمداً منهم بغير إذن وليه رده محمد إليه) .

ولا شك أن هذا البند فيه ـ فى ظاهر الأمر ـ تخلٍ عن المستضعفين المؤمنين فى مكة غير أن ما ذكره القرآن حولهم يؤكد أن تأجيل المعركة مع قريش وتأخيرها هو لصالح هؤلاء المستضعفين فى مكة .

﴿ **ولولا رجالٌ مؤمنون ونساءٌ مؤمناتٌ لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرةٌ بغير علمٍ ليدخل الله في رحمته من يشاءُ لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما . . .** ﴾

[الفتح : ٢٥]

لأن الحرب لو اندلعت لتعرض المستضعفون فى مكة للإبادة ، بينما قامت هذه المعاهدة بتحقيق نصر معنوى لهم أهم ما فيه العهد مع دولتهم بالموادعة .

ومع أن الإجحاف الجزئى من خلال هذا النص قد أثر قليلاً على أعصاب المسلمين لكنه ما لبث أن تعدل بعد أقل من شهرين ، وذلك بعد خروج أبى بصير ومن معه من المسلمين إلى ذى المروة بالساحل .

وثانى هذين البندين :

(وأنه من أتى قريشاً من أصحاب محمد لم يرده) .

ورسول الله ﷺ مطمئن إلى المؤمنين عنده ، وكما قال لصحبه : (ومن جاءهم منا فلا رده الله) .

---

(١) إمتاع الأسماع ١/ ٢٨٦ .

إذ ماذا يجدى وجود عملاء لقريش فى الصف المسلم أو منافقين يكيدون للإسلام ؟

٥ ـ ورجوع رسول الله ﷺ عن مكة فى ظاهره فشل لحملة الحديبية ، وفى حقيقته اعتراف رسمى بحق المسلمين بدخول مكة فى العام القادم .

وكم الفرق بين نصر جزئى لن يصل له المسلمون دون مئات الشهداء والقتلى من الفريقين ، وبين دخول رسمى لمكة من المسلمين بإقرار المشركين .

وليس بعد قول الله تعالى قول؛ فلقد سمى الحديبية ـ جل شأنه ـ فتحاً مبيناً، فقال عز من قائل : ﴿ **إنا فتحنا لك فتحا مبينا . ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما . وينصرك الله نصرا عزيزا** ﴾ [الفتح : ١ ـ ٣] .

واقتضت هذه الآيات تهنئة أهل السماء على لسان جبريل ـ عليه السلام ـ وتهنئة أهل الأرض وعلى رأسهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وقد استدعاه رسول الله ﷺ من بين المسلمين جميعاً ليتلو عليه آيات الله ، ويسكب الطمأنينة والسكينة والأمن فى قلبه :

﴿ **هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليما حكيما** ﴾ [الفتح : ٤] .

يقول أبو بكر رضي الله عنه : (ما كان فتح أعظم فى الإسلام من فتح الحديبية، ولكن الناس يومئذ قصر رأيهم عما كان بين محمد وربه ، والعباد يعجلون ، والله لا يعجل كعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد.

لقد نظرت إلى سهيل بن عمرو فى حجة الوداع قائماً عند المنحر يقرب إلى رسول الله ﷺ بُدنه ، ورسول الله ينحرها بيده ! ودعا الحلاق فحلق رأسه فأنظر إلى سهيل يلقط من شعره ﷺ وأراه يضعه على عينيه ! وأذكر إباءه أن يُقرّ يوم الحديبية بأن يُكتب بسم الله الرحمن الرحيم ! وإباءه أن يكتب أن محمداً رسول الله ! فحمدت الله الذى هداه للإسلام ، فصلوات الله وبركاته على نبى الرحمة الذى هدانا به ، وأنقذنا به من الهلكة) [1] .

---

(١) إمتاع الأسماع ١/ ٢٩٦ .

والحركة الإسلامية اليوم بحاجة إلى أن تراجع رصيدها على ضوء هذه السمة، وألا تشغلها النزوات والانفعالات الجزئية عن الخطة العامة التى تجعل الهدف العام يضحى به من أجل المنفعة القريبة العاجلة.

إن الانتقال بالدعوة إلى المجال السياسى بحيث تثبت وجودها فيه بجانب الجهد العسكرى الذى تبذله هو الذى يمكن لهذه الدعوة فى الأرض ، وإن الدعوة حين تسد فى وجهها السبل ، وتوضع فى عجلاتها العصى ، وينزل الاضطهاد بها من كل صوب ، لا تجد أمامها محيصًا من اللجوء إلى القوة حتى تضرب جذورها فى الأرض ، لكن هذه القوة هى الوسيلة الناجعة للعودة إلى الحوار الفكرى والمجال السياسى مع الخصوم ، وتستطيع أن تحقق بترافق ذينك الجانبين معظم أهدافها ، أما التخلى عن واحد منهما فهو خلل كبير تصاب به الدعوة .

لقد رأينا الحركات الإسلامية حين تعتمد على الحرية الديمقراطية دون سند لها من قوة ، ولو وصلت إلى بعض المواقع ، لكنها سرعان ما تخسرها ؛ لأن الباطل لا يرضى لها الغلبة وهو قادر على إزاحتها ، وتجارب الحركة الإسلامية من خلال منح وزارة أو إعطاء قطاع من القطاعات حرية محدودة سرعان ما ينهار ذلك العطاء، وتجتث تلك الثمرات ، كما أن اعتماد القوة وحدها ونسيان هدف الدعوة الرئيسى واعتماد التحرك السياسى سرعان ما يفصم بينها وبين الناس، ويوسع الهوة التى لا تردم بعد ذلك .

أما أن يكون الجانب الجهادى بجوار التحرك السياسى ، وكلاهما يخدمان دعوة الإسلام هو الطريق الطبيعى لتحقيق نصر الله .

يقول الزهرى ـ رحمه الله ـ عن فتح الحديبية :

(فما فتح فى الإسلام فتح كان أعظم منه ، إنما كان القتال حيث التقى الناس فلما كانت الهدنة ، ووضعت الحرب ، وآمن الناس بعضهم بعضًا والتقوا فتفاوضوا فى الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئا إلا دخل فيه، ولقد دخل فى تينك السنتين مثل من كان فى الإسلام قبل ذلك أو أكثر) [1] .

قال ابن هشام: والدليل على قول الزهرى أن رسول الله ﷺ خرج إلى

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٢٢ .

الحديبية فى ألف وأربعمائة فى قول جابر بن عبد الله ، ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين بعشرة آلاف .

ومن الآلاف العشرة يوم الأحزاب ، إلى الآلاف العشرة يوم فتح مكة يظهر حقيقة هذا الفتح المبين .

ولا شك أن رسول الله ﷺ استثمر هذا الفتح أعظم استثمار .

والمؤمنون المجاهدون بحاجة إلى أن يستثمروا المواقع التى يربحونها أعظم استثمار .

وها نحن نشهد فى السمات التالية آثار هذا الاعتراف ونتائج هذا الفتح بحيث قلب الموازين كلها لصالح الإسلام والمسلمين .

﴿ لَقَدْ صدقَ اللَّهُ رسُولَهُ الرُّؤيا بالْحقِّ لتدْخُلُنَّ الْمسْجد الْحرامَ إن شاء اللَّهُ آمنين مُحلّقين رُءُوسكُمْ ومُقصّرين لا تخافُونَ فعلم ما لَمْ تعْلَمُوا فجعل من دُون ذلك فتْحاً قريباً ﴾

[الفتح : ٢٧]

السمة السادسة

حرب المستضعفين

لقد بقى القلق يساور المسلمين على المستضعفين فى مكة ، ومنظر أبى جندل ابن سهيل ﷺ فتت أكبادهم ، غير أن قدوم أبى بصير ﷺ قلب الموازين كلها لصالحهم وصالح دولة الإسلام الجديدة ، ولنشهد مفهوم العهود الدولية ، ومفهوم حرب العصابات من خلال هذه السمة :

(فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أتاه أبو بصير عتبة بن أسيد ، وكان ممن حبس بمكة، فلما قدم على رسول الله كتب فيه أزهر بن عبد عوف ، والأخنس ابن شريق [إلى رسول الله كتابا مع خنيس بن جابر من بنى عامر وخرج معه مولى له يقال له : كوثر ، وفى كتابهما ذكر الصلح ، وأن يرد عليهم أبا بصير ، فقدما بعد أبى بصير بثلاثة أيام ، فقرأ أبى بن كعب الكتاب على رسول الله ﷺ فإذا فيه : قد عرفت ما شارطناك عليه وأشهدنا بيننا وبينك من ردٍّ من قدم عليك

من أصحابنا ، فابعث إلينا بصاحبنا ، فأمر رسول الله ﷺ أبا بصير أن يرجع معهم ودفعه إليهما ، فقال : يا رسول الله ، أتردنى إلى المشركين يفتنونى فى دينى! فقال : « يا أبا بصير ، إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ، ولا يصلح لنا فى ديننا الغدر ، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المسلمين فرجاً ومخرجاً » فقال : يا رسول الله ، أتردنى إلى المشركين ! قال : « انطلق يا أبا بصير ، فإن الله سيجعل لك مخرجا »] (١) ، فانطلق معهما حتى إذا كان بذى الحليفة جلس إلى جدار وجلس معه صاحباه، فقال أبو بصير: أصارم سيفك هذا يا أخا بنى عامر؟ فقال: نعم قال: أرينه أنظر إليه ؟ قال : انظر إن شئت ، قال: فاستله أبو بصير ، ثم علا به حتى قتله ، وخرج المولى سريعًا حتى أتى رسول الله ﷺ وهو جالس فى المسجد ، فلما رآه رسول الله ﷺ طالعا ، قال : « إن هذا الرجل قد رأى فزعًا » ، فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ قال : « ويحك مالك؟ » قال : قتل صاحبكم صاحبى فوالله ما برح حتى طلع أبو بصير متوشحًا بالسيف حتى وقف على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ، وفت ذمتك ، وأدى الله عنك ، أسلمتنى بيد القوم وقد امتنعت بدينى أن أفتن فيه أو يعبث بى . قال رسول الله ﷺ: « ويل أمه محَشُّ حرب (٢) لو كان معه رجال ») (٣) (وقدم سلب العامرى ورحله وسيفه ليخمسه رسول الله ﷺ ، فقال : « إنى إذا خمسته رأوا أنى لم أوف لهم بالذى عاهدتهم عليه، ولكن شأنك بسلب صاحبك » ، ثم قال لكوثر : « ترجع به إلى أصحابك ؟ » فقال : يا محمد ، مالى به قوة ولا يدان ، فقال ﷺ لأبى بصير : « اذهب حيث شئت ») (٤) .

(فخرج حتى أتى العيص فنزل منه ناحية على ساحل البحر على طريق عير قريش إلى الشام ، وعندما خرج لم يكن معه إلا كف تمر فأكله ثلاثة أيام ، وأصاب حيتانًا قد ألقاها البحر بالساحل فأكلها ، وبلغ المسلمين الذين حبسوا بمكة خبره فتسللوا إليه ، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه هو الذى كتب إليهم بقول رسول الله ﷺ لأبى بصير: « ويل أمه محشَّ حرب لو كان معه رجال » وأخبرهم

---

(١) ما بين المعقوفتين من إمتاع الأسماع للمقريزى ١/ ٣٠٣ .

(٢) محش حرب . مسعر حرب وموقدها . (٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٢٣ .

(٤) إمتاع الأسماع ١/ ٣٠٤ .

أنه بالساحل فاجتمع عند أبى بصير قريب من سبعين مسلمًا فكانوا بالعيص ، وضيقوا على قريش، فلا يظفرون بأحد منهم إلا قتلوه، ولا تمر عير إلا اقتطعوها، ومر بهم ركب يريدون الشام معهم ثمانون بعيرًا فأخذوا ذلك وأصاب كل رجل منهم قيمة ثلاثين دينارًا ، وكانوا قد أمروا عليهم أبا بصير . فكان يصلى بهم ، ويقرئهم ويُجمِّعُهم ، وهم له سامعون مطيعون . فغاظ قريشًا صنيع أبى بصير وشق عليهم وكتبوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه بأرحامهم إلا أدخل أبا بصير إليه ومن معه ، فلا حاجة لنا بهم . فكتب ﷺ إلى أبى بصير أن يقدم بأصحابه معه فجاءه الكتاب وهو يموت، فجعل يقرأه ومات وهو فى يده فدفنوه ، وأقبل أصحابه إلى المدينة وهم سبعون. . .) (١).

(وكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط قد أسلمت بمكة، فكانت تخرج إلى بادية أهلها فتقيم أيامًا بناحية التنعيم ثم ترجع حتى أجمعت على المسير مهاجرة ، فخرجت كأنها تريد البادية على عادتها فوجدت رجلا من خزاعة فأعلمته بإسلامها، فأركبها بعيره حتى أقدمها المدينة بعد ثمان ليال . فدخلت على أم سلمة رضي الله عنها وأعلمتها أنها جاءت مهاجرة وتخوفت أن يردها رسول الله ﷺ ، فلما دخل على أم سلمة أعلمته فرحب بأم كلثوم وسهَّل فذكرت له هجرتها ، وأنها تخاف أن يردها فأنزل الله فيها آية الممتحنة . . . فكان رسول الله ﷺ يرد من جاءه من الرجال ، ولا يرد من جاءه من النساء ، وقدم أخواها من غد قدومها الوليد وعمارة ابنا عقبة بن أبى معيط فقالا: يا محمد ، ف لنا بشرطنا وما عاهدتنا عليه، فقال : « قد نقض ذلك » . فانصرفا إلى مكة فأخبروا قريشًا فلم يبعثوا أحدًا ورضوا بأن تحبس النساء) (٢) .

١ ـ إننا نشهد مبادئ حرب العصابات من خلال حادثة أبى بصير رضي الله عنه .

فلابد لمن يفكر بهذه الحرب أن يكون ذا إرادة قوية وعزيمة فولاذية ، وتفكير أبى بصير بالهروب من سجن قريش ، وتنفيذ ذلك والهجرة إلى المدينة يعنى أنه يملك التصميم على المقاومة ، إنها النفسية الحية التى ترفض الذل وتأبى الهوان ، وهذه هى نقطة الانطلاق الأولى فى أية مقاومة مسلحة للطغاة فى الأرض .

---

(١) إمتاع الأسماع ١/ ٣٠٤ .

(٢) المصدر السابق ١/ ٣٠٥ ، ٣٠٦ .

٢ ـ وكان من الممكن أن ينتهى أبو بصير ﷺ لو اكتفى بنزوحه إلى المدينة وعودته إلى مكة مع صاحبيه اللذين جاءا لاستلامه غير أن هذه الإرادة برزت فى الإلحاح على قيادته ألا يعود إلى الذل ، وكان جواب النبى ﷺ :

« إنه لا يحل فى ديننا الغدر ، فاصبر واحتسب فإن الله جاعل لك فرجا ومخرجًا ».

وها هو يتلقى مبادئ ثلاثة من قيادة الدعوة :

المبدأ الأول : الوفاء بالعهود والمواثيق ولو مع المشركين المجرمين المعتدين .

المبدأ الثانى : إن مصلحة الجماعة فوق مصلحة الفرد ؛ ولهذا الأمر كان هذا الشرط المجحف .

المبدأ الثالث : الثقة بالله وبموعوده أنه لابد من فرج ومخرج بعون الله .

ولكنه لم يكن يدرى أنه هو صاحب الفرج والمخرج ، إذ أعده الله تعالى لذلك .

٣ ـ ولعل إيحاءات إخوته فى المدينة كانت ألا يدع سبيلاً للمقاومة إلا ويسلكها، ومن أجل ذلك بيت فى نفسه أمرًا وهو القضاء على هذين الصاحبين اللذين جاءا لإعادته إلى ربقة الذل والعبودية، وإعادته إلى قريش يفتنونه فى دينه، ونفذ ما عزم عليه فى حيلة بارعة توصل بها إلى سيف العامرى وقتله به ، ولحق بمولاه إلى المدينة .

٤ ـ وكانت الخطوة الثالثة من التصميم عندما جاء إلى رسول الله ﷺ قائلا له: وفت ذمتك يا رسول الله ، وأدى الله عنك ، وقد أسلمتنى بيد العدو، وقد امتنعت بدينى من أن أفتن ، ويعبث بى أو أكذب بالحق .

وكانت هذه القوة الفتية من أبى بصير منطلقًا للتوجيه إلى الحرب الواسعة من خلال تخطيط محكم ومدد بالرجال بدلاً أن تكون مبادرة فردية أو نزوة طارئة .

وحتى تبرأ الذمة تمامًا قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ لكوثر المولى الذى نجا : « ترجع به إلى أصحابك » فقال : يا محمد ، مالى به قوة ولا يدان فقال ﷺ لأبى بصير: « اذهب حيث شئت » .

لابد من اختيار المكان ، واختيار الرجال ، والتخطيط لحرب طويلة الأمد ، لكن المدينة ليست هى الأرض المناسبة لهذه الحرب ، فالمدينة ملتزمة بمواثيق دولية مع مكة ، ولابد من اختيار أرض مناسبة لهذه الحرب والرجال ليسوا من المدينة ، الرجال هم من رعايا مكة نفسها ، والمكان لابد أن يقض مضجع مكة ، فكان ذا المروة بالساحل .

ومن تمام الوفاء بالعهود والمواثيق الدولية من رسول الله ﷺ أنه رفض تخميس سلب العامرى ؛ لأن هذا يعنى الاعتراف بشرعية انتمائه للمدينة ، وهذا الانتماء غير شرعى، فلابد من البحث عن أرض أخرى ، ورجال آخرين ، ومضى أبو بصير بهذا الخط العام الذى رسمه له رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام .

٥ ـ ومضى رضي الله عنه بكف تمر أكله خلال ثلاثة أيام ، والثائر الحقيقى لابد أن يوطن نفسه على الجوع والعرى والفاقة ، وأن يتجلد على القسوة والشدة والمحنة، ثم لجأ بعد انتهاء كف التمر إلى حيتان البحر ، ورجل الثورة بحاجة إلى أن ينمى الإمكانات الذاتية للثورة لا أن يكون اعتماده على المعونات الخارجية ؛ لأن هذه المعونات من المحتمل أن تنضب فى كل لحظة ، أو تنقطع وبالتالى يهلك بذلك .

٦ ـ لقد كان أبو بصير بحق قائد ثورة ، ومبادئ الثورة تبيح المواجهة المباشرة وغير المباشرة ، وما احتال به على العامرى لقتله وأخذ سيفه خط إسلامى أصيل حين يجمع العدو على القضاء على الحركة الإسلامية ، وذلك بأن تلجأ إلى التعمية والتغرير بالخصم لقتله وأخذ سلاحه .

والثورة الإسلامية حين تنطلق تستطيع أن تتبع الأساليب المناسبة الناجعة مع أزلام الطغاة وزبانيتهم ؛ لأنهم يعلمون الجريمة التى يساهمون بها .

٧ ـ والثورة الإسلامية التى شهدنا أبا بصير على رأسها ، تعذر الدول المرتبطة بمواثيق ومعاهدات ، ولا تحرجها حين تتحرك على أرضها وتتقيد تقيداً تاما بمبادئ هذه الدولة وقوانينها .

لقد رأينا أبا بصير وارتباطه بالإسلام ارتباط عقيدة ، وارتباطه برسول الله ﷺ ارتباط عقيدة وإيمان ، ومع ذلك لم يحرج رسول الله ﷺ بالتحرك على أرضه أو طلب المدد منه وقد تعلم هذا الدرس حين رفض رسول الله ﷺ حتى أن يخمس له سلبه .

وما أحوج الثورة الإسلامية إلى أن تدرك هذه المعانى وخاصة عندما لا يكون ارتباطها ارتباط عقيدة مع الدولة التى تتحرك فى أرضها .

كما أن على شباب الحركة الإسلامية أن يدركوا الظروف الصعبة التى تمر بها قيادتهم ، وتضطر إلى التخلى عن معونتهم ومددهم لمصلحة الدولة ذاتها ، فلقد وقع ـ عليه الصلاة والسلام ـ ميثاقا من صلب نصوصه عدم حماية الثوار المسلمين ومددهم وإعادتهم وتسليمهم للدولة العدو لو جاؤوا إليه .

٨ ـ وكان الرصيد الحقيقى للثورة هم رجال مكة المسلمون المستضعفون الذين انضموا إلى أبى بصير واحدًا تلو الآخر حتى بلغ عددهم سبعين رجلاً من المجاهدين. والدرس الذى تستفيده الثورة الإسلامية من هذا الحدث هو أن الرصيد الحقيقى للثورة هو من أبناء البلد الثائر، هذا هو الرصيد الحقيقى، ومن أجل ذلك لم ينضم لجيش الثورة رجل واحد من المسلمين فى المدينة ؛ لأنه جندى نظامى فى دولة رسمية ، أما المستضعفون المسلمون فى مكة فقد انضموا إلى أبى بصير عن بكرة أبيهم ، وكانوا هم أصحاب القضية وأبناءها الأصليين ، والثورة التى تقوم وتعتمد فى رصيدها على الرديف من الدول الأخرى لن يكتب لها النجاح .

٩ ـ واختيار المكان المناسب للثورة ذو أهمية قصوى فى نجاحها ، فعصب قريش هو التجارة ، وتجارتها إلى الشام هى المحور الأول ، ولم يرتفع الاختناق عنها إلا بعد صلح الحديبية ، فإذا بها تفاجأ من جديد بعودة الإرهاب إلى الطريق، والقافلة إثر القافلة يباد رجالها وتمضى أموالها ، فالموقع الاستراتيجى المناسب الذى يمكن الثورة من قطع شريان الحياة عن أعدائها هو الذى يجعل هذا العدو يلين ويرضخ ، أما إذا لم يشعر العدو أنه مهدد بحياته ووجوده وأمنه فسوف يسحق هذه الثورة ويبيدها عن آخر رجل فيها .

وكل ثورة لا تجد منطلقًا تنطلق منه إلى حدود العدو ستنتهى فى النهاية إلى لاجئين سياسيين يعيشون على موائد الآخرين،وكل ما من شأنه أن يقصم ظهر العدو ويفل مقاومته هو من حق الثائرين سيان كان أهدافًا مدنية أو عسكرية ، وهدف الثورة هو رفع الظلم والاضطهاد عن المستضعفين ، ولن يتراجع الطغاة عن طغيانهم ما لم يصابوا بأرواحهم وحياتهم وأموالهم وأمنهم، عندئذ يسقط فى يدهم ويشعرون أنه قد أحيط بهم فيستسلمون.

١٠ ـ وليس هدف الثورة الإرهاب والفتك للإرهاب والفتك ، إن هدفها هو رفع الظلم والاضطهاد عن المسجونين الملاحقين بعقائدهم وفكرهم ومقدساتهم ، وحين يتحقق الهدف تنتهى الثورة . ومن أجل ذلك عندما استفحل أمر الثوار المسلمين فى الساحل ، وعرفت مكة أنها على وشك الاختناق ، وأن جبهة جديدة فُتحت عليها تقض مضجعها وأمنها راحت إلى رسول الله ﷺ تتفاوض معه وترجوه وتسترحمه أن ينهى هذه الثورة ويضم هؤلاء المسلمين إلى جيشه النظامى ، فيسرى عليهم ما يسرى على جيشه بالتزام الهدنة والصلح.

(وكتبوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه بأرحامهم إلا أدخل إليه أبا بصير ومن معه ، وتحقق هدف الثورة وانضم الثوار إلى دولة الإسلام ، وهم سبعون من المجاهدين الذين تزيلوا من صفوف العدو وتميزوا) .

ولابد أن نلاحظ حدود الثورة وطاقتها وإمكاناتها ، فلم يكن هدف ثورة أبى بصير هو إسقاط نظام مكة والسيطرة عليه بمقدار ما كان هدفه هو ضم قوات المستضعفين إلى قيادتهم فى المدينة ، وحققت الثورة أهدافها ، وقائدها على فراش الموت ، وكتاب رسول الله ﷺ بيده أن يقدم بأصحابه معه. فمات قرير العين بتحقيق موعود الله تعالى له بالنصر والشهادة.

لكننا نرى تصرفًا آخر قامت به أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط أعدى أعداء الله ، لا يقل بطولة عن أبى بصير إذا روعيت النسبة بين طاقات الرجال والنساء.

فأم كلثوم رضي الله عنها وقد خالطت بشاشة الإسلام قلبها ، وهى فى بؤرة العداوة للمسلمين ، خططت وغافلت أهلها حتى استطاعت أن تجد رجلاً من خزاعة فسافرت معه مهاجرة إلى المدينة .

ويبدو فقهها رضي الله عنها فى جانبين :

الجانب الأول : فى التخطيط للهجرة حتى تخلص من جحيم أهلها ونار عداوتهم للإسلام.

الجانب الثانى : بحسن اختيارها لمن تنتقل معه ، فهى تعلم من بنود المعاهدة أن خزاعة هم حلفاء محمد ﷺ بعد الحديبية ، ومن أجل ذلك انتظرت حتى لقيت الرجل الحليف لمحمد وانطلقت معه .

ويبدو فقهها ﷺ كذلك حين نزلت عند أم سلمة ﷺ ، فهى تعلم من بنود المعاهدة أن على رسول الله ﷺ أن يعيد من يأتيه مسلمًا من المدينة فاختبأت عندها، وكانت الأقدار العجيبة ، أن تنزل عند المهاجرة الأولى أم سلمة ﷺ ، والتى قامت بالمغامرة نفسها قبل ست سنين أو سبع وفى الطريق نفسه ، وحيدة فارة بدينها من مكة إلى زوجها فى المدينة، والتقت المهاجرتان فى بيت واحد،وفى بيت رسول الله ﷺ ، وأُعلم ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالأمر فرحب بأم كلثوم ، وجاء أمر الله تعالى ألا تعود إلى مكة .

ونلاحظ من هذه المغامرة الجريئة أمورا تحتاجها الحركة الإسلامية حين تكون فى مرحلة الثورة ، فالأصل ألا تسافر المرأة إلا مع محرم ، وها نحن نجد أم كلثوم ﷺ تسافر مسيرة ثمان ليال بدون محرم ؛ لأن محارمها أعداء الله ؛ ولأن وجودها فى محضنها الطبيعى بعيدًا عن محارمها وتحت ظل دولة الإسلام هو الأصل .

وليس الأخ المسلم فقط هو الذى يؤمن على عرض المرأة المسلمة ، بل كذلك الحليف المشرك ولو رافقها فى سفر طويل ؛ لأن هذه الضرورة تقدر بقدرها ، والحركة الإسلامية وقيادتها لها الولاية على كل امرأة مسلمة تقع فى براثن العدو، ولو كان هذا العدو أباها أو أخاها أو زوجها ، لقد قرر الإسلام هذا المبدأ فى هذا الظرف ، واعتبر رابطة الإسلام فوق رابطة الزوجية ، وذلك فى قوله تعالى :

﴿ **يا أيُّها الذين آمنُوا إذا جاءكُمُ المُؤْمناتُ مُهاجرات فامْتحنُوهُنَّ اللهُ أعلمُ بإيمانهنَّ فإنْ علمْتُمُوهُنَّ مُؤْمناتٍ فلا ترْجعُوهُنَّ إلى الكُفَّار لا هُنَّ حلٌّ لَهُم ولا هُمْ يحلُّون لهُنَّ وآتوهُم ما أنفقُوا ولا جُناح عليْكُمْ أن تَنكحُوهُنَّ إذا آتيْتُمُوهُنَّ أُجُورهُنَّ ولا تُمْسكُوا بعصم الكوافر واسألُوا ما أنفقْتُمْ وليسْألُوا ما أنفقُوا ذلكُمْ حُكْمُ اللهِ يحكُمُ بيْنكُمْ واللهُ عليمٌ حكيمٌ . وإنْ فاتكُمْ شيْءٌ منْ أزْواجكُمْ إلى الكُفَّار فعاقبْتُمْ فآتُوا الَّذين ذهبتْ أزْواجُهُم مثْل ما أنفقُوا واتَّقُوا اللهَ الَّذي أنتُم به مُؤْمنُون** ﴾ [الممتحنة : ١٠ ، ١١] .

وكان رسول الله ﷺ على استعداد أن ينقض الاتفاق كله بأمر الله ـ عز وجل ـ لحماية المرأة المسلمة المهاجرة .

وما أروع هذا المعنى أن تفقهه المرأة المسلمة .

فقيادة الإسلام على استعداد أن تشن حربًا كاملة ، وتخسر أضخم الامتيازات لحماية امرأة مسلمة مهاجرة مجاهدة .

ومما كتبه عروة بن الزبير ﷺ للزهرى حول هذه الآية ، ما يزيد المعنى وضوحًا وجلاء قال: إن رسول الله ﷺ كان صالح قريشا يوم الحديبية على أن يرد إليهم من جاء بغير إذن وليه ، فلما هاجر النساء إلى رسول الله ﷺ وإلى الإسلام أبى الله أن يُرددن إلى المشركين إذا هن امتحن بمحنة الإسلام، فعرفوا إنما جئن رغبة فى الإسلام وأمر برد صدُقاتهن إليهم إن احتبسن عنهم ، إن هم ردوا على المسلمين صداق من حبسوا عنهم من نسائهم، ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم. فأمسك رسول الله النساء ورد الرجال وسأل الذى أمره الله به أن يسأل من صدقات نساء من حبسوا منهن ، وأن يردوا عليهم مثل الذى يردونه عليهم إن هم فعلوا ، ولولا الذى حكم الله به من هذا الحكم لرد رسول الله النساء كما رد الرجال ، ولولا الهدنة والعهد الذى كان بينه وبين قريش يوم الحديبية لأمسك النساء ولم يردد لهن صداقًا ، وكذلك كان يصنع بمن جاءه من المسلمات قبل العهد .

لقد انتهت رابطة الزوجية بين المسلم والكافرة وبين المسلمة والكافر ، وأصبحت العلاقة علاقة عقيدة فحسب ، لكن هذا لا يلغى الحقوق المالية بين الطرفين ، ويمكن استيفاؤها بين الدولتين .

وهكذا نلحظ طبيعة الظروف التى تضطر الحركة الإسلامية أحيانًا أن تتخلى عن بعض البنود ، وطبيعة الظروف التى تضطر المرأة المسلمة أحيانًا أن تتخلى عن بعض الأحكام الجزئية تلافيا لخطر أكبر مثل قضية السفر مع محرم ، ومثل قضية الهرب من الزوج الكافر والأولياء الكافرين إلى أرض الإسلام والمسلمين .

السمة السابعة

الإعلان العالمى للإسلام : مراسلة الملوك والأمراء

فى أواخر السنة السادسة حين رجع رسول الله ﷺ من الحديبية كتب إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام .

ولما أراد أن يكتب إلى هؤلاء الملوك قيل له : إنهم لا يقبلون إلا وعليه خاتم، فاتخذ النبى ﷺ خاتما من فضة، نقشه: محمد رسول الله، وكان هذا النقش ثلاثة أسطر : محمد سطر ، ورسول سطر ، والله سطر ، هكذا : محمد رسول الله.

واختار من أصحابه رسلاً لهم معرفة وخبرة ، وأرسلهم إلى الملوك ، وقد جزم العلامة المنصور فورى أن النبى ﷺ أرسل هؤلاء الرسل غرة المحرم سنة سبع من الهجرة قبل الخروج إلى خيبر بأيام ، وفيما يلى نصوص هذه الكتب وبعض ما تمخضت عنه .

١ ـ الكتاب إلى النجاشى ملك الحبشة :

وهذا النجاشى اسمه أصحمة بن الأبجر ، كتب إليه النبى ﷺ مع عمرو بن أمية الضمرى فى آخر سنة ست أو فى المحرم سنة سبع من الهجرة ، وقد ذكر الطبرى نص الكتاب ، ولكن النظر الدقيق فى ذلك النص ، يفيد أنه ليس بنص الكتاب الذى كتبه ﷺ بعد الحديبية ، بل لعله نص كتاب بعثه مع جعفر حين خرج هو وأصحابه مهاجرين إلى الحبشة فى العهد المكى ، فقد ورد فى آخر الكتاب ذكر هؤلاء المهاجرين بهذا اللفظ : « وقد بعثت إليكم ابن عمى جعفراً ومعه نفر من المسلمين ، فإذا جاءك فأقرهم ودع التجبر » .

وروى البيهقى عن ابن إسحاق نص كتاب كتبه النبى ﷺ إلى النجاشى وهو هذا:« هذا كتاب من محمد النبى إلى النجاشى الأصحم عظيم الحبشة ، سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، لم يتخذ صاحبةً ولا ولدا ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأدعوك بدعاية الإسلام ، فإنى أنا رسوله أسلم تسلمْ ، **﴿ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلىٰ كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضًا أَرْبابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾** [آل عمران : ٦٤] ، فإن أبيت فإن عليك إثم النصارى من قومك » .

ولما بلغ عمرو بن أمية الضمرى كتاب النبى ﷺ إلى النجاشى أخذه النجاشى، ووضعه على عينه ، ونزل عن سريره على الأرض ، وأسلم على يد جعفر بن أبى طالب ، وكتب إلى النبى ﷺ بذلك ، وهاك نصه :

(بسم الله الرحمن الرحيم . إلى محمد رسول الله من النجاشى أصحمة ، سلام عليك يا نبى الله ورحمة الله وبركاته الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد :

فقد بلغنى كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى ، فورب السماء والأرض إن عيسى لا يزيد على ما ذكرت تفروقا ، إنه كما قلت ، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا ، وقد قرينا ابن عمك وأصحابك ، فأشهد أنك رسول الله صادقا مصدقاً وقد بايعتك ، وبايعت ابن عمك ، وأسلمت على يديه لله رب العالمين).

وكان النبى ﷺ قد طلب من النجاشى أن يرسل جعفراً ومن معه من مهاجرى الحبشة، فأرسلهم فى سفينتين مع عمرو بن أمية الضمرى ، فقدم بهم على النبى ﷺ وهو بخيبر . توفى النجاشى هذا فى رجب سنة تسع من الهجرة بعد تبوك ، نعاه النبى ﷺ يوم وفاته وصلى عليه صلاة الغائب ، ولما مات وتخلف على عرشه ملك آخر كتب إليه النبى ﷺ كتاباً آخر ، ولا ندرى هل أسلم أم لا ؟

٢ ـ الكتاب إلى المقوقس ملك مصر :

وكتب النبى إلى جريج بن متى الملقب بالمقوقس ملك مصر والإسكندرية : «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فإنى أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم أهل القبط ﴿ **يا أهل الكتاب تعالوا إلىٰ كلمة سواء بيننا وبينكم ألاَّ نعبد إلاَّ الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضا أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون** ﴾ [آل عمران : ٦٤] » .

واختار لحمل هذا الكتاب حاطب بن أبى بلتعة ، فلما دخل حاطب على المقوقس قال له : إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلي ، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى فانتقم به ثم انتقم منه ، فاعتبر بغيرك ، ولا يعتبر غيرك بك .

فقال المقوقس : إن لنا ديناً لن ندعه لما هو خير منه .

فقال حاطب : ندعوك إلى دين الإسلام الكافى به الله فقط ما سواه ، إن هذا النبى دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش، وأعداهم له اليهود ، وأقربهم منه النصارى ، ولعمرى ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد ، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل ، فكل نبى أدرك قوماً فهم

أمته فالحق عليهم أن يطيعوه ، وأنت ممن أدركه هذا النبى ، ولسنا ننهاك عن دين المسيح ، ولكنا نأمرك به .

فقال المقوقس : إنى قد نظرت فى أمر هذا النبى ، فوجدته لا يأمر بمزهود فيه ولا ينهى عن مرغوب فيه ، ولم أجده بالساحر الضال ، ولا الكاهن الكاذب ، ووجدته معه آية النبوة بإخراج الخبء والإخبار بالنجوى وسأنظر .

وأخذ كتاب النبى ﷺ فجعله فى حق من عاج ، وختم عليه ودفعه به إلى جارية له ، ثم دعا كاتباً له يكتب بالعربية ، فكتب إلى رسول الله ﷺ :

(بسم اللهِ الرحمنِ الرحيم . لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط ، سلام عليك ، أما بعد ، فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما ذكرت فيه ، وما تدعو إليه وقد علمت أن نبياً بقى، وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، وقد أكرمت رسولك، وبعثت إليك بجاريتين، لهما مكان فى القبط عظيم ، وبكسوة ، وأهديت إليك بغلة لتركبها ، والسلام عليكَ) .

ولم يزد على هذا ولم يسلم ، والجاريتان : مارية ، وسيرين ، والبغلة : دلدل ، بقيت إلى زمن معاوية ، واتخذ النبى ﷺ مارية سرية له ، وهى التى ولدت له إبراهيم ، وأما سيرين فأعطاها لحسان بن ثابت الأنصارى .

٣ ـ الكتاب إلى كسرى ملك فارس :

وكتب النبى ﷺ إلى كسرى ملك فارس :

« بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأدعوك بدعاية الله فإنى أنا رسول الله إلى الناس كافة ، لينذر من كان حيا ، ويحق القول على الكافرين ، فأسلم تسلم، فإن أبيت فإن إثم المجوس عليك ».

واختار لحمل هذا الكتاب عبد الله بن حذافة السهمى ، فدفعه السهمى إلى عظيم البحرين، ولا ندرى هل بعث عظيم البحرين رجلاً من رجالاته، أم بعث عبد الله السهمى، وأياً ما كان فلما قرئ الكتاب على كسرى مزقه ، وقال فى غطرسة : عبد حقير من رعيتى يكتب اسمه قبلى ، ولما بلغ ذلك رسول الله قال:

« مزق الله ملكه » ، وقد كان كما قال، فقد كتب كسرى إلى باذان عامله على اليمن : ابعث إلى هذا الرجل الذى بالحجاز رجلين من عندك جلدين ، فليأتيانى به فاختار باذان رجلين ممن عنده ، وبعثهما بكتاب إلى رسول الله ﷺ يأمره أن ينصرف معه إلى كسرى؛ فلما قدما المدينة، وقابلا النبى ﷺ قال أحدهما: إن شاهنشاه (ملك الملوك) كسرى قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك ، وبعثنى إليك لتنطلق معى وقال قولاً تهديدياً فأمرهما النبى ﷺ أن يلاقياه غداً .

وفى ذلك الوقت كانت قد قامت ثورة كبيرة ضد كسرى من داخل بيته بعد أن لاقت جنوده هزيمة منكرة أمام جنود قيصر، فقد قام شيرويه بن كسرى على أبيه فقتله، وأخذ الملك لنفسه ، وكان ذلك فى ليلة الثلاثاء لعشر مضين من جمادى الأولى سنة سبع، وعلم رسول الله ﷺ الخبر من الوحى؛ فلما غدا عليه أخبرهما بذلك ، فقالا : هل تدرى ما تقول ؟ إنا قد نقمنا عليك ما هو أيسر أفنكتب هذا عنك ، ونخبره الملك ، قال : « نعم أخبراه ذلك عنى، وقولا له : إن دينى وسلطانى سيبلغ ما بلغ كسرى وينتهى إلى منتهى الخف والحافر ، وقولا له : إن أسلمت أعطيتك ما تحت يدك ، وملكتك على قومك من الأبناء » ، فخرجا من عنده حتى قدما على باذان فأخبراه الخبر . وبعد قليل جاء كتاب بقتل شيرويه لأبيه، وقال له شيرويه فى كتابه : انظر الرجل الذى كان كتب فيه أبى إليك فلا تهجه حتى يأتيك أمرى.

وكان ذلك سببا فى إسلام باذان ومن معه من أهل فارس باليمن .

٤ ـ الكتاب إلى قيصر ملك الروم :

وروى البخارى ضمن حديث طويل نص الكتاب الذى كتبه النبى ﷺ إلى ملك الروم هرقل وهو هذا :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أسلم تسلم ، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين ﴿ يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلاّ الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ [آل عمران: ٦٤] » .

واختار لحمل الكتاب دحية بن خليفة الكلبى ، وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى ليدفعه إلى قيصر . وقد روى البخارى عن ابن عباس أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه فى ركب من قريش ، وكانوا تجاراً بالشام ، فى المدة التى كان رسول الله ﷺ مادَّ فيها أبا سفيان وكفار قريش ، فأتوه وهم بإيلياء، فدعاهم فى مجلسه وحوله عظماء الروم ثم دعاهم ودعا ترجمانه فقال : أيكم أقرب نسباً لهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ؟ قال أبو سفيان : فقلت : أنا أقربهم نسباً ، فقال : ادنوه منى ، وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره ، ثم قال لترجمانه : إنى سائل هذا عن هذا الرجل ، فإن كذبنى فكذبوه ، فوالله لولا الحياء من أن يأثروا على كذباً لكذبت عنه .

ثم قال : أول ما سألنى عنه أنه قال : كيف نسبه فيكم ؟ فقلت : هو فينا ذو نسب. قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا. قال : فهل كان من آبائه من ملك ؟ قلت لا. قال : فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ قلت : بل ضعفاؤهم . قال : أيزيدون أم ينقصون ؟ قلت : بل يزيدون. قال : فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه. قلت : لا . قال : فهل تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال : قلت : لا . قال : فهل يغدر ؟ قلت : لا ، ونحن منه فى مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها ـ قال : ولم تمكنى كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة ـ قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم. قال: فكيف كان قتالكم إياه ؟ قلت : الحرب بيننا وبينه سجال ، ينال منا وننال منه . قال : ماذا يأمركم ؟ قلت: يقول : اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً ، واتركوا ما يقول آباؤكم ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة ، فقال للترجمان : قل له :

سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب،وكذلك الرسل تبعث فى نسب من قومها. وسألتك هل قال أحد منكم قبله فذكرت أن لا ، قلت : لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت : رجل يأتسى بقول قيل قبله. وسألتك هل كان من آبائه من ملك فذكرت أن لا ، فقلت : لو كان من آبائه من ملك قلت: رجل يطلب ملك أبيه . وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب فذكرت أن لا ، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ، ويكذب على الله ، وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم فذكرت أن ضعفاؤهم اتبعوه وهم أتباع الرسل ، وسألتك

أيزيدون أم ينقصون فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم . وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب . وسألتك هل يغدر ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر. وسألتك بماذا يأمر ؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمىَّ هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج ، ولم أكن أظنه أنه منكم ، فلو أنى أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه ، ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه فلما فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الأصوات عنده، وكثر اللغط، وأمر بنا فأخرجنا، قال: فقلت لأصحابه حين أخرجنا: لقد أمر أمرُ ابن أبى كبشة، إنه ليخافه ملوك بنى الأصفر ، فما زلت موقناً بأمر رسول الله ﷺ أنه سيظهر حتى أدخل الله علىَّ الإسلام .

٥ ـ الكتاب إلى المنذر بن ساوى :

وكتب النبى ﷺ إلى المنذر بن ساوى حاكم البحرين كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام ، وبعث إليه العلاء بن الحضرمى بذلك الكتاب ، فكتب المنذر إلى رسول الله ﷺ : (أما بعد يا رسول الله ، فإنى قرأت كتابك على أهل البحرين، فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ، ودخل فيه ، ومنهم من كرهه وبأرضى مجوس ويهود ، فأحدث إلىَّ فى ذلك أمرك) ، فكتب إليه رسول الله ﷺ :

« بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى، سلام عليك، فإنى أحمد إليك الله الذى إله إلا هو ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أما بعد ، فإنى أذكرك الله عز وجل ، فإنه من ينصح لنفسه ، وإنه من يطيع رسلى ويتبع أمرهم فقد أطاعنى ، ومن نصح لهم فقد نصح لى ، وإن رسلى قد أثنوا عليك خيراً ، وإنى قد شفعتك فى قومك ، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه ، وعفوت عن أهل الذنوب ، فاقبل منهم ، وإنك مهما تصلح فلم نعزلك عن عملك ، ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية » .

٦ ـ الكتاب إلى هوذة بن على صاحب اليمامة :

وكتب النبى ﷺ إلى هوذة بن على صاحب اليمامة :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى هوذة بن على ، سلام على من اتبع الهدى ، واعلم أن دينى سيظهر إلى منتهى الخف والحافر ، فأسلم تسلم ، واجعل لك ما تحت يديك » .

واختار لحمل هذا الكتاب سليط بن عمرو العامرى ، فلما قدم سليط على هوذة بهذا الكتاب مختوماً أنزله وحياه وقرأ عليه الكتاب، فرد عليه رداً دون رد وكتب إلى النبى ﷺ : (ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله، والعرب تهاب مكانى، فاجعل لى بعض الأمر أتبعك)، وأجاز سليطاً بجائزة، وكساه أثواباً من نسج هجر، فقدم بذلك كله على النبى ﷺ فأخبره ، وقرأ النبى ﷺ كتابه فقال: « لو سألنى قطعة من الأرض ما فعلت ، باد ، وباد ما فى يديه » ، فلما انصرف رسول الله ﷺ من الفتح جاءه جبريل ـ عليه السلام ـ بأن هوذة مات ، فقال النبى ﷺ : « أما إن اليمامة سيخرج بها كذاب يتنبى يقتل بعدى »، فقال قائل : يا رسول الله ، من يقتله ؟ فقال : « أنت وأصحابك » ، فكان ذلك .

٧ ـ الكتاب إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى صاحب دمشق :

كتب إليه النبى ﷺ : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبى شمر ، سلام على من اتبع الهدى، وآمن به وصدق ، وإنى أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له ، يبقى لك ملكك » .

واختار لحمل هذا الكتاب شجاع بن وهب من بنى أسد بن خزيمة ، ولما أبلغه الكتاب قال : من ينزع ملكى منى ؟ أنا سائر إليه ، ولم يسلم .

٨ ـ الكتاب إلى ملك عمان :

وكتب النبى ﷺ كتاباً إلى ملك عمان جيفر وأخيه عبدى بنى الجلندى ، ونصه: « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد بن عبد الله إلى جيفر وعبدا بنى الجلندى ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فإنى أدعوكما بدعاية الإسلام، أسلما تسلما ، فإنى رسول الله ﷺ إلى الناس كافة لأنذر من كان حيا، ويحق القول على الكافرين، فإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما ، وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام فإن ملككما زائل ، وخيل تحل بساحتكما وتظهر نبوتى على ملككما » .

واختار لحمل هذا الكتاب عمرو بن العاص[1] رضي الله عنه ، قال عمرو : فخرجت حتى انتهيت إلى عمان ، فلما قدمتها عمدت إلى عبد ، وكان أحلم الرجلين وأسهلهما خلقاً ـ فقلت : إني رسول رسول الله ﷺ إليك وإلى أخيك ، فقال : أخي المقدم على بالسن والملك ، وأنا أوصلك إليه حتى يقرأ كتابك ، ثم قال : وما تدعو إليه ؟ قلت: أدعو إلى الله وحده لا شريك له وتخلع ما عبد من دونه، وتشهد أن محمداً عبده ورسوله ، قال : يا عمرو، إنك ابن سيد قومك فكيف صنع أبوك ؟ فإن لنا فيه قدوة، قلت: مات ولم يؤمن بمحمد ﷺ ، ووددت أنه كان أسلم وصدق به ، وقد كنت أنا على مثل رأيه حتى هداني الله للإسلام ، قال : فمتى تبعته ؟ قلت : قريباً . فسألني أين كان إسلامك ؟ قلت : عند النجاشي، وأخبرته أن النجاشي قد أسلم، قال: وكيف صنع قومه بملكه؟ فقلت: أقروه واتبعوه. قال : والأساقفة والرهبان تبعوه ؟ قلت: نعم. قال: انظر يا عمرو ما تقول ، إنه ليس من خصلة في رجل أفضح له من الكذب. قلت : ما كذبت وما نستحله في ديننا، ثم قال: ما أرى هرقل علم بإسلام النجاشي ، قلت: بلى. قال : فبأي شيء علمت ذلك ؟ قلت : كان النجاشي يخرج له خرجاً ، فلما أسلم وصدق بمحمد ﷺ قال : لا والله لو سألني درهماً واحداً ما أعطيته فبلغ هرقل قوله فقال له النياق أخوه : أتدع عبدك لا يخرج لك خرجاً ويدين بدين غيرك ديناً محدثاً ؟ قال هرقل : رجل رغب في دين ، فاختاره لنفسه ، ما أصنع به ؟ والله لولا الضن بملكي لصنعت كما صنع . قال : انظر ما تقول يا عمرو ؟ قلت : والله صدقتك . قال عبد : فأخبرني ما الذي يأمر به وينهى عنه ؟ قلت : يأمر بطاعة الله عز وجل ، وينهى عن معصيته ويأمر بالبر وصلة الرحم ، وينهى عن الظلم والعدوان ، وعن الزنا ، وعن الخمر وعن عبادة الحجر والوثن والصليب. قال : ما أحسن هذا الذي يدعو إليه ، لو كان أخي يتابعني عليه لركبنا حتى نؤمن بمحمد ﷺ ونصدق به ، ولكن أخي أضن بملكه من أن يدعه ويصير ذَنَباً. قلت: إن أسلم ملّكه رسول الله على قومه، فأخذ الصدقة من غنيهم فيردها على فقيرهم. قال: إن هذا لخلق حسن وما الصدقة ؟ فأخبرته بما فرض رسول الله ﷺ في الصدقات في الأموال حتى انتهيت إلى الإبل . قال : يا عمرو ، وتؤخذ من سوائم مواشينا التي ترعى الشجر وترد المياه ؟ فقلت : نعم . فقال : والله

(١) لا شك أن هذا الكتاب كان متأخراً ؛ لأن عمرو رضي الله عنه أسلم قبيل الفتح .

ما أرى قومى فى بعد دارهم وكثرة عددهم يطيعون لهذا . قال: فمكثت ببابه أياما وهو يصل إلى أخيه فيخبره كل خبرى ، ثم إنه دعانى يوماً فدخلت عليه ، فأخذ أعوانه بضبعى فقال: دعوه، فأرسلت فذهبت لأجلس ، فأبوا أن يدعونى أجلس. فنظرت إليه فقال : تكلم بحاجتك ، فدفعت إليه الكتاب مختوما ، ففض خاتمه وقرأ حتى انتهى إلى آخره ، ثم دفعه إلى أخيه فقرأه مثل قراءته ، إلا أنى رأيت أخاه أرق منه. قال: ألا تخبرنى عن قريش كيف صنعت ؟ فقلت : تبعوه ، إما راغب فى الدين وإما مقهور بالسيف . قال : ومن معه ؟ قلت : الناس قد رغبوا فى الإسلام ، واختاروه على غيره ، وعرفوا بعقولهم من هدى الله إياهم أنهم كانوا فى ضلال ، فما أعلم أحداً بقى غيرك فى هذه الخرجة ، وأنت إن لم تسلم اليوم وتبعته تواطئك الخيل وتبيد خضراءك، فأسلم تسلم ويستعملك على قومك، ولا تدخل عليك الخيل والرجال . قال : دعنى يومى هذا ، وارجع إلىّ غداً .

فرجعت إلى أخيه فقال: يا عمرو ، إنى لأرجو أن يسلم إن لم يضن بملكه حتى إذا كان الغد أتيت إليه فأبى أن يأذن لى ، فانصرفت إلى أخيه ، فأخبرته أنى لم أصل إليه فأوصلنى إليه ، فقال : إنى فكرت فيما دعوتنى إليه ، فإذا أنا أضعف العرب إن ملكت رجلاً ما فى يدى وهو لا تبلغ خيله ها هنا ، وإن بلغت خيله لقت قتالاً ليس كقتال من لاقى ، قلت : أنا خارج غداً ، فلما أيقن بمخرجى خلا به أخوه فقال : ما نحن فيما ظهر عليه ، وكل من أرسل إليه قد أجابه، فأصبح فأرسل إلىّ فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعاً ، وصدقا النبى ﷺ وخليا بينه وبين الصدقة وبين الحكم فيما بينهم ، وكانا لى عوناً على من خالفنى.

وسياق هذه القصة تدل على أن إرسال الكتاب إليهما تأخر كثيرا عن كتب بقية الملوك والأغلب أنه كان بعد الفتح .

وبهذه الكتب كان النبى ﷺ قد أبلغ دعوته إلى أكثر ملوك الأرض فمنهم من آمن به ، ومنهم من كفر ، ولكن شغل فكرة هؤلاء الكافرين وعرف لديهم باسمه ودينه . . .) [1] .

إن الرسائل المذكورة تفصح عن نفسها ولا تحتاج إلى تعليق . . . فهذه الحركة العالمية نقلت الإسلام من المحيط المحلى إلى المحيط العالمى، وهزت عروش ملوك،

(١) الرحيق المختوم للمباركفورى ص ٣٩٢ ــ ٤٠٥ (مقتطفات) .

وأدخلت ملوكاً فى الإسلام ، ووجهت بعض الملوك إلى الحرب ، وما كان هذا الأمر ليتم قبل صلح الحديبية ، حيث أصبحت الدولة الإسلامية هى الدولة الأقوى فى جزيرة العرب بلا منازع ، وإنهاء الحرب الطاحنة كان إيذاناً بالتفرغ إلى الدعوة وتبليغها للناس كافة ، والإشارة التى لابد منها فى هذا الصدد هى أن رأياً قد يرد بخطورة هذه الرسائل على الدولة الإسلامية الفتية ، التى توجه الأنظار نحوها ، وخصوصاً إلى كسرى وقيصر ، وقد جرى ذلك فى تخوم الشام ولدى كسرى الفرس الذى مزق الرسالة، واستدعى محمداً ﷺ حيا أو ميتاً، وهل بإمكان المدينة أن تواجه دول الأرض ؟

ولابد من إيضاح هذه النقطة بأن تبليغ الدعوة فى الوقت المناسب وحى ربانى ، والله تعالى هو الذى يتكفل بحماية دينه ، فحين كانت المدينة عاجزة عن مواجهة دولة الفرس الكبرى هيأ الله تعالى لحماية نبيه ودعوته انقلاباً عالمياً على كسرى، أدى هذا الانقلاب لمقتل الحاكم الطاغية وتراجع ابنه عن موقف أبيه من محمد ﷺ كما يقول نص الكتاب (انظر الرجل الذى كتب فيه أبى إليك فلا تهجه حتى يأتيك أمرى) ، وكان من طرف آخر فتحاً جديداً بإسلام باذان عامل الفرس على اليمن ودخول أهل اليمن فى الإسلام .

وقد اشترك فى هذا الخطر على الدولة الإسلامية الحارث بن أبى شمر الغسانى الذى هدد بغزو المدينة ، ومن أجل ذلك كانت الاستعدادات العسكرية مرافقة للتحرك السياسى فكانت سرية مؤتة والصدام مع الروم ، فلابد من تحمل تبعات الرسالة ، وكان تحرك سرية مؤتة ثأراً للرسول الذى قتل على يدى شرحبيل ابن عمرو الغسانى .

بينما اشترك فى موقف المراوغة والمهادنة قيصر الروم ومقوقس مصر ، والذى حال بينهما وبين الإسلام هو خوفهما على ملكهما وجزعهما من الرعية أن تثور عليهما ، ولعل ما نقله أبو سفيان رضي الله عنه عن لقاء قيصر يعطى صورة واضحة وصادقة عن تصديق قيصر لرسول الله ، وكيف نخرت الرهبان بعد ذلك وهددوه لو أسلم بحربه .

ودخل فى الإسلام نجاشى الحبشة وحاكم البحرين وملك عُمان .

وراوغ صاحب اليمامة ، وأراد أن يشترك فى الغنيمة والرسالة فأهلكه الله تعالى بعد ذلك .

ولعل من أهم آثار الكتب غزو أبى سفيان من داخله وقد ساقه قدر الله إلى بلاط قيصر ليسمع رأيه بمحمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وقرع أذنه قول قيصر: (فلو أنى أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه) .

والأشد من هذا على أبى سفيان قول قيصر : (فإن كان ما تقوله حقا فسيملك موضع قدمى هاتين) ، وأبو سفيان يدرى أنه قال الحق كل الحق رغم أنفه ، وكان يحسب أن تهوينه من شأن محمد وأتباعه سوف يدفع قيصر للاستهانة بخصمه ، لكنه يفاجأ بأن هذا التهوين زاد قناعة قيصر بنبوة محمد، وكان الغزو الداخلى لأبى سفيان حيث اعترف بذلك قائلاً : (لقد أمر أمْر ابن أبى كبشة أن تخافه ملوك بنى الأصفر ، فما زلت موقناً بأمر رسول الله ﷺ أنه سيظهر حتى أدخل الله علىَّ الإسلام). إن التحرك السياسى الذى تقوم به الحركة الإسلامية يجب أن يهدف أول ما يهدف إلى تبليغ دعوة الله إلى حكام الأرض وملوكهم ، ولو كلفت هذه الدعوة الحركة الإسلامية عنتاً وحرجاً . إن من الخيانة لدعوة الله وشريعته أن تبارك الحركة الإسلامية أنظمة الكفر أو توحى إليهم أن أنظمتهم هى الإسلام بعينه، وأن شريعة الله تبارك طغيانهم وظلمهم وحكمهم بغير ما أنزل الله، وهذه الرسائل التى بين أيدينا تعلمنا طريقة الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة لا بالسباب والتحدى.

ولابد أن نوضح الخط الفاصل بين قضيتين :

القضية الأولى : أسلوب التعامل مع الحاكمين ، وحسن اختيار الكلمة المناسبة ، والضرب على الأوتار النفسية لهم ، والاستفادة من الواقع العملى .

القضية الثانية : خلط الحق بالباطل ، ومداهنتهم على كفرهم ، ومباركة طغيانهم وطمس معالم الإسلام ، والتزلف لهؤلاء الحكام بجعل الإسلام وشريعة الله أداة لتقرير ظلمهم ، وعدم القدرة على التفريق بين هاتين النقطتين يمزق الصف المسلم ، ويفجره .

فلقد رأينا هذه الرسائل تخاطب الملوك بألقابهم ، ولكنها لا تقدمهم أبدا على رسول الله ، وهذه القضية البسيطة هى التى فجرت غيظ كسرى (عبد حقير من رعيتى يكتب اسمه قبلى) فلم يكن حرجاً أن نجد فى نص الكتاب : عظيم فارس

وعظيم القبط ، والنجاشى ، وعظيم الروم ، ونلاحظ كذلك فى قضية الدعوة أن فكرة الوحدانية والرسالة لابد من أن تكون واضحة جلية، لا لبس فيها ولا غموض حتى إذا أدى الأمر إلى التحديد حتى لا تطمس معانيها فلابد من ذلك ، حيث يكون الأمر جلياً فى رفض عبادة الأوثان لمن يعبد الأوثان ، ورفض عبادة الصليب لمن يعبد الصليب .

غير أن هذا الإيضاح الجلى للشهادتين كان يرافقه كثيراً الحديث عن المبادئ الإسلامية الخلقية من الصدق والعفاف والصلة وغير هذه الأمور التى يلتقى عليها الناس ، ونلاحظ كذلك أن رسول الله ﷺ كان يضرب على الأوتار النفسية التى يخشاها الحاكمون، فكانت رسله تطمئن هؤلاء الحاكمين على ملكهم، وأنه سيحفظ لهم إذا دخلوا فى الإسلام ، حتى أولئك الذين عادوا الإسلام وحاربوه، لم يكن الغيظ أو الحقد ليغير هذه السياسة بل كان إكرامهم هو الأساس بعد دخولهم بالإسلام أو حتى بعد انقطاعهم عن حربه .

لقد كانت هذه الرسائل منعطفاً كبيراً وخطيرا فى تاريخ الإسلام ، وسمة عظيمة من سماته، حيث ربطت المسلمين بالعالم كله بين تأييد أو بيعة أو مواجهة، وكانت ثمرة عظيمة من ثمار الفتح المبين الذى حدثنا الله تعالى عنه ، والانتقال من الحرب الضروس على الأرض المحلية إلى تجاوب ملوك الأرض مع الإسلام هو نقلة واسعة بعيدة المدى هائلة الآفاق ، وجاءت فى وقتها المناسب بعد أن أعلنت قريش هدنتها لعشر سنين لتتيح لدولة الإسلام أن تأخذ أبعادها وجذورها فى الأرض كالكلمة الطيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء .

السمة الثامنة

تجمع القوى والثقة بالنصر

وتتضح هذه السمة من خلال التوجيه النبوى لجمع هذه القوى :

وقدم أهل السفينتين من عند النجاشى بعد أن فتحت خيبر فيهم جعفر بن أبى طالب وأبو موسى عبد الله بن قيس الأشعرى ، فى جماعة من الأشعريين يزيدون على سبعين، وذكر ابن سعد عن الواقدى بسنده (إنهم لما سمعوا خبر هجرة

رسول الله ﷺ إلى المدينة، ورجع معهم ثلاثة وثلاثون رجلاً وثمانى نسوة، فمات منهم رجلان بمكة ، وحبس بمكة سبعة نفر ، وشهد بدراً منهم أربعة وعشرون رجلاً. فلما كان شهر ربيع الأول سنة سبع من الهجرة كتب رسول الله ﷺ إلى النجاشى يدعوه إلى الإسلام مع عمرو بن أمية الضمرى، فأسلم ، وكتب إليه أيضاً أن يزوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان ـ وكانت فيمن هاجر إلى الحبشة ـ فزوجه إياها ، وكتب إليه أيضاً أن يبعث بمن بقى عنده من أصحابه ويحملهم ، فحملهم فى سفينتين مع عمرو بن أمية فأرسلوا بساحل بولا وهو الجار ، ثم ساروا حتى قدموا المدينة ، فوجدوا رسول الله بخيبر فأتوه فقال ﷺ : « ما أدرى بأيهما آنا أسر بفتح خيبر أم بقدوم جعفر » ثم ضمَّه وقبل ما بين عينيه ، وهمَّ المسلمون أن يدخلوا جعفراً ومن قدم معه فى سهمانهم ففعلوا، وقدم الدوسيون فيهم أبو هريرة والطفيل بن عمرو الدوسى وأصحابهم ، ونفر من الأشعريين ، فكلم رسول الله ﷺ أصحابه فيهم أن يشركوهم فى الغنيمة فقالوا: نعم يا رسول الله) (١) .

لقد مرت الهجرة إلى الحبشة بمراحل ثلاث :

الهجرة الأولى : وكانت فى السنة الخامسة ، وعدد المهاجرين قليل ، وعادوا فى السنة نفسها عندما تناهى إلى أسماعهم خبر إسلام أهل مكة ، وكان خبراً غير صحيح .

الهجرة الثانية : وبلغ عدد المسلمين فيها ثمانين ما بين رجل وامرأة ، وهو تجمع فى عدده قريب من تجمع المسلمين فى مكة ، وكما ذكر ابن سعد (إنه قرابة ثلث هذا التجمع قد غادر الحبشة عقب الهجرة ، وحضر منهم بضعة وعشرون غزوة بدر) .

العودة الأخيرة : وكانت بدعوة رسمية من رسول الله ﷺ عن طريق النجاشى، ولا شك أن جعفراً رضي الله عنه لا يغيب عن ذهن رسول الله، ومدى الحاجة الماسة إليه فى المعارك الضارية مع قريش ، ومع ذلك لم يستدعه النبى ﷺ وصحبه مع ـ حرصه عليه الصلاة والسلام ـ أن يكون أقرباؤه هم وقود المعارك ، والذادة عن حمى الإسلام .

---

(١) إمتاع الأسماع ١/ ٣٢٥ ، ٣٢٦ .

ولقد كان لمصرع حمزة رضي الله عنه في أحد أعظم الأثر على رسول الله ﷺ وقال عنه: «لن أصاب بمثلك أبدًا» ، وقال : « ما وقفت موقفاً قط أغيظ لى من هذا»، وبقى من أقاربه الأدنين على رضي الله عنه ، وعندما برز لعمرو بن عبد ود فى الخندق يروى أنه قال ـ عليه الصلاة والسلام: « رب لا تذرنى فرداً وأنت خير الوارثين »، ويؤكد حرص الرسول ﷺ على أن يكون أهله معه فى المعركة ما رأيناه فى مؤتة ؛ إذ أنه فى أقل من أشهر كان جعفر على رأس المجاهدين فى مؤتة وأحد الأمراء الثلاثة .

وحاجة رسول الله ﷺ إلى المجاهدين من صحبه وأهله المهاجرين كانت حاجة ماسة ومع ذلك لم يستدعهم ، وتفسير ذلك ـ والله أعلم ـ يعود إلى حرص النبى ﷺ على إبقاء مراكز احتياطية للدعوة يمكن الانتقال إليها لو فقدت المدينة ، وكان احتمال تعرض المدينة لهجوم مباغت كاسح قائماً فى كل لحظة ، ومن أجل هذا بقى الأشعريون فى اليمن ، والدوسيون فى دوس ، ومهاجرو الحبشة فى الحبشة ، والغفاريون فى غفار ، بقى هؤلاء جميعاً قوى احتياطية لمتابعة المعركة فيما لو فقد موقع من هذه المواقع .

ولا شك أن الحبشة هى موقع غير استراتيجى للمواجهة وبين الأبعدين الغرباء، لكنها بصفتها مركزاً آمناً وملجأ للدعوة هى من خير المواقع لذلك ، خاصة وأن النجاشى ملكها قد أسلم سرا وبايع رسول الله ﷺ .

أما بعد صلح الحديبية فقد اختلف الأمر ، وزال الخطر عن المدينة ، وأمن الناس ، وأتاحت الهدنة للمحيط العربى والعالمى أن يفقه الإسلام فى هذه المرحلة استدعى رسول الله ﷺ رصيده الاحتياطى ؛ إذ لم يعد بحاجة إليه فى اليمن أو الحبشة ، بل صار بحاجة ماسة إليه ليشارك فى الجبهات الجديدة المفتوحة خارج جزيرة العرب ، ومع غير العرب من الروم والفرس.

وهذا درس مهم يحسن أن تقف أمامه الحركة الإسلامية طويلاً ، وهى تخوض حروبها مع الطغاة ألا تكون قوتها جميعاً فى موقع واحد ، فإذا ضرب هذا الموقع انتهت ـ لا سمح الله ـ بل لابد لها أن تبحث عن أكثر من مكان آمن ، وأكثر من قاعدة احتياطية ، فإذا تغيرت الظروف الصعبة وكشفت المحنة ، وصارت المواقع كلها آمنة ومراكز للدعوة تستطيع عندئذ أن تنهى بعض المراكز ، أو تستقطب

القوى حول المركز الرئيسى الذى يرفد كل المراكز الثانوية والتمكن فى الأرض هو الذى يتيح المجال لمثل هذه الخطوة .

يقول الشهيد سيد ـ رحمه الله :

(ومن ثم كان بحث الرسول ﷺ عن قاعدة أخرى غير مكة قاعدة تحمى هذه العقيدة وتكفل لها الحرية ، ويتاح لها أن تخلص من هذا التجميد الذى انتهت إليه فى مكة، حيث تظفر بحرية الدعوة وبحماية المعتنقين لها من الاضطهاد والفتنة . . . وهذا فى تقديرى كان هو السبب الأهم والأول للهجرة .

ولقد سبق الاتجاه إلى يثرب ، لتكون قاعدة الدولة الجديدة ، عدة اتجاهات سبقتها الاتجاه إلى الحبشة، حيث هاجر إليها كثير من المؤمنين الأوائل ، والقول بأنهم هاجروا إليها لمجرد النجاة بأنفسهم لا يستند إلى قرائن قوية ، فلو كان الأمر كذلك لهاجر إذن أقل الناس جاهاً وقوة ومنعة من المسلمين غير أن الأمر كان على الضد من هذا ، فالموالى المستضعفون الذين كان ينصب عليهم معظم الاضطهاد والتعذيب والفتنة لم يهاجروا إنما هاجر رجال ذو عصبيات ، لهم من عصبيتهم فى بيئة قبلية ما يعصمهم من الأذى ، ويحميهم من الفتنة ، وكان عدد القرشيين يؤلف غالبية المهاجرين ، منهم جعفر بن أبى طالب وأبوه وفتيان بنى هاشم معه هم الذين كانوا يحمون النبى ﷺ ـ ومنهم الزبير بن العوام ـ وعبد الرحمن بن عوف ، وأبو سلمة المخزومى وعثمان بن عفان الأموى . . . وغيرهم ، وهاجرت نساء كذلك من أشرف بيوتات مكة، ما كان الأذى لينالهن أبداً ، وربما كان من وراء هذه الهجرة أسباب أخرى كإثارة هزة فى أوساط البيوت الكبيرة من قريش ، وأبناؤها الكرام المكرمون يهاجرون بعقيدتهم ، فراراً من الجاهلية تاركين وراءهم كل وشائج القربى ، فى بيئة قبلية تهزها هذه الهجرة على هذا النحو هزا عنيفاً ، وبخاصة حين يكون من بين المهاجرين مثل أم حبيبة بنت أبى سفيان زعيم الجاهلية وأكبر المتصدين لحرب العقيدة الجديدة وصاحبها ، ولكن مثل هذه الأسباب لا ينفى احتمال أن تكون الهجرة إلى الحبشة أحد الاتجاهات المتكررة فى البحث عن قاعدة حرة ، أو آمنة على الأقل للدعوة الجديدة ، وبخاصة حين نضيف إلى هذا الاستنتاج ما ورد عن إسلام نجاشى الحبشة، ذلك الإسلام الذى لم يمنعه من إشهاره نهائياً إلا ثورة البطارقة عليه كما ورد فى روايات صحيحة)[1] .

(١) فى ظلال القرآن ١/ ٢٤، ٢٥ ط الخامسة .

ويؤيد ما ذهب إليه سيد ـ رحمه الله ـ أنه مجرد ظهور القاعدة الآمنة والعاصمة الجديدة غادر حوالى ثلث المهاجرين إلى المدينة ، وبقيت الأكثرية منهم هناك حفاظاً على هذه القاعدة بأمر رسول الله ﷺ ، إلى أن زال الخطر ، وأمن الناس ، وقويت شوكة المسلمين بحيث أصبحت مستعصية على الإبادة كما يقول ـ عليه الصلاة والسلام : « الآن نغزوهم ولا يغزونا » أمكن عندها استدعاء الجالية الإسلامية فى الحبشة لتمارس دورها الفعال فى الجهاد فى المعارك القادمة.

وحرى بنا أن نقتفى أثر هذا الهدى النبوى ، ونتعلم ونحن نواجه هذا المجتمع أن نرعى هذا الجانب ، ولا نضع البيض فى سلة واحدة ، كما يقول المثل فينتهى الوجود الحركى والعياذ بالله .

السمة التاسعة

إنهاء الوجود اليهودى فى جزيرة العرب : غزوة خيبر

كان مما وعد الله تعالى به المؤمنين فى سورة الفتح ، قوله عز وجل :

﴿ لقدْ رضيَ اللهُ عنِ المُؤمنين إذ يُبايعُونك تحت الشجرة فعلم ما في قُلوبهم فأنزل السكينة عليْهم وأثابهُم فتحا قريبا . ومغانم كثيرة يأخذُونها وكان اللهُ عزيزا حكيما ﴾

[الفتح : ١٨ ، ١٩]

وسنأخذ تلخيص المباركفورى عن الغزوة فهو من أشمل ما كتب عنها وأوفاه:

(كانت خيبر مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع على بعد ثمانين ميلاً من المدينة فى جهة الشمال ، وهى الآن قرية فى مناخها بعض الوخامة .

سبب الغزوة :

ولما اطمأن رسول الله ﷺ من أقوى أجنحة الأحزاب الثلاثة ، وأمن منه أمنا باتا بعد الهدنة أراد أن يحاسب الجناحين الباقيين ـ اليهود وقبائل نجد ـ حتى يتم الأمن والسلام ، ويسود الهدوء فى المنطقة ، ويفرغ المسلمون من الصراع الدامى المتواصل إلى تبليغ رسالة الله والدعوة إليه .

ولما كانت خيبر هى وكر الدس والتآمر، ومركز الاستفزازات العسكرية ومعدن التحرشات وإثارة الحروب ، كانت هى الجديرة بالتفات المسلمين أولاً .

أما كون خيبر بهذه الصفة، فلا ننسى أن أهل خيبر هم الذين حزبوا الأحزاب ضد المسلمين ، وأثاروا بنى قريظة على الغدر والخيانة ، ثم أخذوا فى الاتصالات بالمنافقين ـ الطابور الخامس فى المجتمع الإسلامى ـ وبغطفان وأعراب البادية ـ الجناح الثالث من الأحزاب ـ وكانوا هم أنفسهم يهيؤون للقتال فألقوا المسلمين بإجراءاتهم هذه فى محن متواصلة حتى وضعوا خطة لاغتيال النبى ﷺ ، وإزاء ذلك اضطر المسلمون إلى بعوث متوالية وإلى الفتك برأس هؤلاء المتآمرين ، مثل سلام بن أبى الحقيق ، وأسير بن زارم ، ولكن الواجب على المسلمين إزاء هؤلاء اليهود كان أكبر من ذلك ، وإنما أبطؤوا بالقيام بهذا الواجب ؛ لأن قوة أكبر وأقوى وألد وأعند منهم ـ وهى قريش ـ كانت مجابهة للمسلمين ، فلما انتهت هذه المجابهة صفا الجو لمحاسبة هؤلاء المجرمين ، واقترب لهم يوم الحساب .

الخروج إلى خيبر :

قال ابن إسحاق : أقام رسول الله ﷺ بالمدينة حين رجع من الحديبية ذا الحجة وبعض المحرم: ثم خرج فى بقية المحرم إلى خيبر . . . فلما أراد رسول الله ﷺ الخروج إلى خيبر أعلن : ألا يخرج معه إلا راغب فى الجهاد ، فلم يخرج إلا أصحاب الشجرة وهم ألف وأربعمائة . . . وقد قام المنافقون يعملون لليهود ، فقد أرسل رأس المنافقين عبد الله بن أبى إلى يهود خيبر : إن محمداً قصد قصدكم ، وتوجه إليكم ، فخذوا حذركم ، ولا تخافوا منه ، فإن عددكم وعدتكم كثيرة ، وقوم محمد شرذمة قليلون ، عزّل لا سلاح معهم إلا قليل . فلما علم ذلك أهل خيبر، أرسلوا كنانة بن أبى الحقيق ، وهوذة بن قيس إلى غطفان يستمدونهم؛ لأنهم كانوا حلفاء يهود خيبر ،ومظاهرين لهم على المسلمين ، وشرطوا لهم نصف ثمار خيبر إن هم غلبوا على المسلمين .

الجيش الإسلامى إلى أسوار خيبر :

وبات المسلمون الليلة الأخيرة التى بدأ فى صباحها القتال قريباً من خيبر ، ولا تشعر بهم اليهود ، وكان النبى ﷺ إذا أتى قوماً بليل لم يقربهم حتى يصبح ، فلما أصبح صلى الفجر بغلس ، وركب المسلمون فخرج أهل خيبر بمساحيهم ومكاتلهم ولا يشعرون ، بل خرجوا لأرضهم فلما رأوا الجيش قالوا : محمد ، والله محمد والخميس ، ثم رجعوا هاربين إلى مدينتهم ، فقال النبى ﷺ :

« الله أكبر خربت خيبر ، الله أكبر خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين » (١) .

التهيؤ للقتال وحصون خيبر :

ولما كانت ليلة الدخول قال النبى ﷺ : « لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله » ، فلما أصبح غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها فقال : « أين على بن أبى طالب ؟ » ، فقالوا : يا رسول الله ، هو يشتكى عينيه، قال: « فأرسلوا إليه »، فبصق رسول الله ﷺ فى عينيه ودعا له فبرئ، كأن لم يكن به وجع فأعطاه الراية فقال: يا رسول الله ، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟ قال : « انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه ، فوالله لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم » (٢) .

وكانت خيبر منقسمة إلى شطرين ، شطر فيها خمسة حصون :

١ ـ حصن ناعم .
٢ ـ حصن الصعب بن معاذ .
٣ ـ حصن قلعة الزبير .
٤ ـ حصن أبى .
٥ ـ حصن النزار .

والحصون الثلاثة الأولى تقع فى منطقة يقال لها : النطاة ، وأما الحصنان الآخران فيقعان فى منطقة تسمى الشق .

أما الشطر الثانى ويعرف بالكتيبة ففيه ثلاثة حصون فقط :

١ ـ حصن القموص (وكان حصن بنى أبى الحقيق من بنى النضير) .
٢ ـ حصن الوطيح .
٣ ـ حصن السُّلالم .

وفى خيبر حصون وقلاع غير هذه الثمانية ، إلا أنها كانت صغيرة لا تبلغ إلى درجة هذه القلاع فى مناعتها وقوتها، والقتال المرير إنما دار فى الشطر الأول منها، أما الشطر الثانى فحصونها الثلاثة مع كثرة المحاربين فيها سلمت دونما قتال .

---

(١) صحيح البخارى ٢/ ٥/ ١٦٧ باب غزوة خيبر .
(٢) صحيح البخارى ، الباب نفسه ٢/ ٥/ ١٧٠ .

بدء المعركة وفتح حصن ناعم :

وأول حصن هاجمه المسلمون من هذه الحصون الثمانية هو حصن ناعم ، وكان خط الدفاع الأول لليهود لمكانه الاستراتيجى، وكان هذا الحصن هو حصن مرحب البطل اليهودى الذى كان يعد بالألف .

خرج على بن أبى طالب رضي الله عنه بالمسلمين إلى هذا الحصن ، ودعا اليهود إلى الإسلام فرفضوا هذه الدعوة ، وبرزوا إلى المسلمين ومعهم ملكهم مرحب ، فلما خرج إلى ميدان القتال دعا إلى المبارزة ، قال سلمة بن الأكوع : فلما أتينا خيبر خرج ملكهم مرحب يخطر بسيفه يقول :

قد علمت خيبر أنى مرحب شاكى السلاح بطل مجرب

إذا الحروب أقبلت تلهب

فبرز له عمى عامر فقال :

قد علمت خيبر أنى عامر شاكى السلاح بطل مغامر

فاختلفا ضربتين ، فوقع سيف مرحب فى ترس عمى عامر ، وذهب عامر يسفل له،وكان سيفه قصيراً ،فتناول به ساق اليهودى ليضربه فيرجع ذباب سيفه ، فأصاب عين ركبته فمات منه ، وقال فيه النبى ﷺ : « إن له لأجرين ـ وجمع بين إصبعيه ـ إنه لجاهد مجاهد ، قل عربى مشى بها مثله »[1] .

ويبدو أن مرحبًا دعا بعد ذلك إلى البراز مرة أخرى وجعل يرتجز بقوله :

قد علمت خيبر أنى مرحب

فبرز له على بن أبى طالب . قال سلمة بن الأكوع : فقال على :

أنا الذى سمتنى أمى حيدره كليث غابات كريه المنظره

أوفيهم بالصاع كيل السندره

فضرب رأس مرحب فقتله ، ثم كان الفتح على يديه[2] .

---

(١) صحيح البخارى ، باب غزوة خيبر ٢/ ٥/ ١٦٧ ونتمته : « إنه لجاهد مجاهد قل عربى مشى بها مثله » .
(٢) صحيح مسلم ٣/ ١٤٤٢ ح (١٨٠٧/ ١٣٢) غزوة ذى قرد .

ولما دنا على ﷺ من حصونهم اطلع يهودى من رأس الحصن ، وقال : من أنت ؟ قال: أنا على بن أبى طالب، فقال اليهودى: علوتم وما أنزل على موسى.

ثم خرج ياسر أخو مرحب وهو يقول : من يبارز ؟ فبرز إليه الزبير ، فقالت صفية أمه: يا رسول الله ، يقتل ابنى ؟ قال : « بل ابنك يقتله » ، فقتله الزبير.

ودار القتال المرير حول حصن ناعم ، قتل فيه عدد من سراة اليهود انهارت لأجله مقاومة اليهود ، وعجزوا عن صد هجوم المسلمين ، ويؤخذ من المصادر : أن هذا القتال دام أياماً لاقى المسلمون فيه مقاومة شديدة ، إلا أن اليهود يئسوا من مقاومة المسلمين فتسللوا من هذا الحصن إلى حصن الصعب ، واقتحم المسلمون حصن ناعم .

فتح حصن الصعب بن معاذ :

وكان حصن الصعب الحصن الثانى من حيث القوة والمناعة بعد حصن ناعم ، قام المسلمون بالهجوم عليه تحت قيادة الحباب بن المنذر الأنصارى ، ففرضوا عليه الحصار ثلاثة أيام ، وفى اليوم الثالث دعا رسول الله ﷺ لفتح هذا الحصن دعوة خاصة ، وروى ابن إسحاق: أن بنى سهم من أسلم أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: لقد جهدنا وما بأيدينا من شىء ، فقال : « اللهم إنك قد عرفت حالهم، وأن ليست بهم قوة ؛ وأن ليس بيدى شىء أعطيهم إياه ، فافتح عليهم أعظم حصونها عنهم غناء ، وأكثرها طعاماً وودكا » ، فغدا الناس ، ففتح الله ـ عز وجل ـ حصن الصعب بن معاذ ، وما بخيبر حصن كان أكثر طعاماً وودكاً منه [1].

ولما ندب النبى ﷺ المسلمين بعد دعائه لمهاجمة هذا الحصن كان بنو أسلم هم المقاديم فى المهاجمة ، ودار البراز والقتال أمام الحصن ، ثم فتح الحصن فى ذلك اليوم قبل أن تغرب الشمس ، ووجد فيه المسلمون بعض المنجنيقات والدبابات .

ولأجل هذه المجاعة الشديدة التى ورد ذكرها فى رواية ابن إسحاق كان رجال من الجيش قد ذبحوا الحمير ، ونصبوا القدور على النيران ، فلما علم رسول الله ﷺ بذلك نهى عن لحوم الحمر الإنسية .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٣٢ .

فتح قلعة الزبير :

وبعد فتح حصن ناعم والصعب ، تحول اليهود من كل حصون النطاة إلى قلعة الزبير وهو حصن منيع فى رأس قُلَّة [1] ، لا تقدر عليه الخيل والرجال لصعوبته وامتناعه ، ففرض عليه رسول الله ﷺ الحصار ، وأقام محاصرا ثلاثة أيام ، فجاء رجل من اليهود . وقال : يا أبا القاسم ، إنك لو أقمت شهراً ما بالوا إن لهم شراباً وعيوناً تحت الأرض ، يخرجون بالليل ويشربون منها ، ثم يرجعون إلى قلعتهم فيمتنعون منك ، فإن قطعت مشربهم عليهم أصحروا لك [2] ، فقطع ماءهم عليهم ، فخرجوا فقاتلوا أشد القتال ، قتل فيه نفر من المسلمين ، وأصيب نحو العشرة من اليهود ، وافتتحه رسول الله ﷺ .

فتح قلعة أبى :

وبعد فتح قلعة الزبير انتقل اليهود إلى قلعة أبى وتحصنوا فيها ، وفرض المسلمون عليهم الحصار ، وقام بَطَلان من اليهود واحد بعد الآخر بطلب المبارزة ، وقد قتلهما أبطال المسلمين ، وكان الذى قتل المبارز الثانى هو البطل المشهور أبو دجانة سماك بن خرشة الأنصارى صاحب العصابة الحمراء ، وقد أسرع أبو دجانة بعد قتله إلى اقتحام القلعة واقتحم معه الجيش الإسلامى ، وجرى قتال مرير ساعة دخول الحصن ، ثم تسلل اليهود من القلعة وتحولوا إلى حصن النزار آخر حصن من الشطر الأول .

فتح حصن النزار :

كان هذا الحصن أمنع حصون هذا الشطر ، وكان اليهود على ثقة بأن المسلمين لا يستطيعون اقتحام هذه القلعة ، وإن بذلوا قصارى جهدهم فى هذا السبيل ؛ ولذلك أقاموا فى هذه القلعة مع الذرارى والنساء بينما كانوا قد أخلوا منها القلاع السابقة ، وفرض المسلمون على هذا الحصن أشد الحصار ، وصاروا يضغطون عليهم بعنف ، ولكون الحصن يقع على جبل مرتفع منيع لم يكونوا يجدون سبيلاً للاقتحام فيه ، أما اليهود فلم يجترئوا للخروج من الحصن ، للاشتباك مع قوات المسلمين ، لكنهم قاوموا المسلمين مقاومة عنيدة برشق النبال ،

---

(١) القُلَّة : قمة الجبل .

(٢) أصحروا : خرجوا إلى الصحراء .

وبإلقاء الحجارة ، وعندما استعصى حصن النزار على قوات المسلمين أمر النبى ﷺ بنصب آلات المنجنيق ، ويبدو أن المسلمين قذفوا به القذائف فأوقعوا الخلل فى جدران الحصن واقتحموه ، ودار قتال مرير فى داخل الحصن انهزم أمامه اليهود هزيمة منكرة، وذلك لأنهم لم يتمكنوا من التسلل من هذا الحصن كما تسللوا من الحصون الأخرى ، بل فروا من هذا الحصن تاركين للمسلمين نساءهم وذراريهم . وبعد فتح هذا الحصن المنيع تم فتح الشطر الأول من خيبر، وهى ناحية النطاة والشق ، وكانت فى هذه الناحية حصون صغيرة أخرى إلا أن اليهود بمجرد فتح هذا الحصن المنيع أخلوا هذا الحصن وهربوا إلى الشطر الثانى من بلدة خيبر .

فتح الشطر الثانى من خيبر :

ولما أتم رسول الله ﷺ فتح ناحية النطاة والشق ، تحول رسول الله ﷺ إلى أهل الكتيبة والتى بها حصن القموص ـ حصن بنى أبى الحقيق من بنى النضير ـ وحصن الوطيح والسُّلالم ، وجاءهم كل فل كان انهزم من النطاة والشق ، وتحصن هؤلاء أشد التحصن .

واختلف أهل المغازى : هل جرى هناك قتال فى أى حصن من حصونها الثلاثة أم لا ؟ فسياق ابن إسحاق صريح فى جريان القتال لفتح حصن القموص ، بل يؤخذ من سياقه : أن هذا الحصن تم فتحه بالقتال فقط من غير أن يجرى هناك مفاوضات للاستسلام ، أما الواقدى فيصرح تمام التصريح : أن قلاع هذا الشطر الثلاث إنما أخذت بعد المفاوضة ، ويمكن أن تكون المفاوضة قد جرت لاستلام حصن القموص بعد إدارة القتال ، وأما الحصنان الآخران فقد سلما إلى المسلمين دونما قتال ، ومهما كان ، فلما أتى رسول الله ﷺ إلى هذه الناحية ـ الكتيبة ـ فرض على أهلها أشد الحصار ، ودام الحصار أربعة عشر يوما واليهود لا يخرجون من حصونهم ، حتى همَّ رسول الله ﷺ أن ينصب عليهم المنجنيق ، فلما أيقنوا بالهلكة سألوا رسول الله ﷺ الصلح .

المفاوضة :

وأرسل ابن أبى الحقيق إلى رسول الله ﷺ : انزل أكلمك ؟ قال : « نعم » فنزل ، وصالح على حقن دماء من فى حصونهم من المقاتلة وترك الذرية لهم ، ويخرجون من خيبر وأرضها بذراريهم ، ويخلون بين رسول الله ﷺ وبين ما كان لهم من مالٍ وأرض وعلى الصفراء والبيضاء ـ أى الذهب والفضة ـ والكراع

والحلقة إلا ثوباً على ظهر إنسان ، فقال رسول الله ﷺ: « وبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله إن كتمتمونى شيئاً » ، فصالحوه على ذلك وبعد هذه المصالحة تم تسليم الحصون إلى المسلمين ، وبذلك تم فتح خيبر .

قتل ابن أبى الحقيق لنقض العهد :

وعلى رغم هذه المعاهدة غيَّب ابنا أبى الحقيق مالاً كثيراً ، غيبا مسكاً فيه مال وحلى لحيى بن أخطب ، كان احتمله معه إلى خيبر حين أجليت النضير .

قال ابن إسحاق : وأتى رسول الله ﷺ بكنانة بن الربيع، وكان عنده كنز بنى النضير فسأله عنه، فجحد أن يكون يعرف مكانه ، فأتى رجل من اليهود فقال : إنى رأيته يطيف بهذه الخربة كل غداة. فقال رسول الله ﷺ لكنانة : « أرأيت إن وجدناه عندك أأقتلك ؟ »، قال : نعم ، فأمر بالخربة فحفرت ، فأخرج منها بعض كنزهم ، ثم سأله عما بقى منه فأبى أن يؤديه ، فدفعه إلى الزبير ، وقال: « عذبه حتى نستأصل ما عنده » ، فكان الزبير يقدح بزند فى صدره حتى أشرف على نفسه ، ثم دفعه رسول الله ﷺ إلى محمد بن سلمة فضرب عنقه بمحمود بن سلمة[1] .

قسمة الغنائم :

وأراد رسول الله ﷺ أن يجلى اليهود عن خيبر فقالوا : يا محمد ، دعنا نكون فى هذه الأرض نصلحها ، ونقوم عليها ، فنحن أعلم بها منكم ، ولم يكن لرسول الله ﷺ ولا لأصحابه غلمان يقومون عليها ، وكانوا لا يفرغون يقومون عليها ، فأعطاهم خيبر على أن لهم الشطر من كل زرع، ومن كل ثمر ما بدا لرسول الله ﷺ أن يقرهم، وكان عبد الله بن رواحة يخرصها [2] عليهم ، وقسم أرض خيبر على ستة وثلاثين سهمًا ، جمع كل سهم مائة سهم،فكانت ثلاثة آلاف وستمائة سهم ، فكان لرسول الله ﷺ والمسلمين النصف من ذلك وهو ألف وثمانمائة سهم،لرسول الله ﷺ سهم كسهم أحد المسلمين، وعزل النصف الآخر ، وهو ألف وثمانمائة سهم ، لنوائبه وما يتنزل به من أمور المسلمين ، وإنما قسمت على ألف وثمانمائة سهم ؛ لأنها كانت طعمة من الله لأهل الحديبية من شهد منهم

(١) السيرة لابن هشام ٣/ ٣٥١ .

(٢) يخرصها : يقدرُها .

ومن غاب ، وكانوا ألفا وأربعمائة وكان معهم مائتا فرس ، لكل فرس سهمان ، فقسمت على ألف وثمانمائة سهم ، فصار للفارس ثلاثة أسهم وللراجل سهم واحد .

قتلى الفريقين فى معارك خيبر :

وجملة من استشهد من المسلمين فى معارك خيبر ستة عشر رجلاً ، أربعة من قريش وواحد من أشجع ، وواحد من أسلم ، وواحد من أهل خيبر ، والباقون من الأنصار ، أما قتلى اليهود فعددهم ثلاثة وتسعون قتيلاً .

فدك :

ولما بلغ رسول الله ﷺ إلى خيبر ، بعث محيصة بن مسعود إلى يهود فدك ليدعوهم إلى الإسلام فأبطؤوا عليه ، فلما فتح الله عليه خيبر قذف الرعب فى قلوبهم . فبعثوا إلى رسول الله ﷺ يصالحونه على النصف من فدك بمثل ما صالح عليه أهل خيبر ، فقبل ذلك منهم . فكانت فدك لرسول الله ﷺ خالصة ؛ لأنه لم يوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب .

وادى القرى :

ولما فرغ رسول الله ﷺ من خيبر انصرف إلى وادى القرى ، وكان بها جماعة من يهود وانضاف إليهم جماعة من العرب . فلما نزلوا استقبلتهم يهود بالرمى وهم على تعبئة ، فقتل مِدْعم ـ عبد لرسول الله ﷺ . فقال الناس : هنيئا له الجنة . فقال النبى ﷺ : « كلا والذى نفسى بيده إن الشملة التى أخذها يوم خيبر من الغنائم لم تصبها المقاسم لتشتعل عليه ناراً » .

ثم عبأ رسول الله ﷺ أصحابه للقتال ، وصفَّهم ، ودفع لواءه إلى سعد بن عبادة ، وراية إلى الحباب بن المنذر ، وراية إلى سهل بن حنيف ، وراية إلى عباد ابن بشر ، ثم دعاهم إلى الإسلام فأبوا ، وبرز رجل منهم فبرز إليه الزبير بن العوام فقتله ، ثم برز آخر فقتله ، ثم برز آخر فبرز له على بن أبى طالب رضي الله عنه فقتله ، حتى قتل منهم أحد عشر رجلاً ، كلما قتل منهم رجل دعا من بقى إلى الإسلام . وكانت الصلاة تحضر هذا اليوم فيصلى بأصحابه ، ثم يعود فيدعوهم إلى الإسلام وإلى الله ورسوله ، فقاتلهم حتى أمسوا ، وغدا عليهم فلم ترتفع الشمس قيد

رمح حتى أعطوا ما بأيديهم ، وفتحها عنوة ، وغنمه الله أموالهم وأصابوا أثاثا ومتاعاً كثيراً . وأقام رسول الله ﷺ بوادى القرى أربعة أيام . وقسم على أصحابه ما أصاب بها وترك الأرض والنخل بأيدى اليهود ، وعاملهم عليها [1] كما عامل أهل خيبر .

تيماء :

ولما بلغ يهود تيماء خبر استسلام أهل خيبر ثم فدك ووادى القرى ، لم يبدوا أى مقاومة ضد المسلمين ، بل بعثوا من تلقاء أنفسهم يعرضون الصلح فقبل ذلك منهم رسول الله ﷺ وأقاموا بأموالهم[2]. وكتب لهم بذلك كتاباً وهاك نصه: «هذا كتاب محمد رسول الله لبنى عاديا ، أن لهم الذمة ، وعليهم الجزية ، ولا عداء ولا جلاء ، الليل مد ، والنهار رشد » ، وكتب خالد بن سعيد .

العود إلى المدينة :

ثم أخذ رسول الله ﷺ فى العودة إلى المدينة . وفى مرجعه ذلك سار ليلة ، ثم نام فى آخر الليل ببعض الطريق وقال لبلال : « اكلأ لنا الليل » فغلبت بلالاً عيناه ، وهو مستند إلى راحلته، فلم يستيقظ أحد ، حتى ضربتهم الشمس ، وأول من استيقظ بعد ذلك رسول الله ﷺ ، ثم خرج من ذلك الوادى ، وتقدم ثم صلى الفجر بالناس ، وقيل : إن هذه القصة فى غير هذا السفر[3].

وبعد النظر فى تفصيل معارك خيبر ، يبدو أن رجوع النبى ﷺ كان فى أواخر صفر أو فى ربيع الأول سنة ٧ هـ) [4] .

أمر الأسود الراعى فى حديث خيبر :

قال ابن إسحاق : وكان من حديث الأسود الراعى فيما بلغنى : أنه أتى رسول الله ﷺ وهو محاصر لبعض حصون خيبر ، ومعه غنم له ، كان فيها أجيراً لرجل من يهود فقال : يا رسول الله ﷺ ، اعرض على الإسلام ، فعرضه عليه ، فأسلم ، وكان رسول الله ﷺ لا يحقر أحداً أن يدعوه إلى الإسلام ويعرضه عليه ، فلما أسلم قال : يا رسول الله ، إنى كنت أجيراً لصاحب هذه

---

(١) زاد المعاد ٢/ ١٤٦، ١٤٧ .
(٢) المصدر السابق ٢/ ١٤٧ .
(٣) ابن هشام ٣/ ٣٤٠ ، وزاد المعاد ٢/ ١٤٧ .
(٤) الرحيق المختوم بتصرف من ص ٤١٢ ـ ٤٢٥ .

الغنم، وهى أمانة عندى، فكيف أصنع بها ؟ قال : « اضرب فى وجوهها فإنها سترجع إلى ربها » . أو كما قال ـ فقام الأسود فأخذ حفنة من الحصى ، فرمى بها فى وجوهها ، وقال : ارجعى إلى صاحبك فوالله لا أصحبك أبداً ، فخرجت مجتمعة كأن سائقاً يسوقها حتى دخلت الحصن ، ثم تقدم إلى ذلك الحصن ليقاتل مع المسلمين ، فأصابه حجر فقتله ، وما صلى لله صلاة قط فأتى به رسول الله ﷺ ، فوضع خلقه ، وسُجِّى بشَمْلة كانت عليه ، فالتفت إليه رسول الله ﷺ ، ومعه نفر من أصحابه ، ثم أعرض عنه ، فقالوا : يا رسول الله ، لمَ أعرضت عنه ؟ قال : إن معه الآن زوجتيه من الحور العين .

قال ابن إسحاق : وأخبرنى عبد الله بن أبى نجيح أنه ذكر له : أن الشهيد إذا ما أصيب تدلت له زوجتاه من الحور العين عليه تنفضان التراب عن وجهه ، وتقولان : ترَّب الله وجه من تربّك ، وقتل مَنْ قتلك .

أمر الحجاج بن علاط السلمى :

قال ابن إسحاق : ولما فتحت خيبر كلم رسول الله ﷺ الحجاجُ بن علاط السلمى ثم البَهْزى، فقال: يا رسول الله ، إن لى بمكة مالاً عند صاحبتى أم شيبة بنت أبى طلحة ـ وكانت عنده له منها مُعْرض بن الحجاج ـ مال متفرق فى تجّار أهل مكة ، فأذن لى يا رسول الله ، فأذن له ، قال . إنه لا بد لى يا رسول الله من أن أقول قال : « قل » . قال الحجاج : فخرجتُ حتى إذا قدمت مكة وجدت بثنيّة البيضاء [1] رجالاً من قريش يتسمعون الأخبار ، ويسألون عن أمر رسول الله ﷺ ، وقد بلغهم أنه قد سار إلى خيبر ، وقد عرفوا أنها قرية الحجاز، ريفاً ومنعة ورجالاً فهم يتحسسون الأخبار ويسألون الركبان ، فلما رأونى قالوا : الحجاج بن علاط، قال: ولم يكونوا علموا بإسلامى ، عنده والله الخبر ، أخبرنا يا أبا محمد، فإنه قد بلغنا أن القاطع قد سار إلى خيبر ،وهى بلد يهود ، وريف الحجاز، قلت : قد بلغنى ذلك وعندى من الخبر ما يسركم، قال : فالتبطوا بجنبى ناقتى[2] يقولون: إيه يا حجاج ، قال : قلت : هزم هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط ، وقتل أصحابه قتلاً وأسر محمد أسراً . وقالوا : لا نقتله حتى نبعث به إلى أهل مكة فيقتلوه بين أظهرهم ممن كان أصاب من رجالهم، قال : فقاموا وصاحوا بمكة

(١) ثنية البيضاء : هى ثنية التنعيم فى مكة . (٢) التبطوا بجنبى ناقتى : مشوا إلى جنبها ملازمين لها .

وقالوا : قد جاءكم الخبر ، وهذا محمد إنما تنظرون أن يقدم به عليكم فيقتل بين أظهركم . قال : قلت : أعينونى على جمع مالى بمكة وعلى غرمائى فإنى أريد أن أقدم خيبر ، فأصيب من فل [1] محمد وأصحابه قبل أن يسبقنى التجار إلى هناك .

قال : فقاموا فجمعوا مالى كله كأحث[2] جمع سمعت به قال : وجئت صاحبتى فقلت : مالى ـ وقد كان لى عندها مال موضوع ـ لعلى ألحق بخيبر فأصيب من فرص البيع قبل أن يسبقنى التجار ؟ قال : فلما سمع العباس بن عبد المطلب ، وجاءه عنى ، أقبل حتى وقف إلى جنبى وأنا فى خيمة من خيام التجار فقال : يا حجاج ، ما هذا الخبر الذى جئت به ؟ قال : فقلت : وهل عندك حفظ لما وضعت عندك ؟ قال: نعم. قلت : فاستأخر عنى حتى ألقاك على خلاء. فإنى فى جمع مالى كما ترى ، فانصرف عنى حتى أفرُغ . حتى إذا فرغت من جمع كل شىء كان لى بمكة ، وأجمعت الخروج لقيت العباس ، فقلت : احفظ علىّ حديثى يا أبا الفضل ، فإنى أخشى الطلب ثلاثاً ثم قل ما شئت قال: أفعل ، قلت: فإنى والله تركت ابن أخيك عروساً على بنت ملكهم ـ يعنى صفية بنت حيى ـ ولقد افتتح خيبر، وانتثل[3] ما فيها وصارت له ولأصحابه، فقال: ما تقول يا حجاج ؟ قلت: إى والله فاكتم عنى ، ولقد أسلمت وما جئت إلا لآخذ مالى، فَرَقاً من أن أغلب عليه ، فإذا مضت ثلاثاً فاظهر أمرك فهو والله على ما تحب ، قال : حتى إذا كان اليوم الثالث لبس العباس حلة له وتخلق[4] وأخذ عصاه ثم خرج حتى أتى الكعبة فطاف بها ، فلما رأوه قالوا : يا أبا الفضل ، هذا والله التجلد لحرِّ المصيبة ، قال : كلا والله الذى حلفتم به ، لقد افتتح محمد خيبر وتُرك عروساً على بنت ملكهم ، وأحرز أموالهم وما فيها ، فأصبحت له ولأصحابه ، قالوا : من جاءك بهذا الخبر ؟ قال : الذى جاءكم بما جاءكم به، ولقد دخل عليكم مسلماً فأخذ ماله فانطلق ليلحق بمحمد وأصحابه فيكون معه ، قالوا : يا لعباد الله ! انفلت عدو الله ، أما والله لو علمنا لكان لنا وله شأن ، قال : ولم ينشبوا أن جاءهم الخبر بذلك [5] .

---

(١) فل محمد . القوم المنهزمون معه .
(٢) كأحث : كأسرع .
(٣) انتثل : استخرج .
(٤) تخلّق : تطيّب بالخلوق وهو نوع من الطيب .
(٥) السيره لابن هشام ٢/ ٣٤٥ ـ ٣٤٧ .

خرص ابن رواحة ثم جبار على أهل خيبر :

قال ابن إسحاق : فكان رسول الله ﷺ ـ كما حدثنى عبد الله بن أبى بكر ـ يبعث إلى أهل خيبر عبد الله بن رواحة خارصاً بين المسلمين ويهود فيخرص عليهم، فإذا قالوا : تعديت علينا قال : إن شئتم فلكم ، وإن شئتم فلنا ، فتقول يهود : بهذا قامت السموات والأرض . وإنما خرص عليهم عبد الله بن رواحة عاماً واحداً ، ثم أصيب بمؤتة يرحمه الله ، فكان جبار بن صخر أخو بنى سلمة هو الذى يخرص عليهم بعد عبد الله بن رواحة ، فأقامت يهود على ذلك لا يرى بهم المسلمون بأسا فى معاملتهم حتى عدوا فى عهد رسول الله ﷺ على عبد الله ابن سهل أخى بن حارثة فاتهمهم رسول الله ﷺ والمسلمون عليه .

إجلاء اليهود عن خيبر أيام عمر :

قال ابن إسحاق : وسألت ابن شهاب الزهرى كيف كان إعطاء رسول الله ﷺ يهود خيبر نخلهم ، حين أعطاهم النخل على خرجها ، أبتّ ذلك لهم حتى قبض، أم أعطاهم إياها لضرورة من غير ذلك، فأخبرنى ابن شهاب: أن رسول الله ﷺ افتتح خيبر عنوة بعد القتال وكانت خيبر مما أفاء الله عز وجل على رسول الله ﷺ ، وقسمها بين المسلمين ، ونزل من نزل من أهلها على الجلاء بعد القتال ، فدعاهم رسول الله ﷺ ، فقال : « إن شئتم دفعت إليكم هذه الأموال على أن تعملوها وتكون ثمارها بيننا وبينكم ؛ وأقرّكم ما أقركم الله » ، فقبلوا فكانوا على ذلك يعملونها ، وكان رسول الله ﷺ يبعث عبد الله بن رواحة فيقسم ثمرها ، ويعدل عليهم فى الخرص ، فلما توفّى الله نبيه ﷺ ، أقرها أبو بكر رضي الله عنه ، بعد رسول الله ﷺ بأيديهم على المعاملة التى عاملهم عليها رسول الله حتى توفى، ثم أقرها عمر رضي الله عنه صدراً من إمارته ، ثم بلغ عمر أن رسول الله ﷺ قال فى وجعه الذى قبضه الله فيه : « لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان » ، ففحص عمر عن ذلك حتى بلغه الثبت ، فأرسل إلى يهود ، فقال : إن الله عز وجل قد آذن فى جلائكم، قد بلغنى أن رسول الله ﷺ قال: « لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان »، فمن كان عنده عهد من رسول الله ﷺ من اليهود فليأتنى به ، أنفذه له ، ومن لم يكن عنده عهد من رسول الله ﷺ من اليهود فليتجهز للجلاء . فأجلى عمر من لم يكن عنده عهد من رسول الله ﷺ منهم [1] .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٣٥٦ .

من شهد خيبر من النساء :

وشهد خيبر عشرون امرأة منهن أم المؤمنين أم سلمة، وصفية بنت عبد المطلب، وأم أيمن وسلمى امرأة أبى رافع مولاة النبى ﷺ ، وامرأة عاصم بن عدى ، وأم عمارة وأم منيع ، وكعيبة بنت سعد ، وأم مطاع الأسلمية ، وأم سليم بنت ملحان، وأم الضحاك بنت مسعود، وهند بنت عمرو بن حرام، وأم عامر الأشهلية، وأم عطية الأنصارية، وأم سليط ، وأمية بنت قيس الغفارية (١) .

* * *

١ ـ لم يمض على موعود الله لجند الحديبية أكثر من شهرين بالفتح القريب والمغانم الكثيرة ، حتى كانت حصون خيبر بما تحوى من خيرات بين يدى المسلمين، وشاء قدر الله ألا يشارك مع أهل الحديبية أحد معهم فى خيبر، اللهم إلا بعض النساء، والوفود القادمة من اليمن والحبشة .

ولقد بلغ من جهد المسلمين وجوعهم وفاقتهم فى هذه المعركة أن ذبحوا الحمر الأهلية، ونصبوا القدور على النيران، وجاء منادى رسول الله ﷺ: إن رسول الله ينهاكم عن أكل لحوم الحمر الأهلية .

(قال ابن إسحاق : فحدثنى عبد الله بن عمرو بن ضمرة عن عبد الله بن أبى سليط عن أبيه قال : أتانا نهى رسول الله ﷺ عن أكل لحوم الحمر الأنسية ، والقدور تفور بها فكفأناها على وجوهها) (٢) .

وإنها لتجربة قاسية ولا شك ، وفريدة كذلك أن المسلمين قد عض الجوع بنابهم وليس لديهم ما يأكلون حتى التمر لا يجدونه، وهم مكلفون بخوض حرب طاحنة مع اليهود وليسوا مسترخين نائمين فى المعسكر، وذبحوا الحمر وطهوها ، وسال لعابهم عليهم ، والقدور تفور باللحم الطازج ، ثم يأتى الأمر النبوى بالنهى عن أكل لحوم الحمر ، فما يترددون لحظة واحدة ، أو يشكلون استعصاء مسلحاً ، أو يشكلون فراراً من الجيش والمعركة أو يتموا هذه الوجبة وينتهوا بعد ذلك ، أو ينهشوا نهشة واحدة تقيم أودهم لم يفعلوا ذلك كله، إنما كفؤوا القدور باللحم، واستجابوا لأمر الله ورسوله. وهو درس حى ولا شك فى الالتزام والانضباط

(١) إمتاع الأسماع ١/ ٣٢٦، ٣٢٧ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٣١ .

بالأوامر بالعسر واليسر والمنشط والمكره ، وأن يكون الجندى المسلم خارجا من سلطان بطنه ، وهو على أشد ما يكون من الجوع ، وهو مكلف بخوض معركة ، هو مستوى رفيع جدا ، حين نرقى إليه نرقى معه إلى مستوى نصر الله .

وكان بالإمكان أن ينهى رسول الله ﷺ عن أكل لحوم الحمر الآهلية قبل ذبحها ، أو بعد ذبحها ، وقبل العناء بطهيها وجمع الحطب ونفخ النار تحتها، لكن حتى تكون التجربة فى أعمق أبعادها شاءت إرادة الله تعالى أن يكون النهى والقدور تغلى بلحوم الحمر، حتى يكشف الالتزام فى أصعب أحواله ، والذى يلتزم فى هذا الظرف قادر على الالتزام بما هو أدنى منه .

وشىء آخر لا يقل صعوبة ومرارة عنه ، هذا الشىء هو حفظ الفرج عن الحرام، فلقد مضى المسلمون لخيبر، والمتعة حلال لهم ، ولم يشهد المسلمون بعداً عن نسائهم كما شهدوه فى خيبر. لقد استمرت المعركة شهرين قاسيين، فكان لابد من تلبية داعى الجنس الحلال من خلال الاستمتاع المؤقت بالنساء، وكان النهى عن نكاح المتعة كذلك فى هذه المناسبة، ولم يكن النهى وهم بجواز نسائهم فى المدينة، ولم يكن النهى مجرد وصولهم إلى خيبر ، لقد كان النهى فى أصعب مظانه ، فى قلب المعركة، وبعد الغياب الطويل عن الزوجات، وحيث الإمكانات المتاحة للمتعة، ولم يكن النهى منصبا فقط عن نكاح المتعة فى علاج حفظ الفروج والانضباط فيه، بل كان من أمور عدة يحدثنا عنها رويفع بن ثابت الأنصارى رضي الله عنه وقد قام خطيباً فى المسلمين بعد أن افتتح قرية من قرى المغرب فقال :

(يا أيها الناس إنى لا أقول فيكم إلا ما سمعت من رسول الله ﷺ يقوله فينا يوم خيبر قام فينا رسول الله ﷺ فقال : « لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقى ماءه زرع غيره ـ يعنى إتيان الحبالى من السبايا ـ ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يصيب امرأة من السبى حتى يستبرئها ، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيع مغنماً حتى يقسم ، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يركب دابة من فىء المسلمين حتى إذا أعجفها ردَّها فيه ، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يلبس ثوباً من فىء المسلمين حتى إذا أخلقه ردَّه فيه ») [1] .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٣١ .

إنها أمور تمس ثلاث شهوات ، هى من أعمق ما تحمله النفس البشرية من شهوات :

شهوة الجوع التى يتشدق الماديون فيها ، حتى ليبيحوا من أجلها الأعراض والسرقة .

وشهوة الجنس التى يعتبرها الماديون جزءاً من تركيب الإنسان وحاجة عضوية فيه .

وشهوة التملك التى يستعبد الناس ويستذلون من أجلها .

ويأتى الأمر النبوى ، وهذه الشهوات على أشد ما تكون يقظة وحاجة وشدة بالامتناع عنها ، فيستجيب الصف المسلم كله ، دون أن تسجل مخالفة إلا مخالفة واحدة سنعرض لها فيما بعد .

ولئن حملت الحديبية إنساناً واحداً تباطأ عن البيعة على الموت ، فلقد شهدت خيبر من أهل الحديبية مخالفة لا تكاد تذكر فى هذه الأمور ، وذلك من خلال ربط هذه الأمور فقط بالإيمان بالله واليوم الآخر .

وأمام هذا الصبر على الجوع ، والصبر على الجنس فى سبيل الله ، والصبر على الغنائم حتى توزع وبعد هذه التجربة القاسية الفريدة ، كان عطاء الله تعالى وفيض رحمته أكبر من كل التوقعات ، وشهدنا دعاء رسول الله ﷺ للأسلميين الذين جاؤوا يشكون لرسول الله ﷺ جوعهم وفاقتهم وكان الدعاء الخالد :

« اللهم إنك عرفت حالهم ، وأن ليست بهم قوة ، وأن ليس بيدى شىء أعطيهم إياه، فافتح عليهم أعظم حصونها عنهم غناءً ، وأكثرها طعاماً وودكا »، فغدا الناس ، ففتح الله عز وجل حصن الصعب بن معاذ وما بخيبر حصن كان أكثر طعاماً وودكاً منه .

ويحدثنا المقريزى عن بعض هذه المغانم فيقول : (واقتحم المسلمون الحصن يقتلون ويأسرون فوجدوا فيه من الشعير والتمر والسمن والعسل والزيت والودك كثيرا ، فنادى منادى رسول الله ﷺ: كلوا واعلفوا ولا تحتملوا ـ يعنى لا تخرجوا به إلى بلادكم ـ فأخذوا من ذلك الحصن طعامهم وعلف دوابهم ولم يمنع

أحد من شيء ولم يخمّس ، ووجدوا بزا فى عشرين عكيماً [١] محزومة من متاع اليمن ، ووجدوا خوابى سكَر ، فأمر بالسكَر[٢] فكسر فى خوابيه[٣] ، ووجدوا آنية من نحاس وفخار كانت يهود تأكل فيها وتشرب فقال ـ عليه السلام: « اغسلوها واطبخوا وكلوا فيها، واشربوا ، وأخرجوا منها غنماً وبقراً وحمراً، وآلة حرب ، ومنجنيقاً ودبابات ، وعُدةً ، وخمسمائة قطيفة . . . ») [٤] .

وهذا هو الصف الذى كتب الله تعالى له النصر فى خيبر بالتزامه وانضباطه بالقليل والكبير ، ونحن بحاجة لهذا الصف الذى يلتزم بالأوامر من منطلق الإيمان قبل التزامه من منطلق الخوف والسلطة .

٢ ـ أما الحديث عن المخالفات فهو عجيب حقاً . نستمع إلى النماذج التى حدثت فى هذه الغزوة: (وشرب الخمر رجل من المسلمين يقال له: عبد الله بن الحمار ، فخفقه رسول الله بنعليه، وأمر من حضروه فخفقوه بنعالهم، ولعنه عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ، فقال ﷺ : « لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله » . ثم راح عبد الله كأنه أحدهم فجلس معهم)[٥] .

(ونادى منادى رسول الله ﷺ : أدوا الخياط [٦] والمخيط [٧] فإن الغلول عار وشنار ونار يوم القيامة ، فعصب فروة رأسه بعصابة ليستظل بها من الشمس فقال رسول الله ﷺ: « عصابة من نار عصبت بها رأسك » فطرحها . . . وتوفى رجل من أشجع فلم يصلِّ عليه وقال: « إن صاحبكم غل[٨] فى سبيل الله »، فوجد فى متاعه خرز لا يساوى درهمين) [٩].

نذكر هذه الهنات ونذكر معها مثلاً آخر مما وقع بين يدى المسلمين وكانوا قادرين على الغلول فيه :

(قال ابن وهب : قلت لمالك : وما الكتيبة ؟ قال : من أرض خيبر وهى أربعون ألف عذق فوجد خمسمائة قوس عربية ، ومائة درع ، وأربعمائة سيف ، وألف رمح) [١٠] .

---

(١) العكم : ثوب يبسط ويوضع فيه المتاع .
(٢) السكر : ما يسكر به من الخمر .
(٣) الخابية : الوعاء الكبير .
(٤) إمتاع الأسماع ١/ ٣١٨، ٣١٩ .
(٥) المصدر نفسه ١/ ٣١٩ .
(٦) الخياط : الخيط .
(٧) المخيط : الإبرة يخاط بها .
(٨) غلّ من الغنم : خان وسرق .
(٩) إمتاع الأسماع ١/ ٣٢٣ .
(١٠) المصدر نفسه ١/ ٣١٩، ٣٢٠ .

وفى مكان آخر : (وصالح كنانة بن أبى الحقيق رسول الله ﷺ على أهل الكتيبة فأمَّن الرجال والذرية ، ودفعوا إليه الأموال والذهب والفضة والحلقة والثياب إلا ثوباً على إنسان بعد ما حصرهم أربعة عشر يوماً)[1] .

فى هذه الغنائم الكثيرة المثقلة من المال والمتاع والسلاح والطعام ، وجد من أخذ خرزاً لا يساوى درهمين ، ومن عصب رأسه بعصابة ، وكان الجزاء الصارم أن قيل لصاحب العصابة : « عصابة من نار تعصب بها رأسك »[2] . ولم يصَلِّ على الثانى لهذا الغلول .

أمر لا يعرفه تاريخ الأمم والحروب فى الدنيا إلا لدى الصف المسلم .

ومخالفة ثالثة أن يوجد بين الألف والأربعمائة إنسان، رجل لم يملك نفسه أمام خوابى الخمر وهى تكسر ، فشرب الخمر فى لحظة ضعف ، وكانت العقوبة الصارمة أن خفقه رسول الله ﷺ بنعليه ، وخفقه المسلمون بنعالهم ، فتلقى العقوبة بصدر رحب ، ولم يمض ليبيت ليلاً اغتيال رسول الله ﷺ وصحبه لهذه الإهانة بل أنهى العقوبة وراح يمزح ويضحك مع المسلمين ، بل رفض رسول الله ﷺ لعنه، وقال عنه، وهو يتلقى عقوبة المعصية : « إنه يحب الله ورسوله » .

فليست مهمة العقوبة أن تسلخ الجندى من الصف،وتحوله إلى حاقد موتور، بل مهمتها تطهيره من الذنب ليغدو أهلاً للجندية فى هذا الصف المسلم ، واللعن يرفض ؛ لأنه عقوبة فوق العقوبة ، بل الثناء عليه ليبقى بقلبه الحى المؤمن لا صقاً بالصف ملتحماً فيه .

وما أحوج صفنا وجنودنا إلى هذه المستويات حيث يتقبل الأخ المسلم العقوبة بصدر رحب ، وحيث يفقه إخوانه فلسفة العقوبة لا لطرده وتحطيم نفسيته ، بل لتطهيره وضمه جندياً فى الصف بريئاً من الذنب .

هذا هو الصف المسلم الذى انتصر بخيبر على اليهود ، ويكفى هذا الوصف، لنتعرف على الصف العربى الذى لا يزال يحارب اليهود ثلث قرن ويتلقى الهزائم المتكررة :

---

(١) إمتاع الأسماع ١/ ٣١٩ .

(٢) يحسن أن نذكر أن صاحب العصابة هو المسؤول عن حفظ الغنائم وتوزيعها ، ولشدة عمله وصعوبته استظل بالعصابة من حر الشمس .

نذكر ذلك الصف فى خيبر ، حيث يخفق شارب الخمر بالنعال ، والصف العربى الذى قال عنه مدير مخابرات العدو : سوف أهزم العرب بما يحرمه عليهم دين محمد ، بالخمر والنساء .

وفعلاً هزم الصف بالمعصية ، إذ كان الطيارون ليلة الخامس من حزيران فى عربدة مع الخمر والنساء ، وعلى رأسهم العقداء والألوية والفريق الأول قائد سلاح الطيران وذلك حتى الفجر.

وبهذه المقارنات ندرك من ذلك الجيش،ومن هذا الجيش ؟! وفيه الغنى عن أى تعليق.

٣ ـ وبقيت مخالفة أرجأتُها للمقارنة مع صورة مقابلة ، نلحظ من تلك المقارنة كيف يكون الحكم على الأشخاص لأن صف الحركة الإسلامية يستهجن وجود نوعيات انتهازية فيه:

(قال ابن إسحاق : فحدثنى ثور بن زيد بن سالم عن أبى هريرة قال : فلما انصرفنا مع رسول الله ﷺ عن خيبر إلى وادى القرى ونزلنا بها أصيلاً مع مغرب الشمس ، ومع رسول الله ﷺ غلام له ، أهداه له رفاعة بن زيد ، فوالله إنه ليضع رحل رسول الله ﷺ إذ أتاه سهم غرب[١] فأصابه فقتله ، فقلنا : هنيئاً له الجنة ، فقال رسول الله ﷺ : « كلا والذى نفس محمد بيده إن شملته[٢] الآن لتحترق عليه فى النار ، كان غلها من فىء المسلمين يوم خيبر » . فسمعها رجل من أصحاب رسول الله ﷺ فأتاه فقال: يا رسول الله، أصبت شراكين لنعلين لى ، قال : فقال : « يقدٌّ [٣] لك مثلهما فى النار » .

نضع هذا الغلام الذى رآه الناس من أهل الجنة وهو يعيش فى الصف المسلم منذ فترة غير قليلة ، ثم أصبح من خواص رسول الله ﷺ وخدمه مع الغلام الآخر، الأسود الراعى الذى قصَّ لنا ابن إسحاق خبره حين قال : يا رسول الله، اعرض علىَّ الإسلام فعرضه عليه ، فأسلم ، وكان رسول الله لا يحقر أحداً أن يدعوه إلى الإسلام ، ويعرضه عليه ، فلما أسلم قال : يا رسول الله إنى كنت

---

(١) سهم غرب : سهم طائش .
(٢) الشملة : كساء غليظ يلتحف به .
(٣) يقدُّ : يُقطع .

أجيراً لصاحب هذه الغنم وهى أمانة عندى ، فكيف أصنع بها ؟ قال : « اضرب فى وجوهها فإنها سترجع إلى ربها » . فقام الأسود ، فأخذ حفنة من الحصى ، فرمى بها فى وجوهها ، وقال : ارجعى إلى صاحبك ، فوالله لا أصحبك أبدا ، فخرجت مجتمعة كأن سائقاً يسوقها حتى دخلت الحصن ، ثم تقدم إلى ذلك الحصن ليقاتل مع المسلمين فأصابه حجر فقتله ، وما صلى لله صلاة قط ، فأتِىَ به رسول الله ﷺ فوضع خلفه، وسجىَّ بشملة كانت عليه ، فالتفت إليه رسول الله ﷺ ومعه نفر من أصحابه ثم أعرض عنه فقالوا: يا رسول الله، لم أعرضت عنه ؟ فقال : « إن معه الآن زوجتيه من الحور العين ») (١) .

صورتان متقابلتان عجيبتان لغلامين فى الصف المسلم ، ونهايتان أغرب وأعجب .

غلام رسول الله ﷺ ويقتل بين يديه ، ويهنأ بالجنة على ظاهر الأمر ، وغلام يهودى لم يصل لله صلاة قط ، ويقتل على باب الحصن الذى خرج منه . والشملة التى غلَّها غلام رسول الله ﷺ وهى خيانة كانت كفيلة أن تشتعل عليه فى النار ، ويحرم من الجنة ، ولم يشفع له خدمته لرسول الله ، وماضيه السابق فى الصف المسلم ، وأمانة الغلام اليهودى تحولت كرامة له بحفنة من حصباء فى وجه الغنم يقول لها : فوالله لا أصحبك أبداً ، ويدخل فى الإسلام طاهراً من يهوديته ومن ذنوبه بهذه الأمانة العظيمة ، وما هى إلا ساعة حتى يغدو الغلام اليهودى قتيلاً ، فتتدلى له زوجتاه من الحور العين تحفانه إلى الجنة .

يا شباب دعوة الإسلام :

ليكن هذا الدرس حيا فى نفوسكم ، فالخطيئة الصغيرة تؤدى إلى النار ولو كانت شملة من غنيمة لا يؤبه لها،ولا يشفع معها قدم فى الدعوة أو ماضٍ فى الجهاد أو موقع فى التنظيم.

والاستقامة على المنهج ولو كانت من أعدى أعدائكم لحظة واحدة كفيلة بالشهادة فى سبيل الله لا يحول دونها حرب عنيفة للإسلام ، أو تحتاج إلى رصيد من الطاعة والعبادة . بل النية الصادقة والتصميم على الاستقامة تكفى فى ميزان الله لدخول الجنة .

---

(١) السيرة لابن هشام ٢/ ٣٤٤ ، ٣٤٥ .

ودعوا عنكم المظاهر ، فالله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأعمالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم.

وآن لقيادة الحركة الإسلامية ألا تغالى فى الحكم على الأشخاص وبخاصة أبناؤها من خلال القدم التنظيمى، فترفع هذا الجندى إلى المستوى الأعلى عندها بغض النظر عن سلوكه وتربيته.

وآن لشباب الحركة الإسلامية ألا يغالوا فى المكابرة بمن يأتيهم صادقاً إلى الصف فيحرموه من كل ثقة ؛ لأنه لم يمر عليه قدم تنظيمى فى الجماعة .

فقد يكون ذلك الأخ النقيب من أهل النار ، وقد يكون هذا الجندى الجديد الذى لا تزال آثار حربه للإسلام بادية عليه من أهل الجنة .

ولتأخذ التربية الحقة دورها فى الصف المسلم وليكفكف الشباب المسلم من غلوائه فى قضية الثقة بالمنتسبين الجدد إلى الصف ، وليبق فى ذهنهم :

غلام رسول الله ﷺ وخيانته التى أودت به إلى النار .

والغلام اليهودى الذى لم يسجد لله سجدة وأمانته التى افتتح بها إسلامه فقادته إلى الجنة .

وليكفكف الشباب المسلم من غلوائه كذلك فيستبيح كل صور الغنيمة من العدو إذا ارتبطت بلوثة مع الإسلام وشباب الإسلام ، إذ رفض رسول الله ﷺ أخذ غنم اليهودى ؛ لأنه أمانة فى عنق الغلام الراعى .

٤ ـ وحين نتناول هذه السمة بمظاهرها العامة سمة إنهاء الوجود اليهودى من جزيرة العرب ، وقد عرضنا للصف المسلم وأمانته بينما استحق الصف اليهودى أن تحق عليه لعنة الله وغضبه بعد أن خان الأمانة ، لا يغيب عن البال غدر كنانة بن أبى الحقيق والذى خان رسول الله ، وأخفى ما لديه من ثروة مع أنه هُدِّد بالقتل إن أخفى شيئاً من ذلك ، ثم قتل عقوبة له على غدره . لا ننسى أن الصف الداخلى لليهود قد تمزق ومضى بعض أفراده ليدلّ المسلمين على ثغرات الحصون وثروتها ، وما كان ذلك ليقع لولا أن هؤلاء اليهود قد كفروا بقيادتهم فراحوا يتطوعون بإعطاء الأسرار للجيش المسلم دون مقابل ، بل ساهم بعضهم بكشف خيانة كنانة بن أبى الحقيق حين رآه يتردد على خربة له وقد أخفى فيها ثروة يهود.

ونلحظ معه كذلك المحاولات الإجرامية للاعتداء على المسلمين ونقض العهود حين يتاح لهم ذلك ، حيث قتلوا عبد الله بن سهل حين أمنوا إخفاء الجريمة ، وحاولوا اغتيال رسول الله ﷺ بوضع السم فى الشاة التى أهدوها لرسول الله ومات على أثرها بشر بن البراء بن معرور رضي الله عنه واستحقوا هذه الهزيمة .

وحين يكون الصف المسلم بمثل هذه المواصفات فستقع عليه العقوبة ويحال بينه وبين النصر .

٥ ـ لكن هذه الأمور على مستوى الصف لا تعفى الصف من تقديم التضحيات المناسبة واللازمة ، فلقد عانى المسلمون من الجهد فى هذه المعركة ما لم يعانوه فى معركة سابقة ، فالخندق أطول معاركهم استمرت عشرين يوماً أو تزيد، وهم فى بيوتهم وبلدهم وحصونهم، بينما نراهم هنا ، ولا يملكون من الطعام حتى التمر ، وهم فى أشد الحاجة يصبرون قرابة شهرين على الحرب ، فلم تتم نهاية اليهود بهذه السهولة ، ولقد دافع اليهود دفاع المستميت عن وجودهم وحصونهم ، وقاتلوا وصبروا ، لكن المؤمنين كانوا أصبر الفريقين ، وأشجع الفرقتين وما بذله أبطال المسلمين من بسالة وبذل فى النفس والنفيس ، فاق تصورات العدو، وكان البذل مشتركاً من الفريقين المهاجرين والأنصار .

فعلى بن أبى طالب والزبير بن العوام وعمر بن الخطاب فى المبارزات الفردية، وكذلك الحباب بن المنذر ومحمد بن سلمة وأبو دجانة سماك بن خرشة، حطم كل البطولات الفردية عند اليهود الذين كانوا يحسبون كل بطل من أبطالهم بألف رجل .

والقتال العام الذى كان يستمر أياما ، فيضطر اليهود للانسحاب والتراجع ، وقد شارك فيه الجيش كله بلا استثناء ، يعنى أن المعركة لم يبخل المسلمون عنها بشىء من أرواحهم ودمائهم ، وهى أطول معركة عجم فيها عودهم ، واختبر فيها صبرهم فكانوا على مستوى المعركة .

٦ ـ وتبدو ضراوة المعركة وضخامتها حين نتصور المعركة مع المتحصنين فى القلاع والحصون من اليهود ، وكما وصف القرآن اليهود : ﴿ **لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى** ﴾

[الحشر : ١٤]

وكل هذه الحصون والقلاع لم تفل من عزيمة المسلمين ، ولم توهن من مقاومتهم ، وهذه طبيعة اليهود اليوم ، كذلك فمن وراء دباباتهم ومتاريسهم وتحصيناتهم يقاتلون المسلمين اليوم ، لكن مسلمى اليوم سرعان ما انكشفوا أمام تلك التحصينات وكم أبيد من الألوية العربية فى الحروب أمام حصون اليهود .

وحين نقارن بين حرب الخامس من حزيران وبين فتح خيبر ، فليست مقارنة عرضية ، بل هى مقارنة حقيقية ، فلقد أعلن موشى دايان وزير الدفاع الإسرائيلى بعد أن احتل القدس واكتسح بجيشه الأرض العربية فى سورية والأردن ومصر ، قال وقد مس ثرى القدس : هذه بخيبر .

لقد لقى اليهود قبل خمسة عشر قرناً تلك الهزيمة النكراء التى أنهت الوجود اليهودى فى جزيرة العرب ، ولم تنهه لعقد أو عقدين من الزمان أو لقرن أو لقرنين من الزمان ، إنما أنهته لخمسة عشر قرناً من الزمان لم يقم بعدها لليهود قائمة ، ولم يرتفع لهم علم ولم تخفق لهم راية ، إلى أن كان منتصف هذا القرن وقامت دولة إسرائيل فوق ربا فلسطين ، ولم يغب عن ذهن اليهود مرارة خيبر وقد تجرعوا الذل والهوان فيها، وبقى الجيل بعد الجيل يرويها، ويورث سلفهم الحقد لخلفهم ويذكره بالثأر من رسول الله ﷺ ، حتى كانت معركة الخامس من حزيران ، حيث سلّمت الجولان غنيمة باردة لليهود من الخائن العربى الأكبر ، رغم الحصون الضخمة التى فيها ، والتى كانت كفيلة أن تقاوم اليهود بعدة جنود قلائل أشهراً طوالا ، سلمت بدون قتال ، على الجبهة السورية ، وانهارت تحصينات الجولان التى كان يقال عنها : « خط ما جينو » لا بالشجاعة اليهودية ولكن بالخيانة العربية .

لقد كان النصر الإسلامى فى خيبر من القوة والضخامة بحيث أنهى الوجود العسكرى لليهود ، خلال هذه القرون الطوال ، وفى غفلة من الزمن ، وفى غياب لجند الإسلام عن الأرض ، وفى غياب لخلافة الإسلام وحكم الإسلام ـ برز الوجود اليهودى من جديد .

٧ ـ وحين نعالج ذلك الواقع ندرس من خلاله الصيغة التى انتهى يهود إليها أن يكونوا خولاً عند المسلمين وأجراء ، فيخدموا الأرض ولهم نصف الثمر وللمسلمين النصف ، ولقد كانت القيادة النبوية من العظمة ما جعلها فوق أحقاد

اليهود ، وجعل التعامل معهم بصفتهم بشراً ومدنيين غير مقاتلين بحيث لا يستغل جهدهم، ولو كانوا أعداء الله ورسوله، ولا تستنزف طاقاتهم عبيداً كالعبيد ، بل أمكن إيجاد جو من التعايش معهم ، بحيث يشتغلون بأرض المسلمين ولهم نصف الثمر ، والحركة الإسلامية اليوم بحاجة إلى فقه هذا المعنى . فمن أجل الجهاد رفض رسول الله ﷺ أن ينكَبَّ الجيش المقاتل الثائر على الزراعة، فيفقد جاهزيته ويفقد عسكريته ، ويفقد جنديته ، كما علمهم القرآن الكريم .

﴿ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة : ١٩٥] .

وليست التهلكة إلا الانشغال بالزرع والضرع عن المعركة ، فلابد أن توجه كل الطاقات للمعركة . والحركة الإسلامية اليوم وهى تعد نفسها لمواجهة شاملة لابد لها أن تجند كل طاقاتها للمعركة . فالإسلام لم يقبل هذا الموقف بعد النصر المؤزر المبين ، فكيف تقبله الحركة الإسلامية وهى تخوض معركة وجودها أو لا وجودها فى الساحة .

ومع ذلك ، فقد استفاد رسول الله ﷺ من الخبرة الزراعية المختصة ولو كانت من اليهود ، لتلبى هذا القطاع وتؤمن حاجته ، ومضى العام الأول والثانى ورسول الله ﷺ والمسلمون ماضون فى حربهم، وتنقل لهم ثروات أرضهم ، فهل يستطيع المسلمون اليوم أن يعيدوا اليهود إلى الأرض ، وتكون لهم القيادة والسيادة من جديد ؟

٨ ـ وإذا كان أمر التعامل مع اليهود وهم أذلة ، فإن هذا لا يعنى فى المفهوم الإسلامى بخسهم حقهم ولو كانوا مستضعفين أو مضطرين للعمل مع النبى ﷺ وصحبه . وتذكر كتب السيرة عن ذلك الحرص الوحيد الذى قام به عبد الله بن رواحة رضي الله عنه لعام واحد وهو يوزع الثمر مناصفة بين اليهود والمسلمين قالوا له : ما نراك عدلت. فيجيب رضي الله عنه : يا إخوة القردة والخنازير ، والله ما أحد على ظهر الأرض أبغض إلىَّ منكم وما يدفعنى بغضى لكم أن أنقصكم تمرة واحدة ، ووالله ما أحد على ظهر الأرض أحب إلىَّ من محمد ﷺ، وما يدفعنى حبى له أن أزيده تمرة واحدة ، إن شئتم هذه أو شئتم هذه ، ويشير رضي الله عنه إلى الحصتين أمامه . أو كما روى ابن إسحاق : (قالوا له : تعديت علينا ، قال : إن شئتم

فلكم ، أو شئتم فلنا ، فتقول يهود : بهذا قامت السموات والأرض)[1] .

وإذن فمفهوم دولة الإسلام وحكم الإسلام الذى نرقبه ونسعى له ، ونقاتل من أجله هو فى تحقيق هذا العدل بين العدو والصديق والقريب والخصم ، وهو أكبر ميزان على تحقيق شريعة الله فى الأرض أن يأمن العدو قبل الصديق ، والخصم قبل الأخ ، ولا يطمع شريف فى ظلم، ولا ييأس ضعيف من عدل ، وأن يطمئن المسالم الآمن على ماله وعرضه وعقيدته وأرضه ، واليهود الذين عاشوا فى ظل هذا الإسلام العظيم ، نعموا بهذا الأمن ، وطردتهم دول الأرض وآوتهم دولة الخلافة الإسلامية ، فكان جزاؤها أن هدموا هذه الخلافة. إنهم يعلمون أن عدل محمد ﷺ لن يستطيعوه هم على أنفسهم، ومن أجل ذلك قالوا: بهذا العدل قامت السموات والأرض ، وأن يتعامل عبد الله بن رواحة وهو المبغض الألد لهم بنفس الصيغة التى يتعامل فيها مع حبيبه ـ عليه الصلاة والسلام.

إنه ما لم تقتنع قاعدة الحركة الإسلامية بأن قيادتها على الجادة ، وأنها تحقق العدل فى صفوفها وتؤثر الحق على العاطفة فى تعاملها ، فلن تخطو خطوة واحدة خارج صفها فى تحقيق الهدف الذى ترنو إليه، وعندما يطمئن الصف المسلم إلى أن قيادته رائدها العدل دائماً وأنه لن يضيع حق لفرد من أفراده فيه ، فحينئذ تستطيع أن تكون داعية لهذا المعنى فى صفوف الخصوم ، ولابد أن يتربى الصف كذلك على قبول هذا العدل والرضوخ له ، ولو كان على حسابه ومن مصلحته .

فالقضية ذات طرفين متوازنين ؛ الطرف الأول : طرف القيادة الصارمة العادلة التى لا تأخذها فى الله لومة لائم ، وتكون قوّامة بالقسط شاهدة لله ولو على نفسها أو الوالدين والأقربين. وطرف القاعدة التى لا تعتبر الإسلام مغنماً ومكسباً، وحقاً متسلطاً على رقاب العباد بل تعطى من ذاتها ونفسها ما يعين القيادة على تطبيق هذه العدالة وأن تخضع للحق، ولا تستجيب للنزوة الطارئة أو الهوى الجموح .

٩ ـ والمعنى الآخر الذى نلحظ من خلال خيبر هو إخراج اليهود من جزيرة العرب إذ لم يكن نقضاً للعهد كما يحلو للمغرضين أن يسموه ، بل كان جزءاً من الاتفاق الأول حين عرض اليهود على رسول الله ﷺ أن يعملوا مع المسلمين فى

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٥٤ .

الأرض ، فكان جوابه ـ عليه الصلاة والسلام : (فأعطاهم خيبر على أن لهم الشطر من كل زرع ومن كل ثمر ما بدا لرسول الله ﷺ أن يقرهم) وعند ابن إسحاق : « وأقركم ما أقركم الله » .

وعندما أصبحت المصلحة بإجلائهم عن خيبر، وتأكد لأمير المؤمنين رضي الله عنه هذا المعنى ووصية النبى ﷺ ألا يجتمع بجزيرة العرب دينان ، أمر بإجلائهم إلا من كان معه عهد من رسول الله ﷺ خاص به بالبقاء .

وتبقى دوماً مصلحة المسلمين العليا وأمنهم ، أهم من مصلحتهم العادية فى زرعهم وضرعهم ، ويضحى بكل شيء حفاظاً على هذه المصلحة ، علما بأن المسلمين قد اكتسبوا الخبرة المطلوبة فى الأرض ، وصاروا قادرين على الإنتاج ولديهم السعة للعمل فى الزراعة بعد التمكين الكبير لهم ، فاستغنى عن هذه الطاقات كما تستغنى كل دولة وحركة عن خدمات وخبرات من هم خارج صفها عندما تمتلك هذه الخبرات أو تستغنى عنها ، وتعتمد الاكتفاء الذاتى فى تسيير دولتها .

١٠ ـ ويبرز المعنى الأخير فى خيبر من خلال السبر العام لنفسية قريش حين جاءها الحجاج بن علاط السلمى ، ولم تعط فرحتها لأحد بهزيمة محمد وأسره ، لكنها فوجئت بالصاعقة على رأسها حين عرفت أن الحجاج عبث بها حتى أخذ حقه وماله ورحل عنهم .

والذى يعنينا من هذا الدرس جانبان :

الجانب الأول : فى التيقظ من المهادنين ، والتعرف على حقيقة نفسياتهم وإمكانية نكثهم للعهد إن أتيح لهم ذلك ، وعلى الدولة المسلمة أن تراقب الأجواء للتعرف على نفسية الحلفاء والمسالمين .

الجانب الثانى : حق الجندى المعترف على شركه أن يصل إلى حقه عن طريق التضليل بالصف المشرك ، وإلا لحرم هذا الحق لإسلامه وطالما أن الأخ لم يعلن التزامه فى الصف الإسلامى ، فالمجتمع الجاهلى يحمل وزر تصرفه لا المجتمع الإسلامى، فالحجاج فى ظاهر الأمر مشرك وأعطى المال على ضوء شركه واستعمل المخادعة للوصول إلى حقه، لكنه لم يقدم على هذا الأمر إلا بعد استئذان قيادته.

وحرى بشباب الحركة الإسلامية خاصة السريين منهم : الذين يحق لهم مثل هذه التصرفات، ألا تتم إلا من خلال الإذن من القيادة الشرعية التى تحدد حدود هذه التصرفات، والاجتهاد الفردى مرفوض ولو كان صواباً محضاً ، واستئذان القيادة الشرعية ولو كان خطأ محضاً من حيث السلوك فهو صواب محض من حيث التنظيم .

١١ ـ ومن المعانى الواضحة فى خيبر والتى لم تغب فى كل لحظاتها الدعوة إلى الله تعالى ، فما من مواجهة بين اليهود والمسلمين إلا والتوجيهات النبوية تؤكد على ضرورة الدعوة إلى الله قبل المواجهة .

(فأعطاه الراية فقال: يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا، قال: « انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه، فوالله لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير من أن يكون لك حمر النعم ») (١) .

فإذن ليست الدعوة إلى الله فى حالة السلم فقط ، ومقابل المعركة . إن المسلم وهو فى قلب المعركة داع إلى الله تعالى قبل أن يكون مقاتلا ، والبطل العظيم على ﷺ يحمل الراية بشهادة رسول رب العالمين ، يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله، ويفتح الله تعالى على يديه ، ومع ذلك فالدعوة إلى الله تعالى هى الأصل ، والهداية خير من القتل .

وهداية امرئ واحد خير من حمر النعم، فليدرك هذا الأمر شباب الحركة الإسلامية أن قضية الدعوة إلى الله يجب أن ترافق المسلم فى كل لحظة من لحظات حياته قبل المعركة وخلالها وبعدها ، وأن يصبح تقييم القيادة والحركة من خلال المعركة ونسيان الأصل الذى قامت عليه الجماعة هو انحراف فى الفهم الإسلامى ولا شك . ولئن كانت هذه المرحلة بعد صلح الحديبية هى مرحلة الانطلاق السياسية والدعوية ، وكانت معركة خيبر ظاهرة خاصة فى قلب هذه الأحداث ؛ لكنها بقيت تحمل طابع الدعوة إلى الله مع اليهود الذين حاربوا هذه الدعوة منذ مهدها ، وحاربوا سيد الدعاة محمد ﷺ منذ ولادته .

---

(١) صحيح البخارى ٢/ ٥٠٥ .

١٢ ـ ولا ننسى فى النهاية دور المرأة المسلمة وقد شاركت فى خيبر فى أكبر تجمع نسوى بلغ عدده عشرين امرأة ، ورضخ رسول الله ﷺ لهن من الفيء ، وتبقى هذه الذكرى حتى لا ننسى دور المرأة المسلمة فى الصف الإسلامى بجوار الرجل ، فإذا كان لها دور فى المعركة فمن باب أولى أن يكون لها الدور فى الدعوة إلى الله ، والمرأة نهبة لدعاة الشر فى الأرض يريدون لها أن تُهدم فتهدم الأسرة معها ، وبالتالى يهدم المجتمع كله ، ولعل القلادة التى أهداها النبى ﷺ للفتاة الغفارية تُعدِّل كثيراً من غلوائنا ، ونحن نتعامل مع النساء ، وذلك كما روى ابن إسحاق عن امرأة من بنى غفار قالت : (أتيت رسول الله ﷺ فى نسوة من بنى غفار ، فقلنا : يا رسول الله ، قد أردنا أن نخرج معك إلى وجهك هذا وهو يسير إلى خيبر، فنداوى الجرحى ونعين المسلمين بما استطعنا ، فقال : « على بركة الله » . قالت : فخرجنا معه ، وكنت جارية حدثة ، فأردفنى رسول الله ﷺ على حقيبة رحله ، قالت : فوالله لنزل رسول الله ﷺ إلى الصبح وأناخ ونزلت عن حقيبة رحله وإذا بها دم منى ، وكانت أول حيضة حضتها ، قالت : فتقبضت إلى الناقة واستحييت ، فلما رأى رسول الله ﷺ ما بى ورأى الدم قال : « مالك لعلك نفست » ، قالت : قلت : نعم ، قال : « فأصلحى من نفسك ، ثم خذى إناء من ماء فاطرحى فيه ملحاً ، ثم اغسلى به ما أصاب الحقيبة من دم ، ثم عودى لركبك » ، فلما فتح رسول الله ﷺ خيبر رضخ لنا من الفيء هذه القلادة التى ترين فى عنقى فأعطانيها، وعلقها بيده فى عنقى، فوالله لا تفارقنى أبداً)[1].

السمة العاشرة

قيادات العدو تنضم إلى الإسلام

إسلام عمرو بن العاص :

قال ابن إسحاق : وحدثنى يزيد بن أبى حبيب ، عن راشد مولى حبيب بن أبى أوس الثقفى ، عن حبيب بن أبى أوس الثقفى قال : حدثنى عمرو بن العاص من فيه قال :

---

(١) السيرة لابن هشام ٢/ ٣٤١ .

لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق ، جمعت رجالاً من قريش كانوا يرون رأيى ، ويسمعون منى ، فقلت لهم : تعلمون والله أنى أرى أمر محمد يعلو الأمور علوا منكرا ، وإنى قد رأيت أمراً فما ترون فيه ؟ قالوا : وماذا رأيت ؟ قال : رأيت أن نلحق بالنجاشى فنكون عنده ، فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشى ، فإنا أن نكون تحت يديه أحب إلينا من أن نكون تحت يدى محمد . وإن ظهر قومنا فنحن من قد عرفوا ، فلن يأتينا منهم إلا خير، قالوا : إن هذا الرأى ، قلت : فاجمعوا له ما نهديه له . وكان أحب ما يهدى إليه من أرضنا الأدم ، فجمعنا له أدماً كثيراً ثم خرجنا حتى قدمنا عليه .

فوالله إنا لعنده إذ جاءه عمرو بن أمية الضَّمرى وكان رسول الله قد بعثه إليه فى شأن جعفر وأصحابه قال : فدخل عليه ثم خرج من عنده . قلت لأصحابى : هذا عمرو بن أمية الضمرى، لو قد دخلت على النجاشى وسألته إياه فأعطانيه ، فضربت عنقه ، فإذا فعلت ذلك ، رأت قريش أنى قد أجزأت عنها حين قتلت رسول محمد . قال : فدخلت عليه فسجدت له كما كنت أصنع، فقال: مرحباً بصديقى ، أهديت إلىَّ من بلادك شيئاً ؟ قلت: نعم أيها الملك قد أهديت إليك أدماً كثيراً، قال: ثم قربته إليه ، فأعجبه واشتهاه ، ثم قلت له : أيها الملك ، إنى قد رأيت رجلاً خرج من عندك ، وهو رسول رجل عدوٍ لنا ، فأعطنيه لأقتله ، فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا ، قال : فغضب ، ثم مدَّ يده فضرب بها أنفه ضربة ظننت أنه قد كسره ، فلو انشقت لى الأرض لدخلت فيها فرقاً منه ، ثم قلت له: أيها الملك ، والله لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتكه ، قال : أتسألنى أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى لتقتله ! قلت : أيها الملك ، أكذاك هو ؟ قال : ويحك يا عمرو ، أطعنى واتبعه ، فإنه والله لعلى الحق ، وليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده، قلت: أفتبايعنى له على الإسلام ؟ قال : نعم. فبسط يده فبايعته على الإسلام ، ثم خرجت إلى أصحابى وقد حال رأيى عما كان عليه، وكتمت أصحابى إسلامى[1] .

إسلام خالد بن الوليد :

(قال الواقدى : حدثنى يحيى بن المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن

(١) السيرة لابن هشام ٢/ ٢٧٧ .

هشام قال : سمعت أبى يحدث عن خالد بن الوليد قال : لما أراد الله بى ما أراد من الخير قذف فى قلبى الإسلام وحضرنى رشدى فقلت : قد شهدت هذه المواطن كلها عن محمد ﷺ فليس فى موطن أشهده إلا انصرف ، وأنا أرى فى نفسى أنى موضع فى غير شىء ، وأن محمداً سيظهر ، فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية خرجت فى خيلٍ من المشركين ، فلقيت رسول الله ﷺ فى أصحابه بعسفان ، فقمت بإزائه ، وتعرضت له ، فصلى بأصحابه الظهر أمامنا فهممنا أن نغير عليهم ثم لم يعزم لنا ، وكانت فيه خيرة ، فاطلع على ما فى أنفسنا من الهم به فصلى بأصحابه صلاة العصر صلاة الخوف ، فوقع ذلك منا موقعاً ، وقلت : الرجل ممنوع فاعتزلنا ، وعدل عن سير خيلنا وأخذ ذات اليمين ، فلما صالح قريشاً بالحديبية ودافعته قريش بالرواح ، قلت فى نفسى : أى شىء بقى ؟ أين أذهب ؟ إلى النجاشى ، فقد اتبع محمداً وأصحابه عنده آمنون ، فأخرج إلى هرقل ؟ فأخرج من دينى إلى نصرانية أو يهودية . فأقيم فى عجم ، فأقيم فى دارى بمن بقى ، فأنا فى ذلك إذ دخل رسول الله ﷺ مكة فى عمرة القضاء ، فتغيبت ولم أشهد دخوله وكان أخى الوليد بن الوليد قد دخل مع النبى ﷺ فى عمرة القضاء ، فطلبنى فلم يجدنى فكتب إلى كتاباً فإذا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فإنى لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وعقلك عقلك! ومثل الإسلام جهله أحد ؟ وقد سألنى رسول الله ﷺ عنك ، وقال : « أين خالد ؟ » . فقلت : يأتى الله به ، فقال : « مثله يجهل الإسلام ؟ ولو جعل نكايته وجدَّه مع المسلمين كان خيراً له ، ولقدمناه على غيره» فاستدرك يا أخى ما قد فاتك من مواطن صالحة .

قال : فلما جاءنى كتابه نشطت للخروج وزادنى رغبة فى الإسلام وسرنى سؤال رسول الله ﷺ عنى ، وأرى فى النوم كأنى فى بلاد ضيقة مجدبة ، فخرجت فى بلاد خضراء واسعة فقلت : إن هذه لرؤيا ، فلما أن قدمت المدينة قلت : لأذكرنها لأبى بكر ، فقال : مخرجك الذى هداك الله للإسلام ، والضيق الذى كنت فيه من الشرك . فلما أجمعت الخروج إلى رسول الله ﷺ قلت : من أصاحب إلى رسول الله ؟ فلقيت صفوان بن أمية فقلت : يا أبا وهب ، أما ترى ما نحن فيه إنما نحن كأضراس ، وقد ظهر محمد على العرب والعجم فلو قدمنا على محمد واتبعناه ، فإن شرف محمد لنا شرف ؟ فأبى أشد الإباء فقال : لو لم يبق غيرى ما اتبعته أبداً . فافترقنا ، وقلت : هذا رجل قتل أخوه وأبوه ببدر،

فلقيت عكرمة بن أبى جهل ، فقلت له مثل ما قلت لصفوان بن أمية، فقال لى مثل ما قال صفوان ، قلت : فاكتم عنى . قال : لا أذكره . فخرجت إلى منزلى فأمرت براحلتى ، فخرجت بها إلى أن لقيت عثمان بن طلحة. فقلت : إن هذا لى صديق ، فلو ذكرت له ما أرجو ، ثم ذكرت من قتل من آبائه فكرهت أن أذكره ثم قلت: وما علىَّ وأنا راحل من ساعتى فذكرت له ما صار الأمر إليه ، فقلت: إنما نحن بمنزلة ثعلب فى جحر لو صب فيه ذنوب من ماء لخرج ، وقلت له نحواً مما قلت لصاحبى، فأسرع الإجابة ، وقلت له : إنى غدوت اليوم ، وأنا أريد أن أغدو وهذه راحلتى بفج مناخة . قال : فاتعدت أنا وهو بيأجج إن سبقنى آقام ، وإن سبقته أقمت عليه ، فأدلجنا سحراً ، فلم يطلع الفجر حتى التقينا بيأجج ، فغدونا حتى انتهينا إلى الهدة فنجد عمرو بن العاص بها قال : مرحبا بالقوم ، فقلنا : وبك . قال : إلى أين مسيركم ؟ فقلنا : وما أخرجك ؟ فقال : وما أخرجكم ؟ قلنا: الدخول فى الإسلام، واتباع محمد ﷺ. قال : وذاك الذى أقدمنى ، فاصطحبنا جميعاً حتى دخلنا المدينة فأنخنا بظهر الحرة ركابنا ، فأخبر بنا رسول الله ﷺ فسر بنا، فلبست من صالح ثيابى ثم عمدت إلى رسول الله ﷺ فلقينى أخى : فقال : أسرع فإن رسول الله ﷺ قد أخبر بك فسر بقدومك وهو ينتظركم ، فأسرعنا المشى فاطلعت عليه ، فما زال يبتسم حتى وقفت عليه فسلمت عليه بالنبوة ، فرد علىَ السلام بوجه طلق ، فقلت: إنى أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله فقال : « تعال » . ثم قال : « الحمد لله الذى هداك . قد كنت أرى لك عقلاً رجوت ألا يسلمك إلا إلى خير » . قلت : يا رسول الله، إنى قد رأيت ما كنتُ أشهد عليك من المواطن معانداً للحق، فادع الله آن يغفرها لى، فقال رسول الله ﷺ : « الإسلام يجب ما كان قبله » . قلت : يا رسول الله ، على ذلك، قال : « اللهم اغفر لخالد بن الوليد كل ما أوضع فيه من صد عن سبيل الله » ، قال خالد : وتقدم عثمان وعمرو فبايعا رسول الله ﷺ ، قال : وكان قدومنا فى صفر سنة ثمان قال : والله ما كان رسول الله ﷺ يعدل بى أحداً من أصحابه فيما حز به)[1] .

* * *

كانت غزوة خيبر قد انتهت وحطمت ما بقى فى نفسية مكة من مقاومة ، فقد

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٤/ ٢٤٠ ط ٣ مكتبة المعارف ١٩٨٠ .

سقط حليف ضخم لها فى المنطقة ، كانت تأمل أن يُنهى على محمد إن فاتها هى ذلك، وحتى غطفان، فقد قام محمد ﷺ بغزوات لها فى عقر دارها ، خلال هذه المرحلة، وكان عمرو ابن العاص بعيد النظرة، حين حكم بعد الخندق بانتهاء قريش كقوة عسكرية بعد أن جيشت الجيوش ، وقادت عشرة آلاف مقاتل لتستأصل شأفة محمد فى المدينة، ورجعت تجرجر أذيال الخيبة. فقد انتهى عمرو بن العاص رضي الله عنه كقائد حربى فى مكة منذ الخندق ، كما حدثنا عن ذلك ، وصمم أن يغادر مكة إلى الحبشة لاجئاً سياسيا يعيش عند صديقه النجاشى ، تاركاً الأمور فى أعنتها حيث لا جدوى من المقاومة .

وكان الغزو النفسى لخالد رضي الله عنه إبان صلح الحديبية حين صلى رسول الله صلاة الخوف، فى الوقت الذى همَّ فيه خالد بغزوه وأقسم أن الرجل ممنوع. وتلقى عمرو بن العاص هزيمته الأخيرة بين يدى النجاشى حيث تمنى لو أن الأرض ابتلعته فرقاً من النجاشى . ورواية الواقدى تقول : إن النجاشى لم يضرب أنفه إنما ضرب أنف عمرو وتناثر الدم منه، وكانت تلك الهزة الوجدانية التى لامست عمرو فهزته من مفرق رأسه إلى أخمص قدميه ، ولم تنته إلا ببيعة عمرو للنجاشى على الإسلام فى ذات اللحظة التى كاد يود أن يضرب عنق عمرو بن أمية الضمرى لو سلمه النجاشى إليه ، فلقد كانت الهزة من العمق والضخامة بحيث كسرت أثقال الجاهلية وأغلالها وفتحت عينيه على الإسلام ، وكانت الضربة العنيفة هى التى أعادته إلى رشده ، وقرر أن يرحل من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام .

بينما كانت الهزة الضخمة التى زلزلت كيان خالد بن الوليد رضي الله عنه تلك الرسالة الصغيرة المعدودة الكلمات ، وقد غيرت كل مخططات حياته. فلقد غادر خالد مكة والغيظ والحقد يأكل قلبه أن يدخل محمد مكة، بعد سبع سنوات من المقاومة دون أن يقف فى وجهه أحد، بل بإقرار قريش واعترافها ، ولا شيء على القائد العسكرى أشد مرارة من الهزيمة ، وأن يرى بأم عينيه خصمه مظفراً منتصراً . ومن أجل ذلك غادر مكة عند دخول رسول الله ﷺ لها، بل فكر أكثر من ذلك بأن يفعل ما فعله عمرو وصحبه ، أن يمضى إلى النجاشى أو كسرى أو قيصر ، غير أنه وجد الذل واحداً وليس له من الصداقة عند النجاشى ما لصاحبه عمرو ،

وسيكون نكرة فى أى مكان يمضى إليه حتى ولو لم يكن نكرة مجهولة، فأى معنى أن يضع إمكاناته وعبقريته لينصر فرساً على روم أو روماً على فرس . ومن أجل هذا ضاقت الدنيا فى عينيه ، وهو يعرف فى أعماقه أن موقعه الحقيقى فى مكة .

وجاءت هذه الرسالة لتعيد تركيبه من جديد، فلقد قدم مكة وخف الضغط على أعصابه أن محمداً ﷺ قد غادر مكة . وتجنب غصة فى حلقه أن يراه وهو يطوف حول الكعبة ويستلم الركن ، ويرى من حوله أتباعه من كل مكان يسرحون ويمرحون فى بلده ، وكانت رسالة أخيه عند والدته . وفض الرسالة ، ولم يأبه فى بادئ الأمر إلى دعوة أخيه له للإسلام ، فهو لا يقيم هذا الوزن لرأى أخيه وطالما ساهم فى حبسه ومنعه عن المسير إلى المدينة ، لكن الذى شدّه وشد نظره أن يكون محمد رسول الله قد سأل عنه ، وكاد يلتهم الكلمة التهاماً ليرى طبيعة السؤال ويرى دوافعه ورأى محمد فيه ، وعلى الغالب أنه لم يخطر على باله دافعاً للسؤال عنه من محمد ﷺ إلا الرغبة فى إذلاله وإشعاره بالهزيمة والاستخفاف بهؤلاء المعاندين ، لكن المفاجأة الضخمة التى هزت أعماقه هى هذه الكلمات العادية فى الصحيفة الهائلة فى التأثير والمعنى (فقلت : يأت الله به . قال: « مثله جهل الإسلام ؟ ولو كان جعل نكايته وجدّه مع المسلمين لكان خيراً له ولقدمناه على غيره ») .

فإذن ليس هو أمام قائد متعجرف أذل كبرياءه ، أو حتى غاضب ثار لحروب ضخمة سابقة ، أو حتى عاتب لائم على مواقف معاندة مكابرة ، ليس أمام هذا كله، إنه أمام إنسان لا مثيل له فى البشر ، إنه أمام رسول الله ﷺ، وأعاد القراءة الثانية وما يكاد يصدق عقله « ولو كان جعل نكايته وجدّه مع المسلمين لكان خيراً له ولقدمناه على غيره » إذن فقد وجد ضالته ، ورأى موقعه ، تحت راية محمد ﷺ وفى الموقع المناسب والمركز الملائم ، إذن ففيم يقف ؟ وماذا ينتظر ؟

لقد حققت هذه الكلمات القلائل تلك النقلة الهائلة لخالد بن الوليد رضي الله عنه من الجاهلية إلى الإسلام ، وكانت فى ضخامة تأثيرها أشد بكثير من لطمة النجاشى . فلقد بقى عمرو بن العاص رضي الله عنه شهوراً طوالاً قبل أن يعزم عزمته الأخيرة على المسير إلى المدينة ، أما خالد بن الوليد ، فقد كان التحول الضخم عنده ليهيئ متاعه دون توانٍ ويمضى إلى محمد ﷺ ، وإن كان له من شبه فى الأثر ففى تلك

الضربة العمرية لختنه سعيد بن زيد ولأخته وفى تلاوته لصدر سورة طه ، تلك الكلمات مست أعماق عمر ومضى إلى دار الأرقم مؤمناً منيباً بعد أن غدا قاتلاً . وهذه الكلمات اليوم حولت خالد بن الوليد من حاقد ناقم إلى مؤمن ملتزم .

ولم تستطع معارك عشرين عاماً وحوار عشرين عاماً أن يفعل فعله فى خالد ابن الوليد ﷺ كما فعلت تلك الكلمات فى أعماق خالد ، وهو يرى الأرض قد ضاقت عليه ويبحث عن الموقع الذى يضع قدميه فيه. فجاءته الرسالة لتقول له : تعال ، هذا هو موقعك. وحلت أكبر عقدة نفسية عنده .

ومضى ليستلقى قليلاً فيرى الرؤيا التى تتناسب وهذا الوضع النفسى الجديد ، الذى خرج من صحراء قاحلة مجدبة إلى أرض خضراء ممرعة .

والدعاة إلى الله اليوم بحاجة إلى وقفة طويلة مع هاتين القضيتين : قضية إسلام خالد، وإسلام عمرو فأعماق الحادثتين أكبر من الحدث الآنى وهو دعوة ملحة لهؤلاء الدعاة أن يتعاملوا مع نفوس الناس ، وأخص بالذكر الخصوم وقيادات الخصوم ، ليحولوا تلك النفوس إلى الإسلام .

وليكن أعظم أهدافهم هو جعل طاقات وعبقريات هؤلاء الخصوم تنصب فى معين الإسلام وتذود عنه تماماً ، كما قال ـ عليه الصلاة والسلام : « ولو كان جعل جدّه ونكايته مع المسلمين . . . » وليكن لدى الدعاة من سعة الصدر أن يقولوا لخصومهم ما قاله عليه الصلاة والسلام لأكبر أعداء الإسلام ذات يوم لخالد ابن الوليد : « ولقدمناه على غيره » .

أن تنتصر الحركة الإسلامية فى معركة حربية ، فتجندل بعض القيادات قتلى ويلوذ بعض القواد بالفرار ، ثم يتأجج الحقد والرغبة فى الثأر فى معركة جديدة شىء عظيم ، لكن الأعظم منه بلا شك أن تنتصر الحركة الإسلامية فى معركة النفوس الكبرى وفى حلبة الصراع العظمى بين الجاهلية والإسلام، فتفتح هذه القيادات صدورها للإسلام وتنضوى تحت لوائه هو النصر الأكبر ولا شك، ومن أجل ذلك كان الفتح المبين فى الحديبية، حيث أزيح السيف من الطريق ، وفتحت معركة العقيدة وسرعان ما انتصرت العقيدة فى النفوس ، ومن أجل ذلك كان نصر الله والفتح ليس فى هزيمة الجيش المكى الهزيمة المنكرة وعدد القتلى والجرحى فيه، إنما كان فى دخول الناس فى دين الله أفواجا ﴿ إذا جاءَ نصرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ . ورأيت النَّاسَ

يدخلون في دين الله أفواجا . فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ﴾ [سورة النصر] .

النصر الحقيقى هو أن تدخل قادة العدو فى الإسلام لا أن تهزمهم فى معركة من معارك الإسلام ، ويبقى هذا الهدف هو الأعلى .

« نفس تحييها خير من إمارة لا تحصيها » .

« لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم » .

لكن فنَّ الدعوة لابد أن يلامس تلك النفوس لمساً حادا ، وينفذ إلى أعماقها نفوذاً حكيماً بحيث يكون هو المصير للمدعو ولا مصير غيره ، وهو الحل ولا حل غيره .

أما إذا شعر العدو أو الخصم أن الإسلام هو الذى يذل ، ويحطم مصالحه، فسيبقى فى إطار العداء لله على الدوام .

ومن إسلام خالد إلى خطواته فى الدعوة بعد لحظات، إلى رفاق دربه صفوان ابن أمية، وعكرمة بن أبى جهل وعثمان بن طلحة .

وحين شرح الله صدر خالد للإسلام صار على التوِّ داعية إلى الله وتذكر أحب الناس إليه، هؤلاء الثلاثة، وراح يعرض عليهم الإسلام فاستجاب عثمان . أما صفوان وعكرمة فطووا عنه كشحاً ، فلم تنلهما هزة خالد ، ولم يشرح الله صدرهما بعد ، غير أن إقدامه على دعوتهم ليعطى دلالة واضحة على ضخامة هذه الهزة ، فلقد كان بإمكانه أن يكتم خبره ويمضى وحده إذا كان هذا الإيمان ذاتيا من جهة ، وبارداً من جهة ثانية ، لكن حرارته وصدقه ، هما اللذان دفعاه إلى عرض هذا الدين على رفاق الدرب معه ، بل أصبح يدرك ببصيرة المؤمن ، أن عناد هؤلاء الرفاق مرتبط بنزعات جاهلية عميقة، ولما يمرَّ عليه فى الإسلام ساعات بعد، إذ إن مقتل آبائهم وإخوانهم هو الذى يعمى بصرهم عن الحقيقة ولن يدرك الحقيقة موتور ثائر إنما يدركها مخلص ، بعيد عن الهوى والغرض .

ولعلنا قبل أن ننتقل مع القادة الثلاثة إلى المدينة نستمع لعمرو رضي الله عنه ينقل لنا طرفاً من الحديث من خلال رواية البيهقى عن الواقدى :

(. . . فغضب من ذلك ورفع يده فضرب بها أنفى ضربة ظننت أنه كسره ، فأبتدرُ منخراى فجعلت أتلقى الدم بثيابى ، فأصابنى من الذل ما لو انشقت بى

الأرض دخلت فيها فرقاً منه ثم قلت : أيها الملك ، لو ظننت أنك تكره ما قلت ما سألتك . قال : فاستحيا ، وقال : يا عمرو ، تسألنى أن أعطيك رسول من يأتيه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى ، والذى كان يأتى عيسى لتقتله ؟ قال عمرو : فغير الله قلبى عما كنت عليه، وقلت فى نفسى : عرف هذا الحقَّ العربُ والعجمُ وتخالف أنت ؟ ثم دعا بطست ، فغسل عنى الدم وكسانى ثياباً وكانت ثيابى قد امتلأت بالدم ، فألقيتها ثم خرجت على أصحابى ، فلما رأوا كسوة النجاشى سروا بذلك .وقالوا : هل أدركت من صاحبك ما أردت ؟ فقلت لهم: كرهت أن أكلمه فى أول مرة ، وقلت : أعود إليه . فقالوا : الرأى ما رأيت . قال : ففارقتهم وكأنى أعمد إلى حاجة فعمدت إلى موضع السفن، فأجد سفينة قد شحنت تدفع ، قال : فركبت معهم ودفعوها حتى انتهوا إلى الشعيبة ، وخرجت من السفينة ومعى نفقة ، فابتعت بعيراً وخرجت أريد المدينة حتى مررت على مر الظهران ، ثم مضيت حتى إذا كنت بالهوة فإذا رجلان قد سبقانى بغير كثير يريدان منزلاً وأحدهما داخل فى الخيمة ، والآخر يمسك الراحلتين. فنظرت فإذا خالد بن الوليد ، قال : قلت : أين تريد ؟ قال : محمداً ، دخل الناس فى الإسلام فلم يبق أحد به طعم، والله لو أقمت لأخذ برقابنا كما يؤخذ برقبة الضبع فى مغارتها ، قلت : أنا والله قد أردت محمداً وأردت الإسلام ، فخرج عثمان ابن طلحة فرحب بى فنزلنا جميعاً فى المنزل ، ثم اتفقنا حتى أتينا المدينة ، فما أنسى قول رجل لقيناه ببئر أبى عتبة يصيح: يا رباح يا رباح يا رباح ، فتفاءلنا بقوله وسرَّنا ، ثم نظر إلينا فأسمعه يقول : أعطت مكة المقادة بعد هذين . وظننت أنه يعنينى ويعنى خالد بن الوليد ، وولى إلى المسجد سريعاً فظننت أنه بشر رسول الله ﷺ بقدومنا ، فكان كما ظننت ، وأنخنا بالحرة فلبسنا من صالح ثيابنا ثم نودى بالعصر ، فانطلقنا حتى طلعنا عليه ، وإن لوجهه تهللاً والمسلمون حوله قد سروا بإسلامنا فتقدم خالد بن الوليد فبايع، ثم تقدم عثمان بن طلحة فبايع ، ثم تقدمت فوالله ما هو إلا أن جلست بين يديه فما استطعت أن أرفع طرفى حياءً منه ، فبايعته على أن يُغفر لى ما تقدم من ذنبى ولم يحضرنى ما تأخر ، فقال : « إن الإسلام يجب ما كان قبله ، والهجرة تجُبُّ ما كان قبلها » قال : فوالله ما عدل بى رسول الله ﷺ وبخالد بن الوليد أحداً من أصحابه فى أمر حزبه منذ أن أسلمنا ، ولقد كنا عند أبى بكر بتلك المنزلة ، ولقد كنت عند عمر بتلك المنزلة وكان عمر

على خالد كالعاتب) .

ولقد عرضنا هذه الرواية الثانية التى تعطى إيضاحات أكثر عن إسلام عمرو ﷺ ، وتلقى أضواء على طبيعة شخصيته . فعمرو داهية العرب وقد بايع النجاشى على الإسلام ، لم يكن من سمته ولا من طبعه أن يطرح ما فى نفسه على صحبه كما فعل خالد ﷺ ، بل كتم الأمر عنهم وأوهمهم بكسوة النجاشى أنه لا يزال على عهده واستحيا طلب رسول محمد ﷺ لهذه الهدية ، وانسل عن صحبه يبحث عن سفينة تقوده إلى مكة .

وتبرز طبيعة شخصيته ثانياً حين التقى مع خالد ، ولم يظهر مقدمه للإسلام حتى اطمأن إلى خالد أنه ماضٍ إلى المدينة ليسلم. فشخصيته التى تقوم على أساس الحذر والحيطة المناسبتين لطبيعة الداهية تقتضى منه هذه المواقف .

والملاحظ أن عرض عمرو ﷺ لإسلامه وإسلام خالد بين يدى الرسول ﷺ لا يختلف فى المضمون ، لكن نرى فى بعض الجزئيات إشارات لمعنى ضخم فى طبيعة الدعاة . فخالد ﷺ يرى ابتسام رسول الله ﷺ له منذ لقياه ، وأنه ينظر به ، وعمرو ﷺ يرى تهلل وجه رسول الله ﷺ منذ أن رآهما .

وخالد يقول: إن رسول الله ﷺ لم يعدل به أحد إذا حزبه أمر،وعمرو ﷺ يقول: إن رسول الله ﷺ لم يعدل بهما أحد إذا حزبه أمر .

وهذه الإشارات تدل على عظمة هذا النبى سيد ولد آدم ، فكل صحابى كان يشعر أنه أحب الناس إلى رسول الله ﷺ وأنه موطن ثقته وحده من دون الناس. وهكذا كان عمرو وخالد يشعران أنهما قد احتلا الموقع المناسب ، وأن كفاءتهما العسكرية والسياسية لم تذهب هدراً أو عبثاً ، بل كان لهما محل القيادة والريادة بين المسلمين رغم حداثة دخولهما فى الإسلام .

ويبقى المعنى الأعمق والأشمل بإسلام هذه القيادات ، وأثر هذا الإسلام على المعسكر المكى الذى بدأ ينهار إثر هذه الضربة القاضية، حتى أبو سفيان القائد العام شهد بأم عينه عند هرقل ما قاله قيصر فى حق النبى ﷺ وكانت بداية الغزو النفسى له . لقد أهدت مكة إلى المعسكر الإسلامى ثلاثة أبطال من أبطالها وكل بطل ركن فى عشيرته ، فخالد سيد بنى مخزوم ، وعمرو سيد بنى سهم ، وعثمان سيد

بنى عبد الدار ، وصدق فيهم قول رسول الله ﷺ : « لقد رمتكم مكة بأفلاذ أكبادها »، فهم قرة عين مكة ، وقادتها الكبار ينضمون إلى معسكر النبوة .

ولإسلام عثمان بن طلحة أثر فوق هذه الآثار جميعاً هو أن مفتاح الكعبة معه، فبنو عبد الدار عندهم حجابة الكعبة، وعثمان بن طلحة قد انتهت إليه هذه المأثرة. وهذا الأمر يهد قريشاً هدا فهى تفاخر العرب بالبيت الحرام ، وأنها حاميته والذائدة عنه ، فإذا كان حامل مفتاح الكعبة قد غدا جنديا فى جيش محمد ﷺ ، فلقد انتهت ادعاءاتها فى الحماية ، وصار عثمان بن طلحة المسلم صاحب الحجابة هو المسؤول أمام العرب عن حجابة الكعبة ورعاية البيت الحرام ، كما أن بنى هاشم قد انتهت عندهم السقاية والرفادة وليس موقف العباس بتأييده المطلق الواضح لمحمد ﷺ بخاف عن أحد ، وقد رأينا نموذجاً من هذا التأييد المطلق فى خيبر ، حيث لبس حلته وتخلق بطيب ، ومضى يطوف حول الكعبة ابتهاجاً بنصر ابن أخيه محمد عليه الصلاة والسلام .

وتبدو صورة هذه المعانى فى وثنا الحاضر حين ينضم إلى الحركة الإسلامية من كان يمثل موقعاً مهما فى المجتمع الجاهلى ، كأن يكون سفيراً أو وزيراً أو ضابطاً قائداً، فكم يكون لمثل هذا الانضمام من أثر على قوة الحركة الإسلامية ، وضربة نجلاء فى صميم المجتمع الآخر، وحق لهذا العرض أن يكون سمة واضحة فى هذه المرحلة من تاريخ الدعوة.

السمة الحادية عشرة

الصدام الأول مع الروم ـ مؤتة

قال ابن إسحاق : حدثنى محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير قال:

بعث رسول الله ﷺ بعثة إلى مؤتة فى جمادى الأولى سنة ثمان، واستعمل عليهم زيد بن حارثة وقال : « إن أصيب زيد فجعفر بن أبى طالب على الناس ، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس » ، فتجهز الناس ثم تهيؤوا للخروج ، وهم ثلاثة آلاف ، فلما حضر خروجهم ودع الناس أمراء رسول الله ﷺ وسلموا عليهم، فلما ودع عبد الله بن رواحة من ودع من أمراء رسول الله ﷺ

بكى . فقالوا : ما يبكيك يا بن رواحة ؟ فقال : أما والله ما بى حب الدنيا ولا صبابة بكم ، ولكنى سمعت رسول الله يقرأ آية من كتاب الله عز وجل يذكر فيها النار : ﴿ وإن منكم إلاّ واردُها كان علىٰ ربك حتماً مقضيًا ﴾ [مريم : ٧١] . فلست أدرى كيف لى بالصدر بعد الورود ، فقال المسلمون : صحبكم الله وردكم إلينا صالحين . فقال عبد الله بن رواحة :

لكننى أسأل الرحمن مغفرة ... وضربة ذات قرع تقذف الزبدا

أو طعنة بيدىْ حران مجهزة ... بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا

حتى يقال : إذا مروا على جدثى ... أرشده الله من غازٍ وقد رشدا

ثم إن القوم تهيؤوا للخروج فأتى عبد الله بن رواحة رسول الله ﷺ فودعه ثم قال :

فثبت الله ما آتاك من حسن ... تثبيت موسى ونصراً كالذى نُصروا

إنى تفرست فيك الخير نافلة ... الله يعلم أنى ثابت البصر

أنت الرسول فمن يحرم نوافله ... والوجه منه فقد أزرى به القدر[1]

وشيعهم رسول الله ﷺ إلى ثنية الوداع ، ثم وقف وهم حوله وقال : «أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيراً ، اغزوا فى سبيل الله فقاتلوا من كفر الله ، لا تغدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليدا ، وإذا لقيت عدوك من المشركين ، فادعهم إلى إحدى ثلاث ، فأيتهن ما أجابوك إليها فاقبل منهم واكفف عنهم ، ادعهم إلى الدخول فى الإسلام فإن فعلوا فاقبل منهم واكفف عنهم ، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، فإن فعلوا فأخبرهم أن لهم ما للمهاجرين ، وعليهم ما على المهاجرين ، وإن دخلوا فى الإسلام واختاروا دارهم ، فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين ، يجرى عليهم حكم الله ولا يكون لهم فى الفىء ولا فى الغنيمة شىء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فإن أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية ، فإن فعلوا فاقبل منهم واكفف عنهم ، فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٧٤ .

وإن أنت حاصرت أهل حصن أو مدينة فأرادوك أن تستنزلهم على حكم الله فلا تستنزلهم على حكم الله ولكن أنزلهم على حكمك ، فإنك لا تدرى أتصيب حكم الله فيهم أم لا ؟ وإن حاصرت أهل حصن أو مدينة فأرادوك على أن تجعل لهم ذمة الله وذمة رسوله فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة رسوله ، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أبيك وذمة أصحابك ، فإنكم إن تخفروا ذمتكم وذمة آبائكم خير لكم من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله ، وستجدون رجالا فى الصوامع معتزلين الناس فلا تتعرضوا لهم ، وستجدون آخرين فى رؤوسهم مفاحص[1] فاقلعوها بالسيوف ، لا تقتُلنَّ امرأة ولا صغيراً ولا كبيراً فانياً ، ولا تغرقن نخلاً ولا تقلعنَّ شجراً ولا تهدموا بيتاً » [2] .

قال ابن إسحاق : ثم خرج القوم وخرج رسول الله ﷺ حتى إذا ودَّعهم وانصرف عنهم قال :

« خلف السلام على امرئ ودعته فى النخل خير مشجع وخليل »

ثم مضوا حتى نزلوا معان فبلغ الناس أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء فى مائة ألف من الروم ، وانضم إليهم من لخم وجذام والقين وبهراء وبَلِىَ مائة ألف منهم ، عليهم رجل من بلى ثم أحد إراشة يقال له : مالك بن زافلة ، فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على معان ليلتين يفكرون فى أمرهم وقالوا : نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا ، فإما أن يمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره ، فنمضى له ، فشجع الناس عبد الله بن رواحة وقال : يا قوم ، والله إن التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ، فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين إما ظهور وإما شهادة . قال فقال الناس : قد صدق والله ابن رواحة ، فمضى الناس فقال عبد الله بن رواحة فى حبسهم ذلك شعراً ، ثم مضى الناس ، حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل من الروم والعرب بقرية من قرى البلقاء يقال لها : مشارف، ثم دنا العدو ، وانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها : مؤتة ، فالتقى الناس عندها، فتعبأ لهم المسلمون ، فجعلوا على ميمنتهم رجلاً من

---

(١) المفحص : حيث تجثم القطا وتفرخ ، والمقصود عشعشة الشيطان بالغى .

(٢) إمتاع الأسماع ١/ ٣٤٥، ٣٤٦ .

بنى عذرة يقال له : قطبة بن قتادة ، وعلى ميسرتهم رجلاً من الأنصار يقال له : عباية بن مالك ، ثم التقى الناس واقتتلوا ، فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله ﷺ حتى شاط[1] فى رماح القوم . ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى إذا ألحمه القتال[2] اقتحم عن فرس له شقراء فعقرها ، ثم قاتل القوم حتى قتل ، فكان جعفر أول رجلٍ من المسلمين عقر[3] فى الإسلام .

وحدثنى يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عباد قال : حدثنى أبى الذى أرضعنى، وكان أحد بنى مرة بن عوف، وكان فى تلك الغزوة غزوة مؤتة قال: والله لكأنى أنظر إلى جعفر حين اقتحم عن فرس له شقراء . ثم عقرها ثم قاتل حتى قتل وهو يقول :

يا حبذا الجنة واقترابها ... طيبة وبارد شرابها

والروم روم قد دنا عذابها ... كافرة بعيدة أنسابها

علىَّ إذ لاقيتها ضرابها

قال ابن هشام : وحدثنى من أثق به من أهل العلم : إن جعفر بن أبى طالب أخذ اللواء بيمينه فقطعت ، فأخذه بشماله فقطعت ، فاحتضنه بعضديه حتى قتل رضي الله عنه وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، فأثابه الله جناحين فى الجنة يطير بهما حيث يشاء . ويقال : إن رجلاً من الروم ضربه يومئذ ضربة فقطعه نصفين .

قال ابن إسحاق ـ وبالسند السابق :

فلما قتل أخذ الراية عبد الله بن رواحة ، ثم تقدم بها ، وهو على فرس فجعل يستنزل نفسه ويتردد بعض التردد ، ثم قال :

أقسمت يا نفس لتنزلنه ... لتنزلن أو لتكرهنه

أن أجلب الناس[4] وشدوا الرنّه[5] ... مالى أراك تكرهين الجنه

قد طال ما قد كنت مطمئنه ... هل أنت إلا نطفة من شنه[6]

---

(١) شاط الرجل : إذا سال دمه فهلك .

(٢) ألحمه القتال : نشب فيه فلم يجد مخلصا .

(٣) عقرها : ضرب قوائمها وهى قائمة بالسيف .

(٤) أجلب الناس : صاحوا واجتمعوا .

(٥) الرنّة : صوت ترجيع شبيه بالبكاء .

(٦) الشنة : السقاء البالى .

وقال أيضاً :

يا نفس إلا تقتلي تموتي هذا حمام الموت قد لقيت

وما تمنيت فقد أعطيت إن تفعلي فعلهما هديت

يريد صاحبيه زيداً وجعفراً، ثم نزل، فلما نزل أتاه ابن عمٍ له بعرق[1] من لحم فقال: شدَّ بهذا صُلبك ، فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت ، فأخذه من يده ثم انتهس[2] منه نهسة ، ثم سمع الحطمة[3] في ناحية الناس ، فقال : وأنت في الدنيا ! ثم ألقاه من يده ثم أخذ سيفه فتقدم فقاتل حتى قتل .

ثم أخذ الراية ثابت بن أقرم آخو بني العجلان فقال : يا معشر المسلمين ، اصطلحوا على رجلٍ منكم. قالوا: أنت، قال : ما أنا بفاعل ، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد. فلما أخذ الراية دافع القوم وحاشى بهم[4] ، ثم انحاز وانحيز عنه حتى انصرف الناس .

وقد أورد ابن كثير روايات البخاري والنسائي والبيهقي حول نهاية الغزوة ، وبعض جزئياتها نسوقها لتستكمل صورة هذه المعركة .

وروى البخاري (عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ نعى زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبر فقال : « أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذها جعفر فأصيب ، ثم أخذها ابن رواحة فأصيب ـ وعيناه تذرفان ـ حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم ») [5] .

وروى البخاري عن عبد الله بن عمر قال : (أمَّر رسول الله ﷺ في غزوة مؤتة زيد بن حارثة فقال رسول الله ﷺ : « إن قتل زيد فجعفر ، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة » ، قال عبد الله : كنت فيهم في تلك الغزوة فالتمسنا جعفر ابن أبي طالب فوجدناه في القتلى ، ووجدنا في جسده بضعاً وتسعين من ضربة ورمية)[6] .

---

(١) العرق : العظم الذي عليه بعض اللحم . (٢) انتهس : أخذ منه بفمه يسيرا .

(٣) الحطمة . صوت ازدحام الناس وحطم بعضهم بعضاً .

(٤) حاشى بهم . انحاز بهم . (٥) البخاري ٣/ ٥/ ٨٧ باب غزوة مؤتة .

(٦) المصدر نفسه ٣/ ٥/ ٨٧ .

وروى البخارى عن قيس بن أبى حازم قال: (سمعت خالد بن الوليد يقول : لقد دُقَّ فى يدى يوم مؤتة تسعة أسياف ، وصبرت فى يدى صفحة يمانية)[1] .

قال الواقدى: (حدثنى عبد الجبار بن عمارة بن غزية بن عبد الله بن أبى بكر ابن عمرو بن حزم قال : لما التقى الناس بمؤتة جلس رسول الله ﷺ على المنبر ، وكشف له ما بينه وبين الشام فهو ينظر إلى معتركهم فقال : « أخذ الراية زيد بن حارثة فجاء الشيطان فحبب إليه الحياة وكرّه إليه الموت وحبب إليه الدنيا ». فقال : الآن حين استحكم الإيمان فى قلوب المؤمنين تحبب إلى الدنيا ، فمضى قدماً حتى استشهد، فصلى عليه رسول الله ﷺ وقال : « استغفروا له فقد دخل الجنة وهو شهيد » ، ولما قتل زيد أخذ الراية جعفر بن أبى طالب فجاءه الشيطان فحبب إليه الحياة وكرّه إليه الموت ومناه الدنيا ، فقال : الآن حين استحكم الإيمان فى قلوب المؤمنين يمنينى الدنيا ، ثم مضى قدماً حتى استشهد فصلى عليه رسول الله ﷺ وقال : « استغفروا لأخيكم فإنه شهيد دخل الجنة ، وهو يطير فى الجنة بجناحين من ياقوت حيث يشاء » ، ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة فاستشهد ثم دخل الجنة معترضاً فشقَّ ذلك على الأنصار فقيل :يا رسول الله ، ما اعتراضُه ؟ قال : « لما أصابته الجراح نكل فعاتب نفسه فتشجع واستشهد ودخل الجنة فسرى عن قومه »)[2] .

وقال الواقدى : (حدثنى عبد الله بن الحارث بن الفضيل عن أبيه قال : لما أخذ الراية خالد بن الوليد قال رسول الله ﷺ : « الآن حمى الوطيس »)[3] .

قال الواقدى : وحدثنى العطاف بن خالد قال : لما قتل ابن رواحة مساءَ بات خالد بن الوليد ، فلما أصبح غدا وقد جعل مقدمته ساقته ، وساقته مقدمته ، وميمنته ميسرته ، وميسرته ميمنته ، فأنكروا ما كانوا يعرفون من راياتهم وهيئتهم وقالوا : قد جاءهم مدد ، فرعبوا وانكشفوا منهزمين[4] .

* * *

لقد كان قدر هذا الجيل أن يواجه أمم الأرض بهذا الدين ، وها نحن الآن

---

(١) البخارى ٣/ ٥/ ٨٧ .
(٢) المغازى للواقدى ٢/ ٧٦١، ٧٦٢ .
(٣) المصدر السابق ٢/ ٧٦٤ .
(٤) البداية والنهاية لابن كثير ٤/ ٢٤٥، ٢٤٦ .

أمام منعطف جديد فى تاريخ دولة الإسلام هو الصدام المباشر مع الروم ، ويحسن ألا يغيب عن البال أن السبب لهذه المعركة هو أن رسول الله ﷺ بعث الحارث بن عمير الأزدى بكتابه إلى عظيم بصرى، فعرض له شرحبيل بن عمرو الغسانى، وكان عاملاً على البلقاء من أرض الشام من قبل قيصر ، فأوثقه رباطاً ثم قدمه فضرب عنقه(١) .

فالمعركة إذن نتجت عن الدعوة ، ومقتل فرد مسلم يعنى عند رسول الله ﷺ حرباً ضروساً مع المعتدين ، ولعل هذا المعنى لا يغيب عن أذهان بعض الدعاة الذين يرون أن بالإمكان تجنب المعركة مع العدو إذا سالمناه وعرضنا عليه فكرنا فحسب .

إن الصدام مع أعداء الله أمر لا مفر منه، لكن تحديد وقت الصدام وإمكانيته يعود إلى قيادة الجماعة المسلمة ، الفقه النبوى يعنى أن مقتل جندى مسلم ـ وهو رسولٌ إلى العدو ـ إشعال معركة ضارية وقد فعلها رسول الله ﷺ مرتين :

الأولى : يوم الحديبية حين بلغه أن عثمان رضي الله عنه قد قتل ، وأخذ البيعة من جيشه على الموت وهذه المرة الثانية. فلابد إذن من توطين الحركة الإسلامية نفسها على المواجهة ، وهو تأكيد من جهة ثانية على الدرس السابق ، على أهمية الفرد المسلم عند قيادته وأن الجيش كله مستعد أن يخوض معركة للثأر له .

لكن الملاحظ أن هذا الأمر مرتبط بإمكانيات الجماعة المسلمة على ذلك ، ففى حالات الضعف كان كل ما يملكه رسول الله ﷺ أن يقول : « صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة »، أو يدفعهم إلى الذهاب إلى النجاشى الذى لا يظلم عنده أحد ، حتى والمسلمون دولة ، قد تكون الدولة المسلمة عاجزة عن الثأر لشهدائها فمأساة بئر معونة والتى ذهب ضحيتها سبعون من خيار المسلمين ، لم يتمكن رسول الله ﷺ من الثأر لهم إلا بعد لأى .

لكن المعنى الأساسى يبقى ثابتاً فى التحام الصف المسلم ، وقيمة الجندى فيه. إنه حين تكون الظروف مواتية ، فلا يجوز أن يذهب دم الشهيد هدراً ، ولابد أن يُثأر له .

---

(١) الرحيق المختوم ص ٤٣٥ .

ونقف أمام هذا العدد الضخم الذى تحرك للقاء الروم ، فلم يتحرك جيش خارج المدينة أكثر من ألف وخمسمائة مقاتل ، وأكبر جيش حشده المسلمون داخل المدينة هو جيش الخندق ، وكان قوامه ثلاثة آلاف مجاهد ، وها هو الجيش الإسلامى يتحرك اليوم مغادراً المدينة إلى الشام بثلاثة آلاف مجاهد ، وهنا نشير إلى الفتح المبين فى الحديبية ، حيث تضاعف عدد الجيش الإسلامى بعد الحديبية بسنة ونصف على التقريب ، وبدأت تظهر أسماء جديدة لم تكن تعرف من قبل ، فقائد ميمنة المسلمين فى الحديبية: قطبة بن قتادة وهو من بَلِىّ وهذا معنى مهم ، إذ القبائل التى تواجه المسلمين فيهم تجمع كبير من هذه القبيلة .

ونضيف فى الحديث عن هذا الحشد إلى شعور الرسول ﷺ بخطورة المواجهة مع دولة عظمى ، فلن يصلح لهذه المواجهة عدة مئات .

ويؤكد هذا المعنى كذلك تعيين الأمراء الثلاثة ، فلم يسبق لرسول الله ﷺ خلال المراحل السابقة أن عين أكثر من أمير على الجيش ، لكنه كان يعلم ـ عليه الصلاة والسلام ـ بما أوحى الله تعالى إليه أن الأمراء يلقون مصرعهم فى هذه المعركة .

ولقد أدرك اليهود هذا المعنى حيث قال أحدهم: (إن الأنبياء فى بنى إسرائيل كانوا إذا سمَّوا الرجل على القوم فقالوا : إن أصيب فلان ففلان ، فلو سموا مائة أصيبوا جميعاً ، ثم جعل يقول لزيد: اعهد فإنك لا ترجع أبداً إن كان محمد نبيًا، قال زيد: أشهد أنه نبى صادق)[1] . وقد يقول قائل: كان بإمكان رسول الله ﷺ تجنب هذه المواجهة مع العرب الغساسنة فى الشام ، لكن الصورة المقابلة كذلك إن قتل هذا الرسول ولم يثأر له ، فقد يدفع عرب الشام مع الروم إلى غزو المدينة ، وكثيراً ما يكون الهجوم وسيلة ضخمة من وسائل الدفاع عن النفس .

وإذا كانت قوة الجيش تقاس بمعنوياته ، فلن نجد أقوى من هذا الجيش ، والأصل أن يكون المسلمون اليوم فى هذا الاتجاه عندهم بعض الخوف والتردد ، فهم يقدمون على حرب فى البلقاء على تخوم الروم ، واحتمال المواجهة واردة معهم ، ولم يسبق لهم رصيد من التجربة فى الحرب مع الروم أو الفرس ،

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٤/ ٢٤١ عن البيهقى .

والدولتان الكبريان آنذاك تتقاسمان الأرض، ومع ذلك فقد كان أحد القادة الثلاث يبكى وقد حضره المسير، ولم يكن سبب بكائه جزعاً من الموت إنما كان خوفاً لما بعد الموت ، خوفاً من النار التى يرد عليها الناس جميعاً : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ [مريم : ٧١] ، وتصور الناس أن الدعاء بالسلامة هو الذى يثلج الصدر فقالوا له ولإخوانه : صحبكم الله ودفع عنكم وردكم إلينا صالحين ، فكان جواب القائد الشاعر ابن رواحة طلب الشهادة فى أرض الشام والمغفرة .

هذه نفسية الجيش وقيادته قبل التحرك .

وكانت أزمته الثانية عندما بلغه التجمع الهائل وهو فى معان ، وهو وجود حوالى مائتى ألف من العرب والروم قد تهيؤوا للقائهم ومضوا يناقشون الأمر وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا فإما أن يمدنا بالرجال ، وإما أن يأمرنا بأمره ، ولم يكن من بين الحلول المطروحة أن يعودوا إلى المدينة ، وكل ما يخشونه أن تكون المواجهة مغامرة غير جائزة أن يواجهوا هذا العدد الضخم بقوتهم الضئيلة،وما أعتقد أن جيشاً فى الأرض لا تنهار معنوياته أمام هذه المواجهة وبينهم هذا الفارق فى العدد والعدة ، ولكن هذا الدين الذى ضرب جذوره فى أعماق هذه العصبة المؤمنة ، جعل منهم نموذجاً آخر لا يبارى فى التاريخ وجعل لدى الجيش تلك الأرضية التى تقبل قول الأمير الشاعر ابن رواحة رضي الله عنه :

(والله إن التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، إنما نقاتلهم بهذا الدين الذى أكرمنا الله به فانطلقوا ، فإنما هى إحدى الحسنيين إما ظهور وإما شهادة) .

وأمكن لهذه الكلمة أن تفعل فى الجيش كله فعل السحر ، وانطلق الجيش للمواجهة قائلين : قد والله صدق ابن رواحة .

إن فكرة الشهادة والأمل برضوان الله تعالى ودخول الجنة قد أثبت التاريخ عمليًا أنها أقوى دافع فى هذا الوجود للمواجهة والموت ، لأن المسلم على يقين أن ما عند الله خير وأبقى للمسلم من كل شىء فلا يتوانى لحظة واحدة عن الإقبال على الموت،تغمره السعادة ويحدوه الرضا بقضاء الله وقدره،وكلا الأمرين لا يدرى أيهما أحب إليه النصر أو الشهادة . وهذه الروح المعنوية التى رافقت الجيش المسلم

فى كل معاركه هى التى رجحت كفته دائماً على عدوه ، ودانت له الأرض بسبب ذلك .

وكانت الأزمة الثالثة العنيفة لحظة المواجهة ، أو المفروض أن تكون الأزمة لكن الروح المعنوية العالية ، على ما تذكر الروايات ، لم تفارق الجيش وهو بعدده الضئيل أمام ذلك الجيش العرمرم، وكانت القيادات من الكفاءة بحيث تتسابق أمام جنودها على الموت، وكأنما هى تتجهز له تجهز العروس لعروسه .

(قال ابن إسحاق : ثم التقى الناس فاقتتلوا ، فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله ﷺ حتى شاط فى رماح القوم) .

ومقتل قائد واحد خلال لحظات قليلة كفيل أن يعيد النظر فى المواجهة حيث كان الأمير الثانى جعفر بن أبى طالب. لكن شوق الجنة هو الذى حدا بجعفر رضي الله عنه أن يقتحم عن فرسه الشقراء ، ويتراقص فرحاً بالجنة وهو يواجه العدو :

يـا حبـذا الجنـة واقترابهـا طيبـة وبـارد شرابهـا
والـروم روم قد دنا عـذابهـا كافـرة بعيـدة أنسابهـا
عليَّ إذ لاقيتهـا ضـرابهـا

واستشهد القائد الثانى ، فجرى بعض الفتور فى هذه الروح المعنوية عند ابن رواحة ، وكان الفرق واضحاً بين طلبه الشهادة وهو فى المدينة ، وبين معاينتها وهو فى مؤتة. لقد كانت الرؤى الشعرية الوجدانية عنده أقوى من الواقع العملى، فراح يبرز خلجات نفسه فى هذا الحديث الرائع :

أقسمـت يا نفـس لتنزلنـه لتنزلـن أو لتكرهنـه
قـد طـال ما قد كنت مطمئنـه مالى أراك تـكرهين الجنـه

ولم يكتف بهذا الحديث النفسى ، فراح ينقل حديثاً آخر :

يا نفـس إلا تقتلـى تمـوتى هـذا حمـام المـوت قـد لـقيـت
إن تـفـعـلى فـعـلهـما هـديـت أو تـعـرضى عـنـهـم فـقد شـقيت

ولكن مهما تزعزع القائد ـ إذا كان له من إيمانه ما يعصمه ـ فلابد من الثبات بعد ذلك وهذا ما جرى لدى ابن رواحة فقد طغى التدفق الإيمانى عليه ، وانخرط فى القتال حتى قضى شهيداً فى سبيل الله .

وكانت الأزمة الأخيرة ، وهذه الروح المعنوية العالية كفيلة أن تحطم أى روح مهما سمت ، وبعد مقتل الأمراء الثلاثة وانتهاء القيادة من المعركة لم يعد إلا ذبح هذا الجيش كله. فمن هؤلاء من مضى لائذاً بالفرار إلى المدينة لكن أكثرية الجيش عادت فتمالكت . وأخذ الراية ثابت بن أقرم رضي الله عنه ، وهو يحس بثقل الأمانة .

(وصاح : يا للأنصار . فأتاه الناس من كل وجه وهم قليل ، وهو يقول : إلىَّ أيها الناس ، فلما نظر إلى خالد بن الوليد قال : خذ اللواء يا أبا سليمان ! فقال : لا آخذه أنت أحق به ، أنت رجل لك سن ، وقد شهدت بدراً . قال ثابت : خذه أيها الرجل ، فوالله ما أخذته إلا لك فأخذه خالد . . .)[1] .

وهكذا استطاع هذا الجيش المسلم أن يواجه ذلك البحر المتلاطم من البشر بتلك الروح المعنوية العالية ، التى لم ير لها التاريخ مثيلاً إلا فى المحضن الإسلامى .

والذى نؤكده بحمد الله عز وجل أن هذه الروح المعنوية العالية بقيت خلال خمسة عشر قرناً فى الأجيال الإسلامية يرثها الجيل بعد الجيل ، وما تنبت فئة مؤمنة بالإسلام إلا ووجدت فى صفوفها هذه الروح ، حتى جيلنا المعاصر . فلم يعرف تاريخ الحركات السياسية اليوم بطولة نادرة ، واستبسالاً منقطع النظير وضحايا فى سبيل الهدف كما عرف تاريخ الحركة الإسلامية المعاصرة ، وثرى فلسطين وأفغانستان وحماة وغيرها هو أصدق شاهد على ما نقول .

وإذا كان جيش العقيدة بهذه الروح المعنوية العالية ، فهو جيش المبادئ التى بقيت معلماً للبشرية خلال تاريخها الطويل ، حتى صحت البشرية اليوم ووضعت مبادئ فى أصول الحرب ، لم ترتفع بعد إلى المستوى الإسلامى ، فوصية النبى ﷺ للجيش المعد لمقابلة أمم الأرض ، توضح أن الهدف الأعظم فيه هى نشر هذه العقيدة ، وإبلاغ هذا الدين على يد هذه العصبة المؤمنة التى هيأها الله تعالى لذلك « فادعهم إلى الإسلام ، فإن فعلوا فاقبل منهم واكفف عنهم » . ليس الأمر طمعاً فى مال أو أرض أو جاه ، إنما دعوة الناس إلى الدخول فى دين الله .

وحين يحال بين الناس وبين دين الله ، فلا أقل من ألا يحال بينهم وبين

---

(١) إمتاع الأسماع ١/ ٣٤٨ .

شريعة الله والخضوع لهذه الشريعة من خلال الجزية. وهذا الأمر كاف لإنهاء الحرب والكف عن الدماء.

وما لم يكن هذا ولا ذاك ، فمن يحارب شرعة الله تعالى يُحَارَبْ ، ولا يجوز لجيش المبادئ أن يخالف المبادئ التى انطلق لتحقيقها والدعوة إليها ، ومن أجل ذلك نهى رسول الله ﷺ هذا الجيش عن الإخلال بهذه المبادئ قائلاً : « لا تغدروا ولا تغلوا ، ولا تقتلوا وليداً . . . وستجدون رجالاً فى الصوامع معتزلين الناس فلا تتعرضوا لهم ، ولا تقتلوا امرأة ولا صغيراً ضرعاً ولا كبيراً فانيًا» (١) .

فهؤلاء الذين نشدوا السلامة وهجروا الحرب ، كالوليد والمرأة والشيخ الفانى والمتبتل للعبادة ، ليس هم الإسلام القضاء عليهم ، بل هو يحارب من أجلهم ، ويقاتل الذين يشرعون سيافهم ورماحهم فى وجه هذه العقيدة وهذه الشريعة ، ويحولون بين الناس وبين دين الله وشرعته ، ولا يقتل من المدنيين إلا دعاة البغى والانحلال « وستجدون آخرين فى رؤوسهم مفاحص فاقلعوها بالسيوف » .

وهؤلاء الذين انطلقوا فى الأرض وابتعثهم الله ليخرجوا من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ليسوا أوصياء على البشرية حين تستجيب لهم البشرية ، ولا يعنى براءتهم من الخطأ ، وأنهم الناطقون باسم الله ، بل هم بشر ممن خلق ، ومن أجل هذا يدعوهم رسول الله ﷺ إلى أن ينزلوا الناس على ذمهم لا على ذمة الله ورسوله ، وبذلك يكون الخطأ عليهم لا على هذا الدين الذى مضوا يدعون إليه ، ويدعوهم إلى أن ينزلوا الناس على حكمهم لا على حكم الله ورسوله « فإنك لا تدرى أتصيب فيهم حكم الله أم لا » .

وبذلك يلتصق الخطأ بالإنسان لا بعقيدته ، بالقائد لا بدينه .

وهكذا نرى أن هذا الجيش المسلم هو كتيبة دعاة حضرت إلى أرض الشام ؛ لتتابع رسالة المسلم الشهيد الذى قضى نحبه وهو يبلغ رسالة رسول رب العالمين .

ولا نستطيع ونحن نتحدث عن مؤتة إلا الوقوف عند أبطالها الكبار .

فلقد كان زيد رضي الله عنه مولى رسول الله ﷺ ومن أخص خاصته ، فلقد كان حُب رسول الله ﷺ له حبًا مشهوراً عند الصحابة جميعاً، فيطلقون على ابنه أسامة

---

(١) إمتاع الأسماع ١/ ٣٤٩ .

الحبّ ابن الحب. وهو أول مولى على الأرض أشرق قلبه بنور الإسلام، والمهمات الصعبة كانت عليه ، فهو المكلف بعد بدر بإحضار أهل رسول الله ﷺ من قلب مكة ، وحين يحدق الخطر فى أشد أهواله ، فليكن رجل المهمات الصعبة على رأسه ، وحين يقدِّم رسول الله ﷺ لهذه المخاطر أحب الناس إليه ، لا يضن الناس بمهجهم وأرواحهم بين يدى رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام.

وكان الرجل الثانى . . . طرازاً رفيعاً من الرجال .

إنه جعفر بن أبى طالب ، الذى شهدناه داعية إلى الله عز وجل فى الحبشة ، ورئيس الجالية الإسلامية فيها، وأكرمه الله تعالى أن تسلم الملوك على يديه، فهو الذى أوضح الإسلام للنجاشى ، فاعتنقه ، ولم نشهده إطلاقاً مقاتلاً فى معركة ، إنه سفير فوق العادة لفترة خمسة عشر عاماً خلت فى أرض الغربة لساناً ووطناً ودياناً ، إذا به اليوم قائد معركة.

وليس فى الإسلام ذلك الخط الفاصل بين السياسى والجندى والقائد ، فكل مسلم هو جندى فى المعركة مهما علت مرتبته واختلفت وظيفته ، ولا ننسى أنه لم يمر على انضمام جعفر للصف الإسلامى فى المدينة السنة أو تزيد قليلاً عن ذلك ، فقد وصل خيبر بعد الفتح ، وكانت خيبر فى ربيع الأول لسنة سبع ، وكانت مؤتة لجمادى الأولى سنة ثمان.

عام واحد فقط، متع رسول الله ﷺ نفسه برؤية حبيبه جعفر ، ويكفى أن نعرف مبلغ حب رسول الله ﷺ لجعفر ، بعد غربة خمسة عشر عاماً عنه ، إذ إن رؤيته له كانت تعادل هزيمة اليهود ، فقال ـ عليه الصلاة والسلام: «والله ما أدرى بأيهما أنا أسر ؛ بفتح خيبر أم بقدوم جعفر » . وعلى شدة هذا الحب ، وعلى طول تلك الغربة ، عندما لاحت بوارق الصدام مع الروم فكان الرجل الثانى لذلك جعفر بن أبى طالب ، وكان الدرس العملى الأضخم أن يكون المولى زيد ابن حارثة أميراً على جعفر بن أبى طالب القرشى الهاشمى .

وقد شهدنا جعفرًا رضي الله عنه يمضى من أرض الغربة إلى أرض الغربة فيسلخ قرابة نصف عمره فيها ، وحين يحين القتال ، وهو لم يخض معركة من قبل قط ، يبدى من ضروب البسالة والقوة والمقاومة ما تتصاغر أمامه الصناديد الأبطال ، يأخذ الراية بيمينه فتقطع ، ثم يأخذها بشماله فتقطع ، ثم يأخذها بعضديه ، ثم

يسقط شهيداً وقد أفضى إلى ربه وقد انشق نصفين ، فلم يجد إخوته المؤمنون حرجاً أن ينظروا إلى عدد طعناته ورمياته ، فكانت تسعين ما بين ضربة سيف وطعنة رمح .

وكان لابد لأنصار الله ورسوله من أن يشاركوا فى هذا الشرف العظيم على مستوى القيادة، فكان الأمير الثالث هو شاعر الإسلام العظيم عبد الله بن رواحة.

وأن تكون قيادة الجيش بين مولى وسفير وشاعر ؛ ليؤكد أن طاقات الإسلام كلها فى خدمة المعركة ، وأن وقودها فى حالة الخطر هو كل شباب الإسلام .

وحافظ ثابت بن أقرم الأنصارى بعد عبد الله بن رواحة الأنصارى على الراية حتى دفعها فى صدر خالد بن الوليد .

وإذا كانت الغرابة عندنا أن ينضم جعفر رضي الله عنه وهو من أوائل من أسلم إلى جيش مؤتة بعد سنة من عودته ، لكن الأغرب أن يكون خالد بن الوليد فى هذا الجيش ولما يمض ثلاثة أشهر على انضمامه للصف الإسلامى ، بعد حرب عشرين عاماً ضد رسول الله ﷺ ، فلقد أسلم فى صفر سنة ثمان للهجرة ، وتحرك للحديبية فى جمادى الأولى سنة ثمان للهجرة كذلك ، أى أنه أمضى فى مدرسة النبوة فقط شهر ربيع الأول وربيع الثانى وبقايا صفر وجمادى . هذه هى كل حياته فى الصف الإسلامى ، ولو كان فى الحركة الإسلامية اليوم لما حق له أن يوجه أسرة بله يقود معركة .

لقد مضى خالد رضي الله عنه بعزيمة الرجال ، يريد أن يطوى تلك الصفحة السوداء من حياته ، ليكتب صفحة جديدة من نور ، تغسل تلك الصورة القاتمة عن ماضيه فى الصد عن سبيل الله، ومن أجل ذلك فما أن لاحت بوارق التعبئة لمؤتة ، حتى كان من أوائل المنضمين لهذا الجيش ، ونفسه تتوق إلى تلك اللحظة التى يشهر فيها سيفه فى سبيل الله .

ولكنه قدر الله تعالى الذى ادخر هؤلاء الرجال لهذه الأزمات .

لم يكن يدرى ابن الوليد أنه سيكون فى موقع الاختبار منذ اللحظات الأولى، بل فى موضع القيادة العليا فى الجيش،والغريب أن الذى اختاره لذلك هو أنصارى بدرى ورضى المسلمون بذلك ، وكانت مفاجأة مذهلة لخالد ، هكذا وبكل هذه

البساطة يغدو قائداً لجيش محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ ويسلمه القيادة واللواء الأنصارى البدرى ثابت بن أقرم ، بل لم يدع المسلمون له لحظة اعتذار ، فهو بطل المرحلة ، والجيش الآن على أتون المذبحة الرهيبة بين يدى الروم . لقد دفع إليه اللواء . والمسلمون معدون للفناء بسيوف الروم .

وظهرت معادن الرجال ، وبطولات الرجال ، وعبقريات الرجال .

ويا لعظمة هذا الدين .

خالد الذى همَّ قبل عام ونصف أن ينقض على محمد ﷺ فى صلاة العصر فى الحديبية لينهى هذا الصابئ وجنده ـ على حد زعمه ـ يطلب منه الآن وبعد أقل من ثلاثة أشهر من إسلامه أن ينقذ جيش محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ من المذبحة المحتمة مذبحة الروم.

وخالد الذى انقضّ فعلاً على محمد ﷺ قبل خمس سنوات من الخلف، وحطم النصر المؤزر الذى حققه المسلمون يطلب منه اليوم أن يعيد الكرة ، فينقذ الجيش المنهزم المعروض للذبح من الفناء ، مع فارق واحد هو أن جيشه الذى استعاد النصر فيه فى أحد كان أربعة أضعاف جيش محمد ﷺ ، بينما يطلب منه الآن أن يستعيد النصر بجيش قوامه ثلاثة آلاف مقاتل على جيش قوامه مائتى ألف، أى يطلب منه أن يستعيد النصر على جيش يبلغ سبعين ضعفاً من جيشه على التقريب، ومع ذلك فقد تحقق النصر ، وفتح الله تعالى على يديه.

إن روايات السيرة تذكر أنه نجا بالجيش وفر فيه ، لكن أصح الروايات ـ والتى سقنا ثلاث روايات منها فى البخارى فقط ـ تؤكد أن فتح الله تعالى قد تم على يديه ، وأن الروم قد هزموا هزيمة منكرة ، بعد أن استعمل حيلته الحربية البارعة فى فتّ عضد الروم بتغيير مواقع جيشه .

ويجمع ابن كثير ـ رحمه الله ـ بين روايات السيرة التى تؤكد خروج أطفال المدينة لملاقاة الجيش بالحجارة لأنهم فروا من المعركة ، وبين روايات البخارى عن رسول الله ﷺ بانتصار المسلمين، فى أن فصيلة من هذا الجيش، وفيها عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، قد فرت بعد أن أطبق الموت عليها ونجت بأنفسها إلى المدينة، أما أكثرية الجيش فقد بقيت فى أرض المعركة تذود عن حمى الإسلام ، واستحق خالد رضي الله عنه

فى هذه المعركة أرفع وسام فى الجيش الإسلامى ، وأعلى رتبة ، ولم ينل هذا الوسام أحد بعده ولا أحد قبله ، أعلنه رسول الله ﷺ على المنبر . فقال :

« وأخذ الراية سيف من سيوف الله سله الله تعالى على المشركين ، جعل الله النصر على يديه » . إنها لقفزة هائلة فى الميدان العسكرى من جندى عادى مغمور إلى قائد فذ يقلده رسول الله ﷺ هذا الوسام ، ومضى معه حتى لقى به العرب والفرس والروم ، فقال له قائد جيش الروم فى اليرموك : هل أنزل الله سيفاً من السماء فأعطاكه ، فلا تسلَّه على قوم إلا هزمتهم ؟ ولم ينزل الله تعالى سيفاً من السماء ، بل أنبت هذا السيف من صلب الوليد بن المغيرة الذى هجاه الله تعالى فى كتابه ، ونقله بعد عشرين عاماً من قلعة الشرك إلى قلعة الإيمان، فإذا معادن الرجال تبرز صارمة صارخة كما يقول ـ عليه الصلاة والسلام : « الناس معادن ، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا » (١) .

وتبدو أهمية هذه السمة فى هذه المرحلة ، فى أنها كانت توطئة للفتح الأعظم فى مكة، وكانت كذلك تهيئة للقبائل العربية أن تنضم للإسلام . ولا شك أن ارتفاع معنويات المسلمين قد بلغ الذروة بعد غزوة مؤتة ، حيث حدثهم رسول الله ﷺ عن الفتح الذى تم على يد خالد رضي الله عنه على المنبر ، وقبل وصول الجيش الإسلامى من مؤتة، وعاشت المدينة أفراح النصر وآلام الضحايا فى لحظة واحدة. وكان أطفال المدينة من اليقظة والوعى ما يضاهئون به يقظة ووعى أبطال الأرض ، فمع الحيصة الأولى كانوا يقذفون الفصيل المنهزم بالحجارة ويقولون : أنتم الفرار فى سبيل الله ، ولم يخفف من وطأة هذا الهجوم إلا قول الرسول ﷺ لهم : «بل أنتم الكرارون إن شاء الله » ، ومع ذلك فقد عاشوا جوّا من الهم والقلق، رغم عذر رسول الله ﷺ،بينما خرج الأطفال أنفسهم يشتدون مع رسول الله ﷺ يستقبلون الجيش المنتصر ، وعلى رأسه سيف الله المسلول خالد بن الوليد .

والحركة الإسلامية اليوم بحاجة إلى أن تتدبر هذه المعانى العظيمة فى هذه المعركة، وتبحث عن أفذاذ الرجال الذين يعدل الواحد منهم الألف بل المائة ألف. والذين غمروا أو حالت الظروف دون بروزهم وظهورهم، وقد يكون بين خصومها الأقوياء من يدّخره الله تعالى ليكتب نصره على يديه فما ندرى؟ إذ ما الذى يمنع

(١) مسلم فى البر والصلة والآداب (٢٦٣٨ / ١٦٠) .

من أن تتكرر تجربة أفلاذ كبد مكة مرة ثانية، ولعل فى رجالها وشبابها المنتشرين فى أراضى الغربة فى أوربة وأمريكا ، من هو مؤهل لمثل هذه المواقع، وما أحوج الدعوة إلى أمثال جعفر الطيار ، وسيف الله ابن الوليد .

لقد قال الله تعالى للمؤمنين الغاضبين الحانقين يوم صلح الحديبية :

﴿ ولولا رجالٌ مُؤْمنُون ونساءٌ مُؤْمناتٌ لَمْ تعْلَمُوهُمْ أن تطئُوهُمْ فتُصيبكُم منهُم معرةٌ بغيْر علْم...﴾ [الفتح : ٢٥] .

وتحقق موعود الله بالثورة الإسلامية التى قادها أبو بصير ﷺ ، وأنقذ الرجال المؤمنين والنساء المؤمنات ، وشاء قدر الله تعالى أن تتأجل المعركة كذلك رغم هم وغم المسلمين ثم كان الوعد الآخر :

﴿ ... ليُدْخل اللَّهُ في رحْمته من يشاءُ ﴾ .

وأدخل الله فى رحمته بعد الحديبية هذه النماذج: خالد بن الوليد، وعمرو ابن العاص ، وعثمان بن طلحة : ﴿ لَوْ تزيَلُوا لعذَّبْنَا الَّذين كفرُوا منهُمْ عذَابًا أليما ﴾

[الفتح : ٢٥]

إنها الأقدار . . . ولعل أقدار الحركة الإسلامية فى هذا الجيل حين يبطئ النصر ، وتدلهم المحنة ، ويفدح الخطب ، أن تكون إرهاصات لأن يدخل الله فى رحمته من يشاء ، فيكون منعطفاً فى تاريخ الأمة والحركة ، وينقذ الله تعالى الرجال المؤمنين والنساء المؤمنات من براثن الكفر وأيدى الطغاة فيشاركون فى معركة الحق الأبلج . . . ويكونون الوقود الأساسى لمعارك الإسلام وهم عشرات الألوف .

وفى أعقاب مؤتة وعلى خطاها كانت غزوة ذات السلاسل ، وكان بطلها فلذة كبد مكة الثانى عمرو بن العاص ، وقد ذكرها الحافظ البيهقى ها هنا قبل غزوة الفتح ، فساق من طريق موسى بن عقبة وعروة بن الزبير قالا : بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل من مشارف الشام فى بَلِىّ وعبد الله ومن يليهم من قضاعة . قال عروة بن الزبير: وبنو بلى أخوال العاص بن وائل. فلما صار إلى هناك خاف من كثرة عدوه ، فبعث إلى رسول الله ﷺ يستمده ، فندب رسول الله ﷺ المهاجرين الأولين فانتدب أبو بكر وعمر فى جماعة من سراة

المهاجرين ﷺ أجمعين ، وأمَّر عليهم رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح . قال موسى بن عقبة : فلما قدموا على عمرو قال : أنا أميركم وأنا أرسلت إلى رسول الله ﷺ أستمده بكم ، فقال المهاجرون : بل أنت أمير أصحابك وأبو عبيدة أمير المهاجرين . فقال عمرو : إنما أنتم مدد أمددته . فلما رأى ذلك أبو عبيدة ـ وكان رجلاً حسن الخلق لين الشكيمة ـ قال : تعلم يا عمرو أن آخر ما عهد إلى رسول الله ﷺ أن قال : « إذا قدمت إلى صاحبك فتطاوعا » ، إنك إن عصيتنى لأطيعنك ، فسلم أبو عبيدة الإمارة لعمرو بن العاص .

قال الواقدى : حدثنى ربيعة بن عثمان عن يزيد بن رومان أن أبا عبيدة لما آب إلى عمرو بن العاص فصاروا خمسمائة ، فساروا الليل والنهار حتى وطئ بلاد بلى ودوخها . وكلما انتهى إلى موضع بلغه أنه قد كان بهذا الموضع جمع ، فلما سمعوا بك تفرقوا حتى انتهى إلى أقصى بلاد بلى وعذرة وبلقين ، ولقى فى آخر ذلك جمعاً ليس بالكثير فاقتتلوا ساعة ، وتراموا بالنبل ساعة ، وحمل المسلمون عليهم فهزموا ، وأعجزوا هرباً فى البلاد وتفرقوا ، ودوخ عمرو ما هناك وأقام أياماً لا يسمع لهم بجمع ولا مكان صاروا فيه ، وكان يبعث أصحاب الخيل فيأتون بالشاة والنعم فكانوا ينحرون ويذبحون ، ولم يكن فى ذلك أكثر من ذلك ، ولم تكن غنائم تقسم .

وقال أبو داود عن . . . عمرو بن العاص قال : احتلمت فى ليلة باردة فى غزوة ذات السلاسل ، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك ، فتيممت ثم صليت بأصحابى الصبح ، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال : « يا عمرو ، وصليت بأصحابك وأنت جنب ؟ » قال : فأخبرته بالذى منعنى من الاغتسال وقلت : إنى سمعت الله يقول : ﴿ **ولا تقتلوا أنفسكم إنَّ اللَّه كان بكم رحيماً** ﴾ [النساء : ٢٩] . فضحك نبى الله ولم يقل شيئاً .

وقال الحافظ البيهقى عن أبى عثمان النهدى : سمعت عمرو بن العاص يقول : بعثنى رسول الله ﷺ على جيش ذات السلاسل وفى القوم أبو بكر وعمر ، فحدثت نفسى أنه لم يبعثنى على أبى بكر وعمر إلا لمنزلة لى عنده ، قال : فأتيته حتى قعدت بين يديه قلت : يا رسول الله ، من أحب الناس إليك ؟ قال : «عائشة » ، قلت : إنى لست أسألك عن أهلك ، قال : « فأبوها » ، قلت :

ثم من ؟ قال: « عمر »، قلت : ثم من ؟ حتى عدد رهطاً . قال : قلت فى نفسى: لا أعود أسأل عن هذا .

وقد خرجاه فى الصحيحين ، وفى رواية : فسكت مخافة أن يجعلنى آخرهم[1] .

فقد كانت ذات السلاسل على غرار مؤتة وللهدف نفسه، ونجد هنا رسول الله ﷺ يختار عمرو مباشرة ليعجم عوده فى الخط الإسلامى ، وبطبيعة عمرو الحذرة الداهية طلب المدد حيطة لما بلغه من كثرة العدو ، وكان مدداً من خيار أهل الأرض ، فمعظمهم من المهاجرين الأولين وأمَّر عليهم أبا عبيدة وفيهم أبو بكر وعمر .

إنها ليست معركة ، أو ساحة تدريب ، إنها مدرسة تربوية فذة يشهد فيها عمرو بن العاص ابن الثلاثة أشهر فى حضن الإسلام . كيف يمد بخيرة أهل الأرض أبى بكر وعمر ، ويشمخ أنفه أن يكون أميراً على الذين أمضوا قرابة عشرين عاماً فى حضن الدعوة ، ولا يرضى أن يكون تبعاً لأبى عبيدة . وعظمة أبى عبيدة وسماحته ووصية رسول الله ﷺ له ألا يختلفا دفعته للقول : لئن عصيتنى لأطيعنك، وسلم إمرة الجيش لعمرو بن العاص الذى كان قبل فترة وجيزة يخطط لضرب عنق رسول محمد ﷺ فى الحبشة .

ومن حيث الحرب فلقد أبدى إمكانات فائقة ونفذ الهدف المرسوم كله ، ووطئ أرض قضاعة إذ كان مهيأ لذلك ، فأمه أو أخواله من بلى من قضاعة .

إن أحداث المعركة وتحقيق أهدافها العسكرية لا يعنينا كثيراً بمقدار ما يعنينا بناء هذا الصف المسلم .

هذا الصف الذى دخله من جديد أفواج ضخمة بالألوف، وفيهم من الشخصيات النابهة أمثال خالد وعمرو ، إنه مجتمع يبنى بسرعة فائقة ، ويعد لحرب طاحنة فيما بعد ، فلابد أن ينصهر هذا المجتمع الجديد ، وتتمكن القاعدة الصلبة الأولى أن تضم هذه العناصر الجديدة، وتتكيف معها وتكيفها مع الإسلام، لابد أن يقوم الرعيل الأول بالتجارب الرائدة الفذة ، بالإيثار المطلوب ، بالتضحية

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٤/ ٢٧٥، ٢٧٦ .

المناسبة ، بالبعد عن مراكز الشهرة ليتيح للطاقات الجديدة أن تأخذ مداها وحجمها وتبرز مكنون مواهبها .

واستطاعت هذه القاعدة الصلبة التى لم تكن تتجاوز ثلاثة آلاف أن تفتح صدرها لثلاثة أضعافها خلال هذين العامين ، وبسرعة هائلة امتصت هذه الطاقات دون أن يقع الصراع ، أو يقع التصادم، أو تبرز الأنانيات، والصراع على السلطة، فيكون أبو بكر وعمر وأبو عبيدة ﷺ جنوداً تحت إمرة عمرو بن العاص.

نكتب هذا الكلام وتقف الذاكرة عند واقع الحركة الإسلامية المعاصرة لتنهج هذا النهج، وإنى لأتصور بعض قادة الكفر وقد هداه الله تعالى للإسلام ، كيف تكون نظرة الشباب المسلم الحادة له،وتبالغ فى الصفاء والنقاء والحديث عنه لدرجة تتهم فيها قيادة الحركة بمالأة الأعداء، والانطلاق فى تيار الاحتواء،وأتصور كذلك هذه العواطف الصادقة، وقد شهدت مثل حادثة الصلاة التى صلاها عمرو ﷺ، حتى ليصلى بعد التيمم ، ويظهر أن الأمر لم يكن واضحاً للقاعدة الإيمانية بجواز التيمم للتعذر عن استعمال الماء ، ومن أجل هذا كان الأمر مستغرباً ، ووصل إلى رسول الله ﷺ ويسأله : « أصليت بالناس وأنت جنب ؟ ».

ومن ظاهر جواب عمرو ﷺ أنه اجتهد دون الاستناد على حكم ثابت بجواز التيمم عن الجنابة ، ولذلك ذكر لرسول الله ﷺ اعتماده على قول الله عز وجل : ﴿ **ولا تقتلوا أنفسكم إنَ اللهَ كانَ بكُمْ رحيما** ﴾ [النساء : ٢٩] ، وضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً .

لقد أقر عمراً على اجتهاده وليس ضحكه إلا دعابة له وموافقة على سلوكه .

أقول : لو جرت مثل هذه الحادثة فى الصف المسلم اليوم ، وأقدم قائد حديث العهد بالإسلام على هذا الأمر فصلى بالناس وهو جنب ؛ لاتهمت قيادة الجماعة بالكفر البواح ولخرج أكثر الصف على هذه القيادة .

فالحركة الإسلامية اليوم تعانى أزمة ثقة ضخمة بقياداتها ، والأصل أنها تضعها موضع الشبهة والظنة والتهمة ، فى صلاتها مع خصومها .

وما أحوج شباب الحركة الإسلامية الذين هم وقود معاركها ، أن يفتحوا صدرهم لمثل هذه الحادثة من السيرة ، ويروا أكبر أعداء الإسلام ، قد صار بعد

ثلاثة أشهر من إسلامه أميراً على المهاجرين الأولين ، وفيهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وأمثالهم، ثم يصلى بالناس على جنابته بعد التيمم ويقتدى به المهاجرون الأولون .

إن هذه التجربة الرائدة فى تاريخ الأمم ما كانت لتنجح فى إضافة ثلاثة أضعافها ونيف، خلال سنتين وتأخذ هذه الأعداد موقفها الحقيقى فى الصف ، وتقدم كل طاقاتها فى سبيل الله ، لو لم تكن القاعدة الصلبة الأولى على المستوى المطلوب من الانضباط والالتزام والطاعة والصبر والإيثار والتفانى فى سبيل الله وغياب الذات .

ونحن لا ننفى إطلاقاً بل نقول: إن الدور الأضخم والأكبر الذى ساعد هذه القاعدة على تمثل هذه العناصر الجديدة هو شخص القائد الأعظم محمد ﷺ الموحى إليه من الله تعالى ، ومن أجل ذلك لا يقف الجندى المسلم ليفكر لحظة فى مناقشة الأمر ، طالما أنه من رسول الله ﷺ لكنه يفكر فى كيفية التنفيذ وسرعته فى التو واللحظة .

فأبو عبيدة رضي الله عنه لم يقف ليوازن كثيراً نتائج تنازله عن الإمرة لعمرو ، واحتمالات أخطائه الكثيرة وهو الجديد على الإسلام ، بل كانت وصية رسول الله ﷺ مناراً هادياً له : « لا تختلفا ، تطاوعا » . فاستجاب على التو وقال : لئن عصيتنى لأطيعنك .

وتبدو أهمية التربية لهؤلاء القادة الكبار الذين انضموا للصف الإسلامى من جديد من خلال العرض الأخير الذى عرضه لنا عمرو رضي الله عنه ، إذ حدثنا صراحة أن إمرته على أبى بكر وعمر وأمثالهم جعلت لديه غروراً بأنه أفضل من هؤلاء جميعاً ، أو على الأقل أحب إلى رسول الله ﷺ منهم، ولكى يؤكد هذا المعنى، يأتى ليسأل نبى الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن أحب الناس إليه ، وكان يتوقع الجواب أن يكون هو ذلك الإنسان ، فإذا به يفاجأ بأن أحب الناس إلى رسول الله ﷺ بعد عائشة زوجه هو جنديه الذى كان تحت إمرته أبو بكر ، وجنديه الذى كان تحت إمرته عمر ، وجنديه الذى كان تحت إمرته أبو عبيدة ، وعدد رهطاً من الصحب ، واستحيا عمرو من ذكر هؤلاء الرهط حتى توقف عن الاستفسار خشية أن يكون آخرهم ، وكان لابد أن يتلقى عمرو فى مدرسة النبوة هذا الدرس

الشديد، حتى يفرق بين المهمة المحددة والموقع الأصيل، يفرق بين التكليف والإكرام وبين الثقة بالمجاهدين الأولين الذين أمضوا حياتهم وأفنوا عمرهم فى سبيل الله .

واكتفى بهذه الإجابات لتجعله ضمن المدى الذى حدَّد له ، ورضى الله عنهم أجمعين. فلم يغضب ولم تتحرك الجاهلية فى كيانه ، بل أصبح لاحقاً بهذا الرعيل ، فيقدم لنا ذاته بخطأ تصوره وعظمة إكباره للشيخين أبى بكر وعمر، وإخوانهما من المهاجرين الأولين.

وليستفد الشباب المسلم من هذا الدرس كذلك ، وليضعوا ذاتهم خلفهم وليتقبلوا تقويم قيادتهم لهم فى المهمات والملمات ، دون أن يضعوا أنفسهم فوق ما يستحقون، ودون آن يحملوا على قيادتهم حين لا تستجيب لأهوائهم كما يشتهون.

ونعرض أخيراً هذه الجوانب الجزئية كلها لتنضم فى إطار هذه السمة التى لاحظنا خطوطها العريضة فى مواجهة الروم ، وفى بناء الصف الداخلى المتلاحم المذهل ، وأن هذه التوطئة قد كانت إيذاناً بالتوجه نحو مكة لتحقيق الفتح الأكبر، وكان جنود المرحلة الأولى كأنما كلف كل واحد منهم بالعديد من إخوانه يثقفه فقهاً ويربيه سلوكا، وينصحه قدوة ويبنيه مسلماً مخلصاً خالصاً من براثن الجاهلية، لتتسع القاعدة الصلبة المتجهة إلى مكة إلى عشرة آلاف مقاتل .

والحركة التى تعجز عن استيعاب عناصرها الجديدة ، سوف تنفصم وتتشرذم إلى جماعات عدة .

وحركتنا الإسلامية التى تعانى من هذا الداء العضال ، يحسن أن تفقه هذا الدرس وتخطط للاستيعاب الحقيقى للطاقات الجديدة الفتية ، قبل أن تأكلها هذه الطاقات وتقضى عليها ، بدل أن تكون البنيان المرصوص الجديد .

السمة الثانية عشرة

نصر الله والفتح ـ فتح مكة

قال ابن إسحاق : ثم أقام رسول الله ﷺ بعد بعثه إلى مؤتة جمادى الآخرة ورجباً ، ثم إن بنى بكر بن عبد مناة بن كنانة عدت على خزاعة وهم على ماء لهم بأسفل مكة يقال له : الوتير .

فلما تظاهرت بنو بكر وقريش على خزاعة وأصابوا منهم ما أصابوا ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد والميثاق بما استحلوا من خزاعة ، وكانت فى عقده وعهده ، خرج عمرو بن سالم الخزاعى ثم أحد بنى كعب حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة ، وكان ذلك مما هاج فتح مكة ، فوقف عليه وهو جالس فى المسجد بين ظهرانى الناس . فقال :

يا رب إنى ناشد محمدا حلف أبينا وأبيه الأتلدا

فانصر رسول الله نصراً أعتدا وادعو عباد الله يأتوا مددا

إن قريشاً أخلفوك الموعدا ونقضوا ميثاقك المؤكدا

هم بيتونا بالوتير هجدا وقتلونا ركعاً وسجدا

فقال رسول الله ﷺ : « نصرت يا عمرو بن سالم » ، ثم عرض لرسول الله ﷺ عنان من السماء فقال : « إن هذه السحابة لتستهل بنصر بنى كعب » .

ثم خرج أبو سفيان حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة ، فدخل على ابنته أم حبيبة بنت أبى سفيان ، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه، فقال : يا بنية، ما أدرى أرغبت بى عن هذا الفراش،أم رغبت به عنى؟ قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مشرك نجس، ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ ، قال : يا بنية، لقد أصابك بعدى شر .

ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ، فكلمه فلم يرد عليه شيئاً ، ثم ذهب إلى أبى بكر فكلمه أن يكلم له رسول الله، فقال : ما أنا بفاعل ، ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه فقال: أأنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ ؟ والله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به ، ثم خرج فدخل على علىٍّ بن أبى طالب ـ رضوان الله عليه ـ وعنده فاطمة بنت رسول الله ﷺ رضي الله عنها وعندها حسن بن على غلام يدب بين يديها ، فقال : يا على ، إنك أمس القوم بى رحماً، وإنى قد جئت فى حاجة فلا أرجعن كما جئت خائبا، فاشفع لى إلى رسول الله ﷺ. فقال: ويحك يا أبا سفيان، والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه ، فالتفت إلى فاطمة فقال : يا ابنة محمد ، هل لك أن تأمرى بنيَّك هذا فيجير بين الناس ، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟ قالت : والله ما بلغ بنىَّ ذاك أن يجير بين

الناس إذ ما يجير أحد على رسول الله ﷺ . قال : يا أبا الحسن ، إنى أرى الأمور قد اشتدت علىَّ فانصحنى ، قال : والله ما أعلم لك شيئاً يغنيك ، ولكنك سيد بنى كنانة فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك ، قال : أو ترى ذلك مغنياً عنى شيئاً . قال : لا والله ما أظنه ، ولكنى لا أجد لك غير ذلك . فقام أبو سفيان فى المسجد فقال : أيها الناس إنى قد أجرت بين الناس ، ثم ركب بعيره وانطلق ، فلما قدم على قريش قالوا: ما وراءك ؟ قال: جئت محمداً فكلمته ، فوالله ما ردَّ على شيئاً ، ثم جئت ابن أبى قحافة فلم أجد فيه خيراً ، ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أدنى العدو ، ثم جئت عليّا فوجدته ألين القوم ، وقد أشار على بشىء صنعته ، فوالله ما أدرى أيغنى ذلك شيئاً أم لا ؟ قالوا: وبم أمرك ؟ قال: أمرنى أن أجير بين الناس، ففعلت ، قالوا : فهل أجاز ذلك محمد ؟ قال : لا. قالوا : ويلك ، إن زاد الرجل على أن لعب بك فما يغنى عنك ما قلت . قال : لا والله ما وجدت غير ذلك .

تجهيز الرسول لفتح مكة :

وأمر رسول الله ﷺ بالجهاز ، وأمر أهله أن يجهزوه فدخل أبو بكر على ابنته عائشة رضي الله عنها ، وهى تحرك بعض جهاز رسول الله ﷺ ، فقال : أى بنية ، أأمركم رسول الله ﷺ أن تجهزوه ؟ قالت : نعم ، فقال : فأين تزينه يريد ؟ قالت : لا والله ما أدرى ، ثم إن رسول الله ﷺ أعلم الناس أنه سائر إلى مكة، وأمرهم بالجد والتهيؤ . وقال : « اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها » ، فتجهز الناس .

كتاب حاطب إلى قريش :

قال ابن إسحاق : وحدثنى محمد بن جعفر بن الزبير ، عن عروة بن الزبير وغيره من علمائنا قالوا : لما أجمع رسول الله ﷺ المسير إلى مكة كتب حاطب بن أبى بلتعة كتاباً إلى قريش يخبرهم بالذى أجمع عليه رسول الله ﷺ من الأمر فى السير إليهم ، ثم أعطاه امرأة . . . وجعل لها جعلاً على أن تبلغه قريشاً ، فجعلته فى رأسها ، ثم فتلت عليه قرونها ، ثم خرجت به ، وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما صنع حاطب، فبعث على بن أبى طالب والزبير بن العوام رضي الله عنهما فقال : « أدركا امرأة قد كتب معها حاطب بن أبى بلتعة بكتاب إلى قريش يحذرهم

ما قد أجمعنا له فى أمرهم » . فخرجا حتى أدركاها ـ بالخليقة ، خليقة بنى أبى أحمد ـ فاستنزلاها فالتمسا فى رحلها فلم يجدا شيئاً، فقال لها على بن أبى طالب : إنى أحلف بالله ما كذب رسـول الله ﷺ ولا كُذِبنا، ولتُخرجِن لنا هذا الكتاب أو لنكشفنك، فلما رأت الجد منه، قالت : أعرض ، فأعرض ، فحلّت قرون رأسها فاستخرجت الكتاب منها، فدفعته إليه فأتى به رسول الله ﷺ، فدعا حاطباً فقال: « يا حاطب، ما حملك على هذا ؟ » فقال : يا رسول الله ، أما والله إنى لمؤمن بالله ورسوله ما غيرت وما بدّلت ، ولكنى كنت امرأ ليس لى فى القوم أصل ولا عشيرة ، وكان لى بين أظهرهم ولد وأهل ، فصانعتهم عليه . فقال عمر ابن الخطاب : يا رسول الله ، دعنى فلأضرب عنقه ، فإن الرجل قد نافق ، فقال رسول الله ﷺ : « وما يدريك يا عمر، لعل الله اطلع على أهل بدر يوم بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » ، فأنزل الله تعالى فى حاطب: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة ...** ﴾ إلى قوله : ﴿ **قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده ...** ﴾ إلى آخر القصة [الممتحنة: ١ـ ٤].

خروج الرسول فى رمضان :

قال ابن إسحاق: وحدثنى محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى ، عن عبيد الله ابن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن عبد الله بن عباس قال : ثم مضى رسول الله ﷺ لسفره واستخلف على المدينة أبا رهم ـ كلثوم بن الحصين بن عتبة بن خلف الغفارى ـ وخرج لعشر مضين من رمضان ، فصام رسول الله ﷺ وصام الناس معه، حتى إذا كان بالكديد بين عسفان وأمج أفطر ،ثم مضى حتى نزل مرّ الظهران فى عشرة آلاف من المسلمين فسبّعت سليم ، وبعضهم يقول : ألّفت ، وألّفت مزينة ، وفى كل القبائل عدد وإسلام ، وأوعب مع رسول الله ﷺ المهاجرون والأنصار فلم يتخلف عنه منهم أحد، فلما نزل رسول الله ﷺ مر الظهران ، وقد عميت الأخبار عن قريش ، فلم يأتهم خبر عن رسول الله ﷺ ولا يدرون ما هو فاعل ، وخرج فى تلك الليالى أبو سفيان بن حرب ، وحكيم بن حزام ، وبديل ابن ورقاء يتحسسون الأخبار ، وينظـرون هـل يجدون خبراً أو يسمعون به، وقد كان العباس بن عبد المطلب لقى رسول الله ﷺ ببعض الطريق.

هجرة العباس :

قال ابن هشام : لقيه بالجحفة مهاجراً بعياله ، وقد كان قبل ذلك مقيماً بمكة على سقايته ، ورسول الله ﷺ عنه راضٍ ، فيما ذكر ابن شهاب الزهرى .

إسلام أبى سفيان بن الحارث وعبد الله بن أمية :

وقد كان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وعبد الله بن أبى أمية بن المغيرة قد لقيا رسول الله ﷺ أيضا بنيق العقاب فيما بين مكة والمدينة، فالتمسا الدخول عليه ، فكلمته أم سلمة فيهما، فقالت : يا رسول الله، ابن عمك وابن عمتك وصهرك ، قال : « لا حاجة لى بهما ، أما ابن عمى فقد هتك عرضى ، وأما ابن عمتى وصهرى فهو الذى قال لى بمكة ما قال » ، قال : فلما خرج الخبر إليهما بذلك، ومع أبى سفيان ابن له. فقال: والله ليأذنن لى أو لآخذنَّ بيدى بنى هذا، ثم لنذهبنَّ فى الأرض حتى نموت عطشاً وجوعًا، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ رق لهما ثم أذن لهما فأسلما .

قصة إسلام أبىّ سفيان على يد العباس :

فلما نزل رسول الله ﷺ مرَّ الظهران ، قال العباس بن عبد المطلب : فقلت: واصباح قريش، والله لئن دخل رسول الله ﷺ مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه؛ إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر قال : فجلست على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء، فخرجت عليها، قال: حتى جئت الأراك، فقلت: لعلى أجد بعض الحطابة أو صاحب لبن أو ذا حاجة يأتى مكة ،فيخبرهم بمكان رسول الله ﷺ ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة . قال : فوالله إنى لأسير عليها ، وألتمس ما خرجت له ، إذ سمعت كلام أبى سفيان وبديل بن ورقاء، وهما يتراجعان ، وأبو سفيان يقول : ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً ، قال: يقول بديل : هذه والله خزاعة حمشتها الحرب، قال: يقول أبو سفيان: خزاعة أذل وأقل من أن تكون نيرانها وعسكرها ، قال : فعرفت صوته ، فقلت : أبا حنظلة ، فعرف صوتى فقال: أبو الفضل ؟ قال : قلت : نعم ، قال : مالك ؟ فداك أبى وأمى، قال : قلت: ويحك يا أبا سفيان هذا رسول الله ﷺ فى الناس ، واصباح قريش والله ، قال : فما الحيلة ؟ فداك أبى وأمى ، قال : قلت : والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب فى عجز هذه البغلة حتى آتى بك رسول الله ﷺ فأستأمنه لك.

قال : فركب خلفي ورجع صاحباه، قال : فجئت به كلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا : من هذا ؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ وأنا عليها قالوا : عم رسول الله ﷺ على بغلته حتى مررت بنار عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال : من هذا ؟ وقام إلى ، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال: أبو سفيان عدو الله، الحمد لله الذى أمكن منك بغير عقد ولا عهد، ثم خرج يشتد نحو رسول الله ﷺ وركضت البغلة فسبقته بما تسبق الدابة البطيئة الرجل البطيء . قال : فاقتحمت عن البغلة ، فدخلت على رسول الله ﷺ ، ودخل عليه عمر ، فقال : يا رسول الله ، هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد فدعنى فلأضرب عنقه ، قال : قلت : يا رسول الله، إنى قد أجرته ثم جلست إلى رسول الله ﷺ ، فأخذت برأسه فقلت : والله لا يناجيه الليلة دونى رجل ، فلما أكثر عمر فى شأنه قال: قلت : مهلاً يا عمر، فوالله أن لو كان من بنى عدى بن كعب ما قلت هذا ، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بنى عبد مناف . فقال : مهلاً يا عباس ، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلىَّ من إسلام الخطاب لو أسلم ، وما بى إلا أنى قد عرفت إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب لو أسلم، فقال : اذهب به يا عباس إلى رحلك ، فإذا أصبحت فأتنى به .

قال : فذهبت إلى رحلى فبات عندى ، فلما أصبح غدوت به إلى رسول الله ﷺ فلما رآه رسول الله ﷺ قال : « ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله ؟» قال: بأبى أنت وأمى ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله آخر غيره لقد أغنى عنى شيئاً بعد، قال: « ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟ » قال : بأبى أنت وأمى ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، أما هذه والله فإن فى النفس منها شيئاً . فقال له العباس : ويحك! أسلم واشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله قبل أن تُضرب عنقك ، قال: فشهد شهادة الحق ، فأسلم. قال العباس: قلت : يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر فاجعل له شيئاً، قال: «نعم ، من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن» فلما ذهب لينصرف قال رسول الله ﷺ: « يا عباس، احبسه بمضيق الوادى عند خطم الجبل[1] ، حتى تمر به جنود الله فيراها » . قال : فخرجت حتى

(١) خطم الجبل . أنفه حيث يضيق .

حبسته بمضيق الوادى حيث أمرنى رسول الله أن أحبسه. قال: ومرت القبائل على راياتها كلما مرت قبيلة قال : يا عباس، من هذه ؟ فأقول: سُليم، فيقول : مالى ولسليم ، ثم تمر القبيلة فيقول: يا عباس ، من هؤلاء ؟ فأقول : مزينة ، فيقول : مالى ولمزينة ، حتى نفذت القبائل ما تمر به قبيلة إلا يسألنى عنهم ، فإذا أخبرته بهم قال : مالى ولبنى فلان ، حتى مرّ رسول الله ﷺ فى كتيبته الخضراء فيها المهاجرون والأنصار رضي الله عنهم لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد ، فقال : سبحان الله يا عباس ،من هؤلاء ؟ قلت: هذا رسول الله فى المهاجرين والأنصار . قال : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً ، قال : قلت : يا أبا سفيان ، إنها النبوة . قال : فنعم إذن [1] .

* * *

ليس ببعيد أن تكون الأنباء قد وردت متضاربة لأهل مكة حول نتائج سرية مؤتة ؛ لأن نقض قادة قريش للعهد لابد أن يكون وراءه خلفية معينة حول ضعف محمد وأصحابه، فبعد خيبر ارتفعت الثقة بقوة المسلمين، أما إذا وصلت الأنباء إلى مكة عن فرار جيش محمد من الروم ، فهذا يطمع فى فتح هذه الجبهة ، خاصة وأن الذين ساهموا فى نقض العهد هم الذين أبرموه، سهيل بن عمرو ، ومكرز بن حفص ، وحويطب بن عبد العزى ، مع آخرين، وقد تكون القضية اندفاعاً وحمية عمياء ، إذ يذكر المقريزى (أن أنس بن زنيم الدبلى هجا رسول الله ﷺ ، فسمعه غلام من خزاعة فضربه فشجه ، فثار الشر بين بنى بكر ـ حلف قريش ـ وبين خزاعة ـ حلف رسول الله ﷺ) [2] .

وتبدو محاولة مكشوفة ، تلك التى لجأت إليها قريش فى إرسال أبى سفيان لتلافى الأمر وزيادة المدة وتأكيد العهد ، لأنه لن يغيب عن ذهن قريش أن خزاعة ستستنجد برسول الله ﷺ حليفها الأكبر ، ولقد أدرك أبو سفيان منذ اللحظات الأولى فشل مهمته حين تأكد من أن بديل بن ورقاء الخزاعى قد وفد إلى المدينة والتقى برسول الله ﷺ بعد أن فرك بعر راحلة بديل بيده، وقال: أحلف بالله لقد جاء بُدَيل محمداً، وذلك حين رأى النوى فى بعر البعير.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٨٩ ـ ٤٠٤ (مقتطفات).

(٢) إمتاع الأسماع ١/ ٣٥٧ .

وكان ذهاب بديل وهو أحد قادة مكة رفداً لعمرو بن سالم الذى جاء المسجد وعرض قضية الغدر بأسلوب مشرق مثير، وذكّر بضرورة الانتصار للمضطهدين من خزاعة ، وقبل أن نتحدث عن رحلة أبى سفيان لمكة ، لابد من التركيز على بعض النقاط المهمة حين نتحدث عن فتح مكة بصفته سمة بارزة فى العهد المدنى لا حدثاً تاريخيًا مر .

فالأصل فى العهود بين المسلمين والمشركين أن يكون الوفاء بها من الطرفين ، ورأينا عظمة تمسك النبى ﷺ بعهده وعقده، حتى ولو برفض قبول المؤمنين المستضعفين فى المدينة، وقد شكل هذا الأمر لرسول الله ﷺ إحراجاً كبيراً أمام هؤلاء المؤمنين الذين اختاروا الإسلام على الكفر، ومع ذلك أعاد أبا بصير التزاماً بالعهد وقال : « إنه لا يحل فى ديننا الغدر ».

هذه الصورة الإسلامية المشرقة .

بينما تقابلها تلك الصورة الغادرة من التواطؤ مع المعتدين ، والاشتراك معهم فى غزو حلفاء محمد ﷺ من خزاعة .

هذه هى القضية الأولى .

والقضية الثانية : هناك فرق واضح بين الاستقامة وبين الغفلة ، فالمسلمون لابد أن يكونوا على يقظة تامة من تحركات مَنْ هادنوهم ، وأن يكون التعامل معهم بصدق لكن بحذر ، ولعل هذا الأمر يوضح فيما بعد من تحرك أبى سفيان.

والقضية الثالثة : حول طبيعة الحلف فى الإسلام فانضمام خزاعة ودخولها فى عقد محمد ﷺ وعهده يعنى كل مستلزمات هذا الحلف ، علماً بأن خزاعة لم تكن كلها مسلمة ، بل كانت قيادتها لا تزال خاضعة للمشركين ، ولم تعلن هذه القيادة انضمامها إلى المسلمين فى المدينة. صحيح قد تفشى فيهم الإسلام، ولكن فيها المسلم والكافر ، وعندما عاهد رسول الله ﷺ خزاعة عاهدها على أنها مشركة، وهذا يعنى أن من حق الدولة الإسلامية حين ترى مصلحتها فى حلف محدد ، لا يقتضى بالضرورة أن يكون الحليف مسلماً، كما أنه لا تناقض بين هذا التحالف وبين **موادة الذين** يحادون الله ورسوله .

إن الشباب المسلم بحاجة إلى التفريق بين قضيتين كبيرتين :

الأولى : موادة أعداء الله ورسوله ، الذين يحاربون المؤمنين ويضطهدونهم من خلال قناعات فردية للشباب المسلم دون إذن أو علم قيادتهم .

الثانية : التحالف مع كافرين اختاروا أن يكونوا مع المؤمنين ضد عدو مشترك لهما معاً.

وهذه هى الصورة الثانية التى تمت بين خزاعة والمسلمين ، فليس الكفر مانعاً من هذا التحالف ، ورسول الله ﷺ قد شرع لنا هذا الأمر .

وتبقى القضية الخلافية حول مشروعية هذا التحالف : هل هو مرتبط بكون المسلمين دولة قوية يحق لهم ذلك فقط ؛ لأنهم ـ وهم ليسوا دولة ـ قد يبتلعهم حليفهم أو يفرض عليهم شروطه؟ أم إن الأمر عام مرتبط بحاجة المسلمين لهذا الأمر إذا ما رأوا مصلحة فى ذلك ؟ وإن كان لا دليل على التخصيص واضح فيدخل الأمر ـ والله أعلم ـ ضمن إطار تقدير المصلحة.

القضية الرابعة : هى الجدية فى تنفيذ بنود التحالف ، فعندما وقع اعتداء على خزاعة وثبت لرسول الله ﷺ تواطؤ قريش مع بنى بكر ، لم يتمالك أن أعلنها فى المسجد صريحة مدوية : « نُصرت يا عمرو بن سالم » ، أو قوله : « إن هذه السحابة لتستهل بنصر بنى كعب » ، أو قوله : « لا نُصرتُ إن لم أنصر بنى كعب مما أنصر منه نفسى » .

فهذه الجدية فى تنفيذ بنود الحلف تجعل الثقة لدى الآخرين بأن ينضووا تحت لواء المسلمين لضمان نصرهم وعونهم ، لكننا لو تصورنا أن رسول الله ﷺ لم يعر اهتماماً لهذا الأمر، فهذا قد يدفع خزاعة إلى البحث عن حليف قوى ينصرها، أو التخلى على الأقل عن حلف رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه .

القضية الخامسة : هى أثر هذا التحالف فى صف المتحالفين، فهذا الأمر يكسر الحدود المصطنعة بين هؤلاء الحلفاء والإسلام أولاً، وبينهم وبين المسلمين ثانياً ، فهى فرصة مواتية لكى يُعرض الإسلام على حقيقته دون غبش فى صفوف هؤلاء الخصوم ، وفرصة مواتية ثانية ليتعرف الحلفاء على طبيعة المسلمين وأخلاقهم وأفكارهم عن كثب ، فتكون القدوة والدعوة من خلالها مهيأة أمام الآخرين .

وكل هذه القضايا هى فى رصيد الحركة الإسلامية ذات بال تحتاج إلى

استيعابها وتوضيحها لقواعدها ، حتى يزول اللبس فى الأمور لدى شباب الحركة الذين يسيطر عليهم دائماً نقاء الصف وتميزه وطهره .

وننتقل إلى مهمة أبى سفيان فى المدينة .

فقد قدَّر رسول الله ﷺ هذا الأمر سلفاً بثاقب نظره ، وعميق فكره فقال : « كأنى بأبى سفيان قد جاءكم ليشد العقد ، ويزيد فى المدة » .

ووصل أبو سفيان المدينة ، وكان يفاجأ بالفشل أينما مضى ، وكيفما اتجه ؛ وذلك لأن الصف الداخلى القوى كان قلعة منيعة فى وجهه ، عجز من أن يتسلل إليه ولو من ثقب إبرة ، ويكفى أن نعلم أن فى هذا الصف المسلم القوى ابنة أبى سفيان وألصق الناس به . وقد تلقى منها منذ اللحظات الأولى أقسى درس فى حياته ، لا ينساه ما عاش ، وذلك حين طوت فراش رسول الله ﷺ عنه لأنه نجس على شركه .

ولو استطاع أن يتسلل من هذه الثغرة لكانت أخطر ثغرة على الإطلاق ،فهو بيت النبى ﷺ ، ولا شك أن العدو يحاول دائماً أن ينفذ من مثل هذه الثغرات إلى الصف المسلم.

ولم يكن لدى رسول الله ﷺ حرج من أن تستقبل أم حبيبة بنت أبى سفيان أبا سفيان أباها فى بيت رسول الله ﷺ فهو مطمئن إلى أهل بيته ، واثق بزوجه.

وما أروع الثقة حين تسود فى الصف المسلم ، فلم يتطرق الشك إلى رسول الله ﷺ ولا إلى أصحابه الأدنين والأبعدين،ولا إلى بيوت أزواجه الأخرى فيغمزن من قناة ضرتهن أم حبيبة، وحتى طوى فراش النبى ﷺ عن أبى سفيان لم يكن بإيحاء نبوى بمقدار ما كان فطرة إسلامية خالصة .

وهنا نذكر الشباب المسلم بالفرق بين الموادة ، وبين المعاملة الدبلوماسية اللازمة .

فلم ينهش المسلمون عرض أم حبيبة رضي الله عنها وهى تستقبل أباها وترحب به ، ولم تتهم فى دينها أو ممالأتها للكفار ، وأبو سفيان يمثل فى هذه المرحلة مسؤولية غدر قريش ونقضها للعهد، وهى رضي الله عنها لم تجد حرجاً فى مثل هذا الاستقبال وهذه الضيافة، فهى مطمئنة إلى ثقة النبى ﷺ ، والمسلمين بها ، لكنها من الطرف

الآخر وصلت بالتميز والمفاصلة مع أبيها إلى أكثر من المطلوب منها حين منعت أباها عن الجلوس على فراش رسول الله ﷺ، ولا شك أن عصبة تصل الثقة فى صفوفها أن تخلى بين قائد العدو وابنته فى جلسة خاصة ، دون أن يتطرق الشك بهذه المرأة لهى عصبة مؤهلة أن تحكم الأرض ويدين لها الخافقان .

ثم كانت المواجهة الثانية بين النبى ﷺ وأبى سفيان :

يقول أبو سفيان: (يا محمد إنى كنت غائباً فى صلح الحديبية، فاشدد العهد وزدنا فى المدة، فقال رسول الله ﷺ: « ولذلك قدمت يا أبا سفيان؟ » قال : نعم، قال : « هل كان قبلكم حدث ؟ » قال : معاذ الله ! قال : « فنحن على مدتنا وصلحنا يوم الحديبية ») (١) .

لقد كان أبو سفيان ـ القائد العام لجيش المشركين ـ يريد أن يضع كل عبقريته فى عقد جديد يلغى ما كان من إخلاله قبله ، وتذرع بغيابه عن صلح الحديبية ، ولكن أنى له أن تسرى أحابيله بين يدى رسول رب العالمين فقال له ـ عليه الصلاة والسلام : « ولذلك قدمت يا أبا سفيان ؟ » قال: نعم ، وكان بإمكان النبى ﷺ أن ينفعل ويغضب ، ويكشف غدر قريش ، لكن العلاقات السياسية لا تحل عن طريق الانفعالات ، ثم استجره أكثر لعله يعترف بغدر قريش. فسأله : « هل كان قبلكم حدث ؟ » قال : معاذ الله .

وأبو سفيان مضطر لنفى الأمر رغم معرفته به ورغم توقعه أن يكون محمد ﷺ قد عرف به ؛ لأن الاعتراف فيه قد يؤدى بضرب عنقه ، أو علمه على الأقل بهذا الغدر ، ومع هذا النفى فكان الجواب الحاسم : « فنحن على مدتنا وعهدنا وصلحنا يوم الحديبية » .

يقول الشاعر :

ليس الغبى بسيد فى قومه ... لكنَّ سيد قومه المتغابى

وأن تكون هذه الصورة فعلاً حقيقية ، وهى نجاح أبى سفيان فى مهمته ، أو إيهام النبى ﷺ بالوفاء التام ، فهو عبقرية من أبى سفيان ولا شك ، لكن هذه

(١) إمتاع الأسماع ١/ ٣٥٨ .

العبقرية تبدو سذاجة أمام عبقرية النبى ﷺ فى إيهام أبى سفيان بأنه اقتنع بجوابه، وأن العهد لا يزال على ما هو عليه . فلقد سد المنافذ كلها على أبى سفيان ، إذ ما معنى تجديد العقد وزيادة المدة ، طالما أن قريشاً على عهدها ومدتها .

ولتمام نجاح هذه المهمة ، فلقد كانت الأسرار فى الصف المسلم من المناعة ، ومن الكتمان بحيث لا يمكن أن تبرز ولو من صفحات الوجه أن المسلمين على علم بغدر قريش . وهكذا برزت البراعة السياسية بأعلى صورها حين سدت على العدو كل منافذه وسبله .

لقد كان بإمكان أبى سفيان أن ينجح بشىء من مهمته ، لو أن لحظة انفعال أو غضب سيطرت على أحد الجنود الذين التقى بهم أبو سفيان . وكان يمكن أن ينجح فى شىء من مهمته لو أن سرا قد أفشى من أسرار المسلمين من خلال لقاءات أبى سفيان فى المدينة .

وحين يرتفع الصف المسلم إلى هذا المستوى ، فلن يكون العدو قادراً على تحقيق النذر اليسير من مهمته ، بله الأمر الكبير ، فليس الداهية هو الذى يخدع الآخرين فقط ، بل الأدهى منه هو الذى يوحى له بجواز خدعته عليه .

لقد كان بإمكان النبى ﷺ أن يعتقل أبا سفيان أو يهدِّدَ به أو يهدده ، ولكن لم يكن تخطيط النبى ﷺ أن يُحل الأمر بالطرق السلمية،أو بحلول محدودة ،لقد رأى أن الأوان قد آن لفتح مكة ، بعد أن أصبح حرا من العقودّ والعهود التى نقضها العدو ، ومن أجل ذلك حرص على إخفاء أية صورة من صور التحدى والإثارة أمام أبى سفيان ، ثم كانت خطوات أبى سفيان المتلاحقة فى اللقاء مع أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ، بين من يراه أمس الناس رحماً به ، ومن يراه أعدى العدو، ولئن اختلفت لهجة الاستقبال من عظيم إلى آخر لكنها كانت جميعاً ذات مضمون واحد ، هى أنه لا يجير أحد على رسول الله ﷺ ، ولا يقبل أحد أن يكون وسيطاً فى قضية رفضها رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولم يتورع أبو سفيان فى الوساطة أن يطلب من فاطمة بنت محمد ، والحسن ابن فاطمة بنت محمد ﷺ أن يكونا وسطاء فى زيادة المدة وتجديد العهد، وفاطمة أحب خلق الله تعالى إلى أبيها، وكان الجواب واحداً لا يتغير، فلن يشفع أحد عند رسول الله ﷺ فى هذا الأمر ، بعد أن صدر الجواب الحاسم : « فنحن على مدتنا وصلحنا يوم الحديبية لا نغير ولا نبدل » .

وهو درس كذلك لقواعد الحركة الإسلامية وقياداتها فى ألا تحرج آمير الجماعة فى أمر أعلنه والتزم به ، خاصة حين يكون هذا الأمر مع خصوم الجماعة أو أعدائها أو حلفائها على السواء . أو أن يبرز خلاف فى الرأى أمام هذا الحليف أو ذاك العدو ، مهما كانت الأسباب الموجبة لذلك ، فالأصل أن يصدر الجميع عن رأى واحد خلف قيادتهم وبدون تردد .

وأبو سفيان يدرك أن رسول الله ﷺ لن يرد شفاعة وجاه أقرب المقربين إليه مثل أصحابه الأربعة ، وابنته وابن ابنته ، وإدراك هذا المعنى عند أبى سفيان جعله يقول لفاطمة رضي الله عنها : يا ابنة محمد ، هل لك أن تأمرى بنيَّك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟ (١) لأنه يتصور أن هذه الإجارة ستوقف حرباً ضروساً بين مكة والمدينة ؛ لأنه يعلم أن الأخبار لابد واردة إلى النبى ﷺ ، ولن يقبل محمد أن يكون مهيض الجناح ، فيسكت على ذبح حلفائه .

وننظر هنا إلى الخطوط العامة التى سادت المدينة بعد عودة أبى سفيان ، فنراها تنصب على الاتجاه الذى سلكه رسول الله ﷺ فى أمر الناس بالتجهز والتهيؤ فى بادئ الأمر ، حتى أن أبا بكر ـ الوزير الأول ـ ما يدرى لأى مكان الاتجاه ، ويسأل ابنته عائشة عن الأمر : فأين ترينه يريد ؟ قالت : لا والله ما أدرى ، ثم يوضح الهدف بعد ذلك بإعلام الناس بالتهيؤ إلى مكة ، مع المحافظة على سرية التحرك : « اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها » .

ولم يند عن هذه السرية فى المدينة إلا حاطب بن أبى بلتعة رضي الله عنه ، وكانت زلة ضخمة دفعه لها حرصه على ولده وأهله ، ومثل هذا المستوى مرفوض من حاطب البدرى ، وهو من الثقة لدى رسول الله ﷺ أن كان بمهمة ضخمة بعد الحديبية ، بأن كان ممثل الرسول ﷺ إلى المقوقس ، وقام بدور إيجابى ضخم فى شرح رسالة الإسلام ، ومع ذلك كانت هذه السقطة منه ، ورأى عمر رضي الله عنه فيها أنها نفاق

---

(١) لم يكن أبو سفيان يدرى أنه يتكلم فى ظهر الغيب ، وأن الحسن بن على صار سيد العرب والمسلمين إلى آخر الدهر ، وذلك بعد ثلث قرن من فتح مكة على التقريب حين أجار بين الناس ، وأوقف لزيف الدماء بين المسلمين بعد ستة أشهر من خلافته ، وحقق نبوءة جده ـ عليه الصلاة والسلام ـ حين قال فيه : « إن ابنى هذا سيد ، ولعل الله يصلح به بين فئتين من المسلمين » . وكانت سيادته تكمن فى حقنه لدماء بعد عشرات الألوف من القتلى فى صفوف المسلمين ، ولا نبعد أبداً أن يكون حديث النبى ﷺ عن ابنه الحسن فى تلك الفترة ، وعقب كلمة أبى سفيان ؛ لأن النبى ﷺ توفى ولما يناهز الحسن من العمر خمس سنين .

يستحق صاحبها القتل ، غير أن الماضى العظيم لحاطب شفع له عند رسول الله ﷺ حيث أجاب : « لعل الله اطلع على أهل بدر يوم بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » ، ولا شك أن خطيئة القدوة ضخمة فى صفوف العامة ، ومثل حاطب رضي الله عنه فى موطن القدوة ، غير أن رسول الله ﷺ لا يستغنى عن أحد من أصحابه ، ويكفى ما جاء من المحاكمة العلنية أمام الناس ، والقرآن الكريم الذى جاء بإدانته على هذا التصرف .

وتأتى خطورة القضية فى أنها تمت دون علم القيادة ، ودوافعها مصلحة الأهل والولد.

وهذا الدرس يعنى بالنسبة للشباب المسلم أنه لا معصوم إلا من عصمه الله تعالى ، وقد تقع الزلة والخطيئة ممن هم فى موقع الولاية والمسؤولية ، والذين هم أصحاب الأسرار العامة والخاصة ، ومثل هذه الخطيئة تستحق القتل فهى بمثابة الخيانة العظمى، ولعل هذه الخاصية ـ حضور بدر ـ هى التى شفعت لحاطب رضي الله عنه ، وما أعتقد أن أى عمل فى الإسلام اليوم يعدل حضور بدر . إذ أن ذلك وحى من الله تعالى ، غير أن المعنى العام الذى يفقهه الدعاة هو: أن بلاء الرجل وجهاده قد يشفعان له فى تخفيف العقوبة لا بإلغائها ،وهو ضلال عن سواء السبيل ، كما ذكره القرآن الكريم .

وتأتى الصورة الأخيرة فى الاستنفار العام للعرب جميعاً ، من المدد والحضر الذين دخلوا فى دين الله ، وكانت صيغة الاستنفار : (« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة . . . » وبعث رسلاً فى كل ناحية حتى قدموا ، فقدمت أسلم وغفار ومزينة وجهينة وأشجع المدينة ، وأتت بنو سُليم بقديد ، وعسكر ببئر أبى عنبة ، وعقد الألوية والرايات) .

ومع كل هذا التوسع ، فقد حافظ المسلمون جميعاً على سرية التحرك ، وكان الدرس القاسى الذى نزل قرآنا يتلى بحق حاطب رضي الله عنه قد تعمم على الجيش كله ، ولم يجرؤ أحد بعد وفى قلبه إيمان بالله ورسوله أن يتصرف هذا التصرف ، ونجحت سرية التحرك دون أن تصل الأخبار إلى مكة .

وما كان لمثل هذا التحرك الضخم أن ينجح لولا قوة هذا الصف وسلامته .

ولم تكن الخطيئة الكبيرة من حاطب لتغير من هذه النظرة ، رغم أن المهاجرين والأنصار لا يبلغون نصف الجيش (فقد كان المهاجرون سبعمائة ومعهم ثلاثمائة فرس ، وكانت الأنصار أربعة آلاف ومعهم خمسمائة فرس ، وكانت مزينة ألفاً فيها مائة فرس ومائة درع ، وكانت أسلم أربعمائة فيها ثلاثون فرساً، وكانت جهينة ثمانمائة معها خمسون فرساً، وكانت بنو كعب بن عمرو خمسمائة) .

وبمقارنة هذا العدد الهائل والاستجابة للنفير العام مع التباطؤ والتلكؤ يوم الحديبية ، نلاحظ الفرق بين تحرك الناس قبل التمكين وتحركهم بعده ، ولقد قَرَّع القرآن الكريم فى سورة الفتح أولئك الأعراب الذين تباطؤوا وتخاذلوا عن هذا النفير ، حتى حرموا من حضور خيبر بعدها ، هم هم أنفسهم اليوم ينضمون بالآلاف إلى الجيش الإسلامى ، وهذا المعنى يرتبط بالفتح المبين يوم الحديبية ، فثبات النفر القليل أيام المحنة والأيام السود هو الدرس الحى الذى يقود جحافل الناس بعد المحنة ، وثبات النفر القليل هو الذى هيأ الجو لمثل هذه المعاهدة ، وهذا الجو هو الذى فتح القلوب للإسلام ، والجو المفتوح البعيد عن الخوف ، الخالى من المخاطر ، هو الذى هيأ المجال للتحرك الجاد من القاعدة الصلبة إلى نفوس الناس المتعطشة لهذا الدين ، وما كان لمثل هذا التجمع أن يعطى فعاليته لولا ثبات الرواد الأوائل على الطريق ، وقدرتهم على ضم هذه الأعداد الهائلة إلى المعركة.

ونلتقى مع أبى سفيان بن الحارث وعبد الله بن أبى أمية والعباس بن عبد المطلب من أهل بيت النبى ﷺ يتحركون للإسلام . أما مهمة العباس فقد انتهت فكان لابد له أن يدرك الهجرة ، وأما أبو سفيان بن الحارث وعبد الله بن أبى أمية فهم أعدى العدو بالحسام وبالبيان ، ولقد رفض رسول الله ﷺ بادئ ذى بدء قبولهما بقوله : « أما ابن عمى فقد هتك عرضى، وأما ابن عمتى فهو الذى قال لى بمكة ما قال » . وقول عبد الله بن أبى أمية بقى جرحاً غائراً يحفر فى قلب النبى ﷺ بعد مرور ما ينوف عن خمسة عشر عاماً ، فهو الذى قال: (والله لا أومن بك حتى تصعد إلى السماء ، وتدخل فيها ثم ترجع ومعك كتاب ومعك أربعة من الملائكة يشهدون أن هذا من عند الله ، ولو فعلت هذا ما أظن أنى أصدقك). وضاقت الأرض بما رحبت بهذين الطريدين . فقال أبو سفيان : والله ليأذنن لى أو لآخذن بيدى بنىَّ هذا ، ثم لنذهبن فى الأرض حتى نموت عطشاً . . .

ويلجأ أبو سفيان بن الحارث لابن عمه على بن أبى طالب ، ويشكو عبد الله بن أبى أمية لأم المؤمنين أم سلمة (فقالت : يا رسول الله ، لا يكن ابن عمك وابن عمتك أشقى الناس بك ، وقال على لأبى سفيان بن الحارث : ائت رسول الله ﷺ من قبل وجهه فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف : ﴿ **تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين** ﴾ [يوسف : ٩١] ، فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن قولاً منه ، ففعل ذلك أبو سفيان فقال له رسول الله ﷺ : ﴿ **لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين** ﴾ [يوسف : ٩٢] ، ومُسحت حرب عشرين عاماً من الهجاء والإقذاع بكلمة واحدة أمام أعظم نفس بشرية ؛ لأن مفتاحه أنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه قولاً [١] . فلقد أدرك على رضي الله عنه مفتاح شخصية النبى ﷺ ، وهذا المفتاح هو أنه قمة الكمال البشرى ، فلا يرضى عليه الصلاة والسلام لنفسه موقفاً أدنى من غيره وهو المؤهل للقدوة العليا للبشرية فى الأرض .

ومن الموقع نفسه نشهده مع أبى سفيان بن حرب ، وقد جاء به العباس بن عبد المطلب ليأخذ له أماناً من النبى ﷺ علّه ينقذ مكة من المواجهة . ومما يثلج الصدر أن تكون رواية العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه بين أيدينا ، وهو يعرض لنا حرصه على نجاة مكة .

(فقلت : واصباح قريش ، والله لئن دخل رسول الله ﷺ مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه ، إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر) .

ونجد أن هذا الاتجاه لا يخرج عن رغبة النبى ﷺ ، فهو حريص على أن تستسلم مكة دون قتال ، وهو حريص على حقن الدماء فى مكة لتسلم له قلوب أهلها ، وتكون مستعدة بالمعاملة الحسنة الكريمة الطيبة أن تنضم إلى الإسلام .

فنحن لسنا أمام قائد عسكرى فقط ، وهو سيد القادة فى الأرض تهيئة وتخطيطا ، وإعداداً ومواجهة ، لكننا كذلك أمام رسول رب العالمين ، لا يريد أن يشقى أحد على يديه ، فهو الرحمة المهداة ، ولكم كان حريصاً على هداية قومه حتى ليعاتبه ربه عز وجل بذلك : ﴿ **فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا** ﴾ [الكهف : ٦] ، ولم تغير حرب عشرين عاماً من نفسه الطاهرة الشريفة بأن يكون الانتقام رائده ، بل بقى النور الذى يغمر الظلام مهما اشتد .

---

(١) الرحيق المختوم ص ٤٤٨ ، ٤٤٩ .

ويمثل هذه النفسية العليا فى الأرض رؤيا أبى بكر وتفسير النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ لها: (فرأى أبو بكر الصديق رضي الله عنه فى الليلة التى أصبح فيها بالجحفة، أن النبى ﷺ لما دنوا من مكة خرجت عليهم كلبة تهر، فلما دنوا منها استلقت على ظهرها ، فإذا أطباؤها [1] تشخب لبناً ، فذكرها أبو بكر ، فقال رسول الله ﷺ: « ذهب كَلبُهم[2] وأقبل درُّهم . هم سائلوكم بأرحامكم ، وأنتم لاقون بعضهم ، فإن لقيتم أبا سفيان فلا تقتلوه ») [3].

لقد أطلقنا على هذه المرحلة: مرحلة الجهاد السياسى، ولكنه من أعلى مواقع القوة العسكرية .

فليس هذا الاتجاه عن عجز أو وهن ، بل لأن القوة الضاربة هى التى تلجم اندفاعات العدو وتكبح جماحه وتتيح الفرصة لصوت الحق أن يظهر ، فحرص النبى ﷺ على سلامة مكة من حرب ضروس هو الذى دفعه لأن يدعو : « اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها » . وحرص العباس على سلامة قريش، هو من مشكاة النبوة يريدها أن يُسقَط فى يدها فتستسلم دون حرب وتستأمن لنفسها ، فلا تجد حرجاً أو غضاضة بعدها فى الإسلام ، أما لو وقعت المقتلة العظيمة فى كل بيت من قريش وفى بطحاء مكة ، فستدخل هذه القلوب فى الإسلام ذليلة ، ويتضح حرص النبى ﷺ على هذا المعنى كذلك من موقفه من سيد الخزرج سعد بن عبادة فقد (كانت راية الأنصار مع سعد بن عبادة ، فلما مر بأبى سفيان قال له : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة ، اليوم أذل الله قريشاً ، فلما حاذى رسول الله ﷺ أبا سفيان قال : يا رسول الله ، ألم تسمع ما قال سعد ؟ قال : « وما قال ؟ » فقال : كذا وكذا . فقال عثمان وعبد الرحمن ابن عوف: يا رسول الله، ما نأمن أن يكون له فى قريش صولة. فقال رسول الله ﷺ: «بل اليوم يوم المرحمة، اليوم تعظم فيه الكعبة، اليوم يوم أعز الله قريشاً »، ثم أرسل إلى سعد فنزع منه اللواء ، ودفعه إلى ابنه قيس ، ورأى أن اللواء لم يخرج عن سعد ، وقيل : بل دفعه إلى الزبير) [4] .

---

(١) أطباؤها : جمع طبى ، وهى حلمات الضرع التى فيها اللبن .

(٢) كلبُهم : سعار يأخذ الكلاب فتنبح وتعض . (٣) إمتاع الأسماع ١/ ٣٦٧ ، ٣٦٨ .

(٤) الرحيق المختوم ص ٤٥٢ . وقد وردت عند ابن إسحاق وابن عساكر وموسى بن عقبة بروايات متقاربة .

فعز قريش وتعظيم الكعبة والحرص على حقن الدماء ، هو الخط العام الذى يتحرك رسول الله ﷺ من خلاله ، لكنه مع ذلك لا يريد أن يؤذى أكبر أنصار سعد رضي الله عنه ، وهو الذى كان والخزرج كتائب الفداء الأولى فى الإسلام ، فأخذ الراية وأعطاها لابنه قيس ، وقيس فى حلمه ورجاحة عقله ودهائه ، ما يجعل رسول الله ﷺ يطمئن إلى جانبه ألا يندفع فى ثورته ونقمته على قريش بمقدار ما يندفع ضمن الخط النبوى المرسوم .

وكان ذلك اللقاء التاريخى بين قائد جيش العدو ـ أبى سفيان ـ الذى وصل شبيه الأسير بين يدى محمد ﷺ ، وتحققت نبوءة أمية بن أبى الصلت عند أبى سفيان الذى قال له ذات يوم فى بطحاء مكة : (لكأنى بك يا أبا سفيان تساق إلى محمد كما يساق الجدى ليفعل بك ما يشاء) .

وها هو بين يدى رسول الله ﷺ ، ولا يحتمل الأمر أكثر من إشارة ، أو حركة فى العين ليطاح رأسه عن جسده ، لكن سيد الدعاة ﷺ لا ينسى أن إسلام أبى سفيان يعنى تحولاً تاماً فى مكة وفى بنى أمية بالذات ، وهم أعدى الأعداء ، ورمى ﷺ عداء عشرين عاماً خلف ظهره ليقول لأبى سفيان : « أما آن لك أن تشهد أن لا إله إلا الله ؟» فيجيبه: بأبى أنت وأمى ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عنى شيئاً بعد) إنه وهو الذى لا يزال على جاهليته يصعقه نبل محمد ﷺ ويهزمه فى أعمق أعماقه ، فيفديه بأبيه وأمه وما يتمالك عن القول : ما أحلمك وأكرمك وأوصلك. ثم يأتى السؤال الثانى: « ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله؟ » قال : بأبى أنت وأمى، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، أما هذه والله فإن فى النفس منها حتى الآن شيئاً.

وإنها لقمة الانتصار فى موازين الرجال ، وفى معارك النفوس أن يبهت القائد العام للعدو بخلق خصمه الأول ، فلا يتمالك عن الثناء على حلمه وكرمه وصلته للرحم ، بل يفديه بأبيه وأمه. وأدرك العباس رضي الله عنه أن عدم إسلام أبى سفيان لن يضمن تجديد معركة وحرب، وفى هذه الحالة فقتل أبى سفيان قبل أن يجيش الجيوش من جديد هو الذى تقتضيه طبيعة الخطة النبوية ، ومن أجل ذلك قال العباس لأبى سفيان : ويحك ، أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً

رسول الله قبل أن تضرب عنقك. قال : فشهد شهادة الحق فأسلم ، ومع أن هذا الإسلام واضح أنه خوف من السيف ، لكن ليس من طبيعة زعيم كأبى سفيان أن يرضى غدْرةً من خلال إسلامه أو يرضى تلطيخ تاريخه أنه جبن أمام رسول الله محمد ، فتمضى سبةً عليه بين العرب ، والعباس الخبير بنفس أبى سفيان طلب من رسول الله ﷺ شيئاً من الفخر لابن حرب فقال ـ عليه الصلاة والسلام: «من دخل الكعبة فهو آمن ، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن » .

فالميزة التى أخذها من هذا الفخر ، إظهار لزعامته فى قريش ، وهذا حق مكتسب له ، لكن دون أن يبنى عليها تعديل ذرة واحدة من الخطة ، وحين لا تتعارض الجزئية مع الكليات العامة فلا ضير فى ذلك .

ولتحقيق الهدف الأساسى من تفويت الفرصة على قريش ، فى ألا تعد العدة ولا تواجه الحرب ، كان لابد من استعراض القوات الإسلامية المسلحة أمام أبى سفيان ، وذلك عند خطم الجبل حتى ييأس نهائيًا من المقاومة فيقنع قريشاً بضرورة الاستسلام . وها هى نفسيته تلوح وهو يشهد قبائل العرب التى كانت قبل عامين كلها معه ضد محمد،فيقول وهو يرى الكتيبة الخضراء بعد أن هدته القبائل : (ما رأيت مثل هذه الكتيبة قط ولا خبرنيه مخبر ما لأحد به طاقة ولا يدان ، لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً). إنهما خطتان تمشيان جنباً إلى جنب :

الخطة الأولى : تلامس نفس هذا القائد فى أعماقه ، وتدعوه إلى الإسلام لتفت فى عضد قريش ، فماذا بعد إسلام قائدها الأكبر أو استسلامه .

الخطة الثانية : أن يحطم نفسية المقاومة عنده ، بحيث يشهد بأم عينه جيش النبوة الذى تهتز الأرض اعتزازاً به ، وهو يعلم أنه فشل فى حربه ، ولما يتجاوز جيش محمد ثلاثمائة رجل ، فكيف به أمام عشرة آلاف مقاتل ؟

ولا يسعنا قبل أن نغادر أبا سفيان إلا وأن نعرض له وهو يرى سيف عمر بن الخطاب ينتظر أمر رسول الله ﷺ ليهوى عليه،فيقطع رأسه عن جسده،ويرى إلحاح عمر وإلحاح العباس فيه حتى ليكادان يختصمان عليه وفيه ، فيحميه رسول الله ﷺ ويراجع رصيده قبل عامين وهو فى بلاط قيصر ، الذى يقسم أن محمداً سيطأ ما بين رجليه ، وأنه يتمنى أن يكون عنده فيقبل الأرض بين قدميه ، أو نستطيع

القول : إن إنهاء أبى سفيان من المعركة هو القضاء على ثلثى العدو فيها ، وكم يكون ربح الحركة الإسلامية فى القمة حين يُنهى جيش العدو بالإجهاز على قائده، وليس إجهاز الإفناء ، بل هو إدخاله فى الإسلام . وأن تجتنب معركة بتحييد قائدها لصالح الإسلام ، مع أن الطريق الوحيد لذلك هو القوة الرادعة القادرة على أن تقنع هذا القائد ، فتعطيه عوضاً عن الذل ، حلماً وكرماً وصلة تجعله يفدى أمير المسلمين بأمه وأبيه . إنه الشوط الطويل لكنه هو الطريق .

نصر الله والفتح

رجوع أبى سفيان إلى أهل مكة :

قال: قلت: النجاء إلى قومك، حتى إذا جاءهم صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، فقامت إليه هند بنت عتبة فأخذت بشاربه . فقالت : اقتلوا الحَميتَ الدميم الأحمس[1] قبح من طليعة قوم ! قال : ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن، قالوا : قاتلك الله وما تغنى عنا دارك ، قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد .

وصول النبى ﷺ إلى ذى طوى :

قال ابن إسحاق : فحدثنى عبد الله بن أبى بكر: أن رسول الله ﷺ لما انتهى إلى ذى طوى، وقف على راحلته معتجراً بشُقَّة برد حبرة[2] حمراء، وإن رسول الله ﷺ ليضع رأسه تواضعاً لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتى إن عثنونه ليكاد يمس واسطة الرحل.

دخول جيوش المسلمين مكة :

وحدثنى عبد الله بن أبى نجيح أن رسول الله ﷺ حين فرق جيشه من ذى طوى ، أمر الزبير بن العوام أن يدخل فى بعض الناس من كدى ، وكان الزبير

---

(١) الحميت الدميم الأحمس : الشديد اللحم ، والمعنى على تشبيهه الرجل بالزق لعبالته وسمنه .

(٢) الحبرة : ضرب من ثياب اليمن .

على المجنبة اليسرى، وأمر سعد بن عبادة أن يدخل فى بعض الناس من كداء[1] .

طريق المسلمين فى دخول مكة :

قال ابن إسحاق: وقد حدثنى عبد الله بن أبى نجيح فى حديثه: أن رسول الله ﷺ أمر خالد بن الوليد ، فدخل من اللّيط ، أسفل مكة فى بعض الناس ، وكان خالد على المجنبة اليمنى ، وفيها أسلم وسُليم وغفار ومزينة وجهينة وقبائل من قبائل العرب ، وأقبل أبو عبيدة بن الجراح بالصف من المسلمين ينصبُ لمكة بين يدى رسول الله ﷺ ، ودخل رسول الله من أذاخر حتى نزل بأعلى مكة ، وضربت له هناك قُبته .

تعرض صفوان فى نفر معه للمسلمين :

قال ابن إسحاق : وحدثنى عبد الله بن أبى نجيح وعبد الله بن أبى بكر : أن صفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل وسُهيل بن عمرو كانوا قد جمعوا ناسا بالخندمة ليقاتلوا ، وقد كان حماس بن قيس بن خالد ، أخو بنى بكر يُعدُّ سلاحاً قبلَ دخول رسول الله ﷺ ويُصلح منه ، فقالت له امرأته : لماذا تُعدُّ ما أرى ؟ قال : لمحمد وأصحابه ، قالت : والله ما أراه يقوم لمحمد وأصحابه شىء ، قال: والله إنى لأرجو أن أخدمك بعضهم ، ثم قال:

إن يُقبلوا اليوم فمالى علَّه ... هذا سلاح كامل وألَّه[2]

وذو غرارين[3] سريع السِّله

ثم شهد الخندمة مع صفوان وسهيل وعكرمة ، فلما لقيهم المسلمون من أصحاب خالد بن الوليد ناوشوهم شيئاً من قتال ، فقتل كرز بن جابر ، أحد بنى محارب . . . وخنيس بن خالد حليف بنى منقذ ، وأصيب من جهينة سلمة بن الميلاء ، وأصيب من المشركين ناس قريب من اثنى عشر رجلاً ، أو ثلاثة عشر رجلاً ، ثم انهزموا فخرج حماس منهزماً حتى دخل بيته، ثم قال لامرأته : أغلقى على بابى ، قالت : فأين ما كنت تقول ؟ فقال :

إنك لو شهدت يوم الخندمه ... إذ فر صفوان وفر عكرمه

---

(١) كداء : جبل بأعلى مكة .

(٢) الألة : الحربة لها سنان طويل .

(٣) ذو غرارين : ذو حدين .

وأبـو يـزيـد قـائـم كالـوتـمـه واستـقـبـلـتهم بالسيوف المسلمه
يـقطعن كـل سـاعـدٍ وجـمـجـمـه ضـرباً فـلا يـسـمـع إلا غـمـغـمـه
لـهـم نـهـيـت خـلفـنـا وهـمـهـمـه لـم تـنـطـقـى باللوم أدنى كـلـمـه

وكان شعار أصحاب رسول الله ﷺ يوم فتح مكة وحنين والطائف شعار المهاجرين : يا بنى عبد الرحمن ، وشعار الخزرج : يا بنى عبد الله، وشعار الأوس : يا بنى عبيد الله.

عهد رسول الله ﷺ إلى أمرائه وأمره بقتل نفر ممن سماهم :

وإن كان رسول الله ﷺ قد عهد إلى أمرائه من المسلمين، حين أمرهم أن يدخلوا مكة، ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم ، إلا أنه قد عهد إلى نفر سماهم أمر بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة ، منهم عبد الله بن سعد . . . وإنما أمر رسول الله ﷺ بقتله ؛ لأنه قد كان أسلم وكان يكتب لرسول الله ﷺ الوحي، فارتد مشركاً راجعاً إلى قريش، ففرَّ إلى عثمان بن عفان وكان أخاه للرضاعة فغيَّبه حتى أتى به رسول الله ﷺ بعد أن اطمأن الناس وأهل مكة ، فاستأمن له فزعموا أن رسول الله ﷺ صمت طويلاً ثم قال : « نعم » فلما انصرف عنه عثمان قال رسول الله ﷺ لمن حوله من أصحابه : « لقد صمتُّ ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه » . فقال رجل من الأنصار : فهلا أومأت إليَّ يا رسول الله ؟ قال : « إن النبى لا يقتل بالإشارة » .

وعبد الله بن خطل رجل من تيم إنما أمر بقتله أنه كان مسلماً ، فبعثه رسول الله ﷺ مصدِّقاً وبعث معه رجل من الأنصار وكان معه مولى له يخدمه ، وكان مسلماً فنزلا منزلاً ، وأمر المولى أن يذبح له تيساً فيصنع له طعاماً ، فنام واستيقظ ولم يصنع له شيئاً ، فعدا عليه فقتله ، ثم ارتد مشركاً وكانت له قينتان، وكانتا تغنيان بهجاء رسول الله ﷺ فأمر رسول الله بقتلهما معه .

والحويرث بن نُقيذ ، وكان ممن يؤذيه بمكة. (قال ابن هشام : وكان العباس ابن عبد المطلب قد حمل فاطمة وأم كلثوم ابنتى رسول الله ﷺ من مكة يريد بهما المدينة ، فنخس بهما الحويرث فرمى بهما إلى الأرض) .

ومقيس بن حُبابة ، وإنما أمر رسول الله ﷺ بقتله ، لقتل الأنصارى الذى كان قتل أخاه خطأ ورجوعه إلى قريش مشركاً .

وسارة مولاة بنى عبد المطلب ، وعكرمة بن أبى جهل وكانت سارة ممن يؤذيه بمكة ، فأما عكرمة فهرب إلى اليمن ، وأسلمت امرأته أم حكيم بنت الحارث بن هشام، فاستأمنت له من رسول الله ﷺ فأمّنه ، فخرجت فى طلبه إلى اليمن حتى أتت به إلى رسول الله ﷺ فأسلم .

وأما عبد الله بن خطل فقتله سعيد بن حريث وأبو برزة الأسلمى ، اشتركا فى دمه، وأما مقيس بن حُبابة فقتله نميلة بن عبد الله رجل من قومه ، وأما قينتا ابن خطل فقتلت إحداهما ، وهربت الأخرى ، حتى استؤمن لها ، وأما سارة فاستؤمن لها فأمَّنها ، وأما الحويرث بن نُقيذ فقتله على بن أبى طالب .

حديث الرجلين اللذين أمنتهما أم هانئ :

قال ابن إسحاق: وحدثنى سعيد بن أبى هند عن أبى مرة مولى عقيل بن أبى طالب، أن أم هانئ ابنة أبى طالب قالت : لما نزل رسول الله ﷺ بأعلى مكة ، فرَّ إلىَّ رجلان من أحمائى ، من بنى مخزوم ، وكانت عند هبيرة بن أبى وهب المخزومى ، قالت : فدخل علىَّ علىُّ بن أبى طالب أخى فقال : والله لأقتلنهما، فأغلقت عليهما باب بيتى ، ثم جئت رسول الله ﷺ وهو بأعلى مكة ، فوجدته يغتسل من جفنة إن فيها لأثر العجين ، وفاطمة ابنته تستره بثوبه ، فلما اغتسل أخذ ثوبه فتوشح به، ثم صلى ثمانى ركعات من الضحى ، ثم انصرف إلى فقال: « مرحباً وأهلاً يا أم هانئ ، ما جاء بك ؟ » فأخبرته خبر الرجلين وخبر على ؛ فقال : « قد أجرنا من أجرت، وأمنَّا من أمَّنت ، فلا يقتلهما ».

طواف الرسول ﷺ بالبيت وكلمته فيه :

قال ابن إسحاق : وحدثنى محمد بن جعفر بن الزبير ، عن عبد الله بن عبد الله بن أبى ثور، عن صفية بنت شيبة، أن رسول الله ﷺ لما نزل مكة ، واطمأن الناس خرج حتى جاء البيت، فطاف به سبعاً على راحلته، يستلم الركن بمحجن فى يده، فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له ، فدخلها ، فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده ، ثم طرحها، ثم وقف على باب الكعبة وقد استكف له الناس[1] فى المسجد.

---

(١) استكف له الناس : تجمعوا له وتحلقوا حوله .

قال ابن إسحاق : فحدثنى بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قام على باب الكعبة فقال : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمىَّ هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج ، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا ففيه الدية المغلظة ، مائة من الإبل ، أربعون منها فى بطونها أولادها. يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم ، وآدم من تراب » ثم تلا هذه الآية : ﴿ **يا أَيُّها النَّاسُ إِنَّا خلقْناكُم مِن ذكرٍ وأُنثى وجعلْناكُمْ شُعُوبًا وقبائل لِتعارفُوا إِنَّ أكْرمكُمْ عند اللَّه أَتْقاكُمْ إِنَّ اللَّه عليمٌ خبيرٌ** ﴾ [الحجرات: ١٣]. ثم قال: « يا معشر قريش ، ما ترون أنى فاعل بكم ؟ » قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

إقرار الرسول ﷺ ابن طلحة على السدانة :

ثم جلس رسول الله ﷺ فى المسجد فقام إليه على بن أبى طالب فقال : يا رسول الله ، اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك . فقال رسول الله ﷺ : « أين عثمان بن طلحة ؟ » فدعى له . فقال : « هاك مفتاحك يا عثمان ، اليوم يوم بر ووفاء » .

أمر الرسول ﷺ بطمس ما فى البيت من صور :

قال ابن هشام : وحدثنى بعض أهل العلم ، أن رسول الله ﷺ دخل البيت يوم الفتح ، فرأى فيه صور الملائكة وغيرهم ، فرأى إبراهيم ـ عليه السلام ـ مصوراً فى يده الأزلام يستقسم بها ، فقال : « قاتلهم الله جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام ، ما شأن إبراهيم والأزلام » ﴿ **مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ [آل عمران : ٦٧] . ثم أمر بتلك الصور كلها فطمست .

سبب إسلام عتاب والحارث بن هشام :

قال ابن هشام : وحدثنى: أن رسول الله ﷺ دخل الكعبة عام الفتح ومعه بلال، فأمره أن يؤذن وأبو سفيان بن حرب وعتَّاب بن أسيد والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة ، فقال عتاب بن أسيد : لقد أكرم الله أسيداً ألا يكون سمع

هذا فيسمع منه ما يغيظه . فقال الحارث بن هشام : أما والله لو أعلم أنه محق لاتبعته ، فقال أبو سفيان : لا أقول شيئاً لو تكلمت لأخبرت عنى هذه الحصى ، فخرج عليهم النبى ﷺ فقال : « قد علمت الذى قلتم » ، ثم ذكر ذلك لهم ، فقال الحارث وعتّاب : نشهد أنك رسول الله ، والله ما اطّلع على هذا أحد كان معنا فنقول أخبرك .

سقوط أصنام الكعبة بإشارة من الرسول ﷺ :

قال ابن هشام : وحدثنى من أثق به من أهل الرواية فى إسناد له عن ابن شهاب الزهرى، عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال: دخلَ رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح على راحلته، فطاف عليها وحول البيت أصنام مشدودة بالرصاص، فجعل النبى ﷺ يشير بقضيب فى يده إلى الأصنام ويقول: ﴿ **جاء الحقُ وزهَقَ الْباطلُ إنَّ الْباطل كانَ زهُوقًا** ﴾ [الإسراء : ٨١] ، فما أشار إلى صنم منها فى وجهه إلا وقع لقفاه ، ولا أشار إلى قفاه إلا وقع لوجهه. حتى ما بقى منها صنم إلا وقع ، فقال تميم بن أسد الخزاعى فى ذلك :

وفى الأصنام معتبر وعلم ... لمن يرجو الثواب أو العقابا

كيف أسلم فضالة ؟ :

قال ابن هشام : وحدثنى: أن فضالة بن عمير بن الملوِّح الليثى أراد قتل الرسول ﷺ وهو يطوف بالبيت عام الفتح ، فلما دنا منه قال رسول الله ﷺ : «أفضالة ؟ » قال: نعم فضالة يا رسول الله، قال: « ماذا كنت تحدِّث به نفسك ؟» قال : لا شىء ، كنت أذكر الله ، قال : فضحك النبى ﷺ ثم قال : « استغفر الله » ، ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه . فكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما من خلق الله شىء أحبَّ إلىَّ منه. قال فضالة : فرجعت إلى أهلى، فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها، فقالت : هلم إلى الحديث ، فقلت: لا . وانبعث فضالة يقول :

قالت هلم إلى الحديث فقلت لا ... يأبى عليك الله والإسلام

لو ما رأيت محمداً وقبيله ... بالفتح يوم تكسر الأصنام

لرأيت دين الله أضحى بيننا ... والشرك يغشى وجهه الإظلام

أمان الرسول ﷺ لصفوان بن أمية :

قال ابن إسحاق: فحدثنى محمد بن جعفر، عن عروة بن الزبير، قال : خرج

صفوان بن أمية يريد جُدَّة ليركب منها إلى اليمن ، فقال عمير بن وهب : يا نبى الله ، إن صفوان بن أمية سيد قومه ، وقد خرج هارباً منك ، ليقذف نفسه فى البحر ، فأمِّنْه صلى الله عليك ، قال : « هو آمن » ؛ قال : يا رسول الله ، فاعطنى آية يعرف بها أمانك ، فأعطاه رسول الله ﷺ عمامته التى دخل فيها مكة، فخرج بها حتى أدركه ، وهو يريد أن يركب البحر. فقال : يا صفوان ، فداك أبى وأمى ، اللهَ اللهَ فى نفسك أن تهلكها ، فهذا أمان من رسول الله ﷺ قد جئتك به ، قال : ويحك! اغرب عنى فلا تكلمنى . قال : أى صفوان ، فداك أبى وأمى أفضل الناس وأبرُّ الناس ، وأحلمُ الناس ، وخير الناس ابن عمك ، عزه عزُك وشرفه وملكه ملكك ، قال : إنى أخافه على نفسى ، قال : هو أحلم من ذاك وأكرم ، فرجع معه حتى وقف به على رسول الله ﷺ فقال صفوان : إن هذا يزعم أنك أمنتنى . قال : « صدق » ، قال : فاجعلنى فى الخيار شهرين ؛ قال : « أنت بالخيار فيه أربعة أشهر » .

إسلام عكرمة وصفوان :

قال ابن إسحاق : وحدثنى الزهرى: أن أم حكيم بنت الحارث بن هشام ، وفاختة بنت الوليد، وكانت فاختة عند صفوان بن أمية، وأم حكيم عند عكرمة بن أبى جهل ، أسلمتا ، فأما أم حكيم فاستأمنت رسول الله ﷺ لعكرمة فأمّنه، فلحقت به فى اليمن فجاءت به ، فلما أسلم عِكرمة وصفوان أقرهما رسول الله ﷺ عندهما على النكاح الأول .

إسلام ابن الزبعرى :

قال ابن إسحاق : وحدثنى سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت ،قال : رمى حسانُ ابنَ الزبعرى وهو بنجران ببيت واحد ما زاده عليه :

لا تعدمن رجلاً أحلك بغضه ... نجران فى عيشٍ أخدَّ لئيم

فلما بلغ ذلك ابن الزبعرى ، خرج إلى رسول الله ﷺ فأسلم ، فقال حين أسلم :

يا رسول المليك إن لسانى ... رائق ما فتقت إذ أنا بور

إذ أبارى الشيطان فى سنن الغى ... ومن مال ميله مثبور

آمن اللحم والعظام لربى ... ثم قلبى الشهيد أنت النذير

إننى عنك زاجر ثمَّ حيّا من لؤى وكلهم مغرور[1]

إسلام سهيل بن عمرو :

وكان سهيل بن عمرو أغلق عليه بابه ، وبعث إلى ابنه عبد الله بن سهيل أن يأخذ له أماناً ، فأمَّنه رسول الله ﷺ وقال : « من لقى سهيل بن عمرو فلا يُشدَّ النظر إليه ، فلعمرى إن سهيلاً له عقل وشرف وما مثل سهيل جهل الإسلام » ، ولقد رأى ما كان يوضع[2] فيه أنه لم يكن له بنافع . فخرج عبد الله إلى أبيه فأخبره ، فقال سهيل : كان والله برّاً صغيراً وكبيراً ، فخرج وشهد حنين وأسلم بالجعرانة [3] .

* * *

نتحدث عن هذا النصر والفتح من خلال النقاط التالية التى تحدد معالم هذه السمة :

أولاً : انهيار المقاومة المسلحة .

ثانياً : رسول الله ﷺ فى مكة والبيت الحرام .

ثالثاً : المحكوم عليهم بالإعدام .

رابعاً : إسلام القيادة جميعاً .

النصر يبتدئ دائماً عندما تتحقق الهزيمة النفسية فى صفوف العدو ، وكان أبو سفيان هو بطل الاستسلام الرسمى فهو القائد العام لمكة، وكان كل اهتمامه ينصب على حماية مكة من التدمير ، ولن تتم حمايتها إلا إذا أعلنت الانسحاب والتخلى عن المقاومة، ولا نشك أبداً أن إسلام أبى سفيان رضي الله عنه كان دافعاً قويّا لفتح الطريق أمام محمد ﷺ لدخول مكة .

غير أن التطورات كانت على غير ما يهوى أبو سفيان. لقد حملت هند بنت عتبة زوجه لواء المعارضة ضده ، ودعت إلى قتله لأنه استسلم ، وراحت تهيج المشاعر والنفوس للمقاومة واستطاعت أن تقود تياراً قويّا مع القادة الشباب، الذين

---

(١) مقتطفات من السيرة لابن هشام ٢/ ٣٨٩ ـ ٤٢٠ .

(٢) يوضع : يجتهد ويشتد ، كناية عما كان يعبد . (٣) إمتاع الأسماع ١/ ٣٩١ .

عز عليهم أن تمرغ كرامتهم بالتراب لو لجؤوا إلى بيوتهم مذعورين خائفين، وضبط القائد العام لمكة أعصابه على هول الصفعة من زوجه هند، واكتفى للمحافظة على الهدف أن يقول: لا تغرنكم هذه عن أنفسكم، فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به.

وكان الجيش الإسلامى كما وزعه رسول الله ﷺ مكلفاً بدخول مكة من عدة محاور. وكان خالد بن الوليد على المجنبة اليمنى، وكلف بدخول مكة من أسفلها، وتحت إمرته أسلم وسُليم وغفار ومزينة وجهينة، وكان سلاح الفرسان مع هذه الكتيبة، وخالد هو قائد سلاح الفرسان دائماً، إذ أن سليم وحدها، حين انضمت للجيش الإسلامى قدمت بألف فرس وفارس.

وتحركت القيادات الشابة تقود الكثير من هؤلاء الشباب للمقاومة، وشاء قدر الله أن يلتقى رفاق السلاح فى مكان واحد، فخالد قبل أقل من عام هو قائد سلاح الفرسان لقريش، وقبل أقل من عام كان يخطط مع صفوان وعكرمة وسهيل لمواجهة محمد ﷺ، وهذه أول موقعة يقف فيها خالد تجاه أعز أصدقائه من قبل، وأقرب أقربائه الأدنين، تجاه عكرمة وصفوان اللذين دعاهما إلى الإسلام من بين كل الناس حين مضى إلى المدينة ليسلم.

ولكنها العقيدة هى التى فرقت بينه وبينهما اليوم، وهم يعرفون مَنْ خالد بن الوليد، وكانت مفاجأة صاعقة لهم أن يواجهوا به، وإن كان أَلَمهُمْ وَغَيْظُهُمْ منه أكثر من كل من سواه، فهو الذى تخلى عنهم، وانضم إلى صف محمد. وهم الموتورون منه. وحاول خالد رضي الله عنه أن يحول بين المواجهة غير أنه عجز عن ذلك، فلقد كان الغرور والعجرفة هو الذى يسيطر على هؤلاء المقاتلين، وقد رأينا مدى ثقتهم بقوتهم أن كان حماس بن قيس يعد امرأته أن يخدمها أحدهم، فسيكون المسلمون أسرى بين أيديهم وكما يقول:

إن يُقبلوا اليوم فمالى علَّه هذا سلاح كامل وإلَّه

وذو غرارين سريع السلَّه

ولن تستطيع قوة الشرك أن تصمد أمام قوة الإيمان حين يكون جند الإيمان هم القلة، فكيف إذا كانوا هم الكثرة عدداً وعدة، ومن أجل هذا ما تمالك المشركون ساعات حتى تبارى القادة بالفرار؛ صفوان وعكرمة وسهيل، ومع فرار القيادة لاذ الجنود بالفرار والمسلمون فى ظهورهم كالنار المشتعلة كما وصفهم حماس نفسه:

لهم نهيت خلفنا وهمهمه لم تنطقى باللوم أدنى كلمه

ونلاحظ أن الخسائر كانت قليلة ، فقد قتل من المشركين حوالى ثلاثة عشر رجلاً ، بينما استشهد من المسلمين ثلاثة بينهم اثنان ضلا الطريق فوقعا بين يدى العدو . وقلة القتلى بين الفريقين ناتجة عن سرعة فرار المشركين من جهة بعد فرار قياداتهم ، وعدم رغبة المسلمين فى متابعة القتال حسب أوامر الرسول ﷺ من جهة ثانية .

والدرس الذى نفقهه من خلال هذه المواقف أن نحسب كل الحسابات فى مواجهة العدو. فلا يكفى الاعتماد على الاستسلام العام له ، إذ أن بعض فصائل هذا العدو قد تثور على من وقّع وثيقة الاستسلام ، فلابد أن يُعدَّ لمثل هذا الأمر فى التخطيط الذى تقوم به القيادة ، والإرهاب بالقوة فى أحيان كثيرة ليس هدفه القتل والذبح بمقدار ما يهدف إلى إحباط مقاومة العدو . والحركة الإسلامية تستفيد كثيراً من هذا الدرس حين تفُتّ فى أعضاد خصومها بما تملكه حقيقة من قوة رادعة لهؤلاء الخصوم. ولقد رأينا مثل هذا الموقف فى عمرة القضاء حين قال المشركون : سيأتيكم محمد وجيشه قد أوهنتهم حمى يثرب ، فاضطبع رسول الله ﷺ بردائه وقال لجيشه ـ والمشركون ينظرون إليهم من دار الندوة : « رحم الله امرأ أراهم من نفسه قوة » ، ومضى ـ عليه الصلاة والسلام ـ يهرول والمسلمون وراءه . لابد أن تملك الحركة الإسلامية القوة الرادعة ، أو تخطط لذلك ، وهذا هو الضمان الوحيد الذى يمنع الخصوم من حربها ، وامتلاك هذه القوة الرادعة لا يعنى أن تتحول إلى عصابة قاتلة،بل تستطيع بهذه القوة أن تحطم النفوس المعاندة، وتردع العدوان الكامن ، وفى معظم الأحيان نجد أن هزيمة العدو مرتبطة بهزيمة قيادته ، فمع فرار صفوان وعكرمة وسهيل انتهت الحرب .

وعلى الحركة الإسلامية أن تقدم إضافة إلى القوة الرادعة القوة المكافئة ، فخالد هو الذى واجه سهيلاً وصفوان وعكرمة ، وهو الأدرى بهم وبإمكاناتهم ، وهذا يعنى كذلك أن الحركة الإسلامية لابد أن تعد الوسائل المكافئة كذلك لمواجهة خصمها ، وتجربة الحركة الإسلامية حين خاضت حرباً ضروساً ضد أعدائها قبل أن تمتلك السلاح والرجال المكافئين للخصم كانت كارثة مروعة راح ضحيتها عشرات الألوف من القتلى والجرحى والمفقودين . ولابد أن تأتى الفرصة التى تحدد فيها مسؤولية هؤلاء المسؤولين عن هذه المرحلة إن فرطوا فى هذه الأمانة .

ونمضى مع رسول الله ﷺ إلى مكة :

أولاً : فلقد كان وهو القائد المنتصر الذى دانت له رقاب العرب بعد أن أهدر دمه، وقال عنه ربه: ﴿ **إلاَّ تنصُرُوهُ فقدْ نصرهُ اللَّهُ إذْ أخْرجهُ الَّذين كفرُوا ثاني اثنين إذْ هُما في الغار إذْ يقُولُ لصاحبه لا تحْزنْ إنَّ اللَّهَ معنا فأنزلَ اللَّهُ سكينتهُ عليْه وأيَّدهُ بجُنُود لَّم تروها وجعل كلمَةَ الَّذين كفرُوا السُّفْلىٰ وكلمةُ اللَّه هي الْعُلْيا واللَّهُ عزيزٌ حكيمٌ** ﴾ [التوبة : ٤٠] .

من ذلك الموقع الذى يقول فيه أبو بكر رضي الله عنه : لو نظر أحدهم إلى خلل قدمه لرآنا ، إلى هذا الموقف ويحيط به عشرة آلاف مقاتل على قلب رجل واحد ، يفتح بهم الأرض، ويمضى إلى الذين حاربوه عشرين عاماً أو تزيد . وها هو اليوم يدخل فى قلب هذا النصر (يضع رأسه تواضعاً لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح ، حتى إن عثنونه ليكاد يمس واسطة الرحل) . فهو الآن عبد الله ورسوله الذى أنعم الله تعالى عليه بالفتح ، وليس هو كما تقول الجاهلية : بطل النصر ، وصانعه ومفجره ، بل كان الهتاف الإسلامى الخالد :

« لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده لا شيء قبله ولا شيء بعده » .

فالنصر هو نصر العقيدة ، نصر كلمة التوحيد ، وليس انتصار الذات ، أو انتصار الثأر أو انتصار الهوى ، وعلى هذا فالتذلل لله تعالى فى هذه الساعات هو الذى يتنزل فيه نصر الله ، وهذا الدرس لكل قادة الأرض الذين حفل بهم التاريخ أن يتعلموا من معلمهم الأول، كيف يكون القائد المنتصر بين يدى ربه الذى أعطاه هذا النصر .

وكم يغيب هذا المعنى عن القادة المسلمين بله الفرد العادى من المسلمين ، فتأخذه نشوة النصر فلا يكاد يطاله أحد وهو قد انتصر بمظاهرة أو كلمة ألقاها أو كلمة عابرة أثنى عليه بها عابر سبيل .

ثانياً : ودخل رسول الله ﷺ مكة بعد أن أعلنت استسلامها الأخير ، وكان أول ما يقصده الذى يدخل مكة هو البيت . ولابد أن نقارن بين طوافين ، لقد كان الطواف الأول فى عمرة القضاء والمسلمون معه والأصنام الثلاثمائة والستون تملأ فجاج الكعبة وأركان البيت، ولكنه كان عاجزاً عن المساس بها ، وليس له

الحق فى ذلك ، إذ إن دخول الكعبة فى عمرة القضاء دخول سلمى بحماية قريش وموافقتها ، فطاف والأصنام قائمة، أما اليوم فقد اختلف الأمر ، لقد دخل مكة فاتحاً ، واستسلمت بعد قتال ، غزيت بعد نقض للعهد . فالسلطة العليا له ، ولا عهد لأحد عليه . فكان أول ما أقدم عليه ﷺ هو تحطيم الأصنام . (فما أشار إلى صنم منها فى وجهه إلا وقع لقفاه ، ولا أشار إلى قفاه إلا وقع لوجهه حتى ما بقى منها صنم إلا وقع) .

وليت شباب الحركة الإسلامية يدركون هذه المقارنة ، ويدركون أن الإسلام لا يطبق طفرة واحدة ، فمع أن المسلمين دولة قوية فى عمرة القضاء لكن لا سلطة ولا سلطان لهم على مكة،والذين صالحوهم وهادنوهم منحوهم حق العمرة فى مكة فقط ولأيام محدودة ، دون مسٍ بأمن مكة أو شعائرها أو عقائدها ، لكن لا يطوفون بالمس من شعائر غيرهم كذلك. فالمسلمون يعلنون كلمة التوحيد فى مكة وهذا نقض كامل لمبادئ قريش، غير أنهم عاجزون عن القضاء على شعائر المشركين ومقدساتهم من الأصنام.ولقد قبل رسول الله ﷺ هذا الواقع من خلال معاهدة أقبل على توقيع بنودها،وهو درس هام وهام جداً للحركة الإسلامية، يوضح خطوط تحركها، ويوضح المرحلية فى الوصول إلى أهدافها،فما كان جائزاً من خلال معاهدة بين قريش ورسول الله ﷺ ـ وهو عدم التعرض لأصنام قريش ـ لم يعد جائزا بعد مرحلة القوة الجديدة التى فتحت أبواب مكة أمام رسول الله ﷺ دون قيد أو شرط.

فقد تقدم الحركة الإسلامية على ميثاق هدنة أو صلح أو تحالف لا يتم من خلاله التميز الكامل لشعائر الإسلام ، أو التنفيذ الكامل لمبادئ الإسلام ، لكن الذى لا عذر فيه أن يقدم المسلمون شعائر جاهلية ، أما أن تقوم الشعائر كل حسب مقدساته فلا غرابة فى ذلك ، إذ لم يثبت أن المسلمين وهم يطوفون حول الكعبة منعوا طواف بقية الناس ، ومنعوا إعلان شعائر الشرك التى تقول : لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك . إلا شريكاً هو لك وما ملك. أو منعوا السجود للأصنام وتقديسها أثناء الطواف، لكن كان لهم كامل الحق أن يطوفوا بشعائرهم دون أن يتقيدوا بشعائر المشركين .

وهذا التدرج الذى يصل المسلمون إليه خطوة بعد خطوة ، لابد أن يفقهه

الدعاة إلى الله تعالى ، ولا يسارعوا إلى النيل من قياداتهم حين تسير فى هذه الخطوات فى التدرج حسب القوة التى تمتلكها . إن معاملة القاعدة للقيادة دائماً على أن عليها أن تطبق أحكام الإسلام النهائية كما هى بعد براءة ، فهو ظلم لهذه القيادة من جهة ، وجهل بحقيقة هذا الدين ومرحليته وحركيته فى الوصول إلى أهدافه ، وحين نبين الحد الواضح بين الاحتواء الذى يمثل نطقنا بفكر غيرنا الذى لا نؤمن به ، أو يحارب عقيدتنا ، وبين التعامل الذى يحفظ لكل طرف حقه فى شعائره وعقيدته، نكون قد أدركنا هذه المرحلية. والدليل على هذه المرحلية كما نرى هو اختلاف الموقف بين طواف عمرة القضاء وطواف الفتح، فقد رافق طواف الفتح هدم للأصنام فى الكعبة، وإعلان كلمة التوحيد على بابها. والمشركون لا يملكون حتى رفع بصرهم إلى رسول الله ﷺ خوفاً ورهبة وإجلالا، كذلك هذا الافتراق بين الطوافين هو الذى يعلمنا كيف ننطلق بهذا الإسلام فى منهجه الحركى، ومن خلال سماته المتتابعة التى تحقق نصراً عقب نصر من خلال خطة واضحة المعالم ، محددة المراحل فى ذهن رسول الله ﷺ الذى خطط لفتح مكة دون أن يضطر لقيد واحد أو شرط واحد على الفتح ، بينما قام رسول الله ﷺ بذاته الشريفة فى إعلان مبادئ الهدنة المشتركة بين قريش ومحمد بن عبد الله .

ومما كُسِر كذلك صنم قريش الأكبر الذى كان مفخر عزها، وهو الذى نادى أبو سفيان باسمه يوم أحد فقال: اعل هُبل . . . ولم يترك الزبير رضي الله عنه هذا الأمر، فذكر أبا سفيان بذلك قائلاً له : (يا أبا سفيان ، قد كسر هبل أما إنك كنت يوم أحد فى غرور حين تزعم أنه قد أنعم ، فقال : دع هذا عنك يا بن العوام فقد أرى لو كان مع إله محمد غيره لكان غير ما كان). ومع انتهاء الطواف ، وإلغاء كل مظاهر الوثنية الظاهرة ، كان الناس ينظرون إلى القائد العظيم بثيابه الحربية الدرع والمغفر وعلى راحلته وهو بينهم حيث قام ـ عليه الصلاة والسلام ـ بعد الطواف بالشرب من ماء زمزم والوضوء منه استعداداً لخطوات لاحقة.

ثالثاً : ثم كان دخول الكعبة المشرفة ، حيث دعا عثمان بن طلحة رضي الله عنه وأخذ منه مفتاح الكعبة ودخلها فكسر شعائر الوثنية داخلها وهى الحمامة من العيدان ، وصورة إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو يستقسم بالأزلام ، وصلى بالكعبة ثم خرج إلى الناس. وكانت فرصة مواتية ، أن طلب العباس بن عبد المطلب ضم الحجابة إلى السقاية وتكونان لبنى هاشم .

وكان هذا أمام الناس جميعاً، ومن يستطيع أن يناقش رسول الله ﷺ فى أمر، حتى عثمان بن طلحة ، فلقد غدا جنديًا مسلماً ينفذ أمر رسوله والناس جميعاً كأن على رؤوسهم الطير، وهم ينتظرون ما تتحرك به شفتى النبى ﷺ فى هذا الأمر ، وبيده أن يلغى الحجابة ويضعها فى يده ، أو يعطيها لبنى هاشم رهط النبى من بعده ، لكن المسلمين والمشركين فوجئوا برسول الله ﷺ يقول : (« ادعوا إلىَّ عثمان بن طلحة » وكان ﷺ قال له يوماً بمكة ، وهو يدعوه إلى الإسلام ، ومع عثمان المفتاح. فقال : « لعلك سترى هذا المفتاح يوماً بيدى أضعه حيث شئت ». فقال له عثمان : لقد هلكت إذن قريش وذلت ، فقال ﷺ: « بل عمرت وعزت يومئذ ». فأقبل عثمان فقال له ـ عليه الصلاة والسلام :« خذوها يا بنى أبى طلحة تالدة خالدة، ولا ينزعها منكم إلا ظالم ، يا عثمان ، إن الله استأمنكم على بيته، فكلوا بالمعروف » . فلما ولى عثمان ناداه ـ عليه الصلاة والسلام ـ فرجع إليه فقال له : « ألم يكن الذى قلت لك ؟ » . فذكر عثمان قوله له بمكة . فقال : بلى أشهد أنك رسول الله ، فقال : « قم على الباب ، وكل بالمعروف » . ودفع عليه السلام السقاية إلى العباس رضي الله عنه)[1] .

ونقف أمام هذا الدرس العظيم العجيب الذى يفسره قول رسول الله ﷺ : «ألا إن كل ربا فى الجاهلية أو دم أو مال أو مأثُرة ، فهو تحت قدمى هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج » .

ولابد من التذكير أن هذا التوزيع لهذه المآثر بالأصل هو توزيع جاهلى بحت على يدى قصى بن كلاب مؤسس دولة قريش. (وكان ابنه عبد مناف قد شرف وساد فى حياته، وكان عبد الدار بكره ، فقال له قصى : لألحقنك بالقوم وإن شرفوا عليك ، فأوصى له بما كان يليه من مصالح قريش فأعطاه دار الندوة والحجابة واللواء والسقاية والرفادة ، وكان قصى لا يخالف ولا يُردُّ عليه شىء صنعه ، وكان أمره فى حياته وبعد موته كالدين المتبع . فلما هلك أقام بنوه أمره لا نزاع بينهم ، ولكن لما هلك عبد مناف نافس أبناؤه بنى عمهم عبد الدار فى هذه المناصب ، وافترقت قريش فرقتين وكاد يكون بينهما قتال ، إلا أنهم تداعوا إلى الصلح واقتسموا هذه المناصب ، فصارت السقاية والرفادة إلى بنى عبد مناف ،

---

(١) إمتاع الأسماع ١/ ٣٨٧ ، ٣٨٨ .

وبقيت دار الندوة واللواء والحجابة بيد بنى عبد الدار . . .) [1] .

ومع أن هذا التقسيم كما رأينا أعراف جاهلية ودين متبع عندهم ، لم يكن لدى رسول الله ﷺ وهو من بنى هاشم أن يعيد المفتاح إلى عثمان بن طلحة ابن عمه البعيد . تقيداً بأعراف مكة التى تخالف الإسلام ، بينما أعلن ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن بقية المآثر تحت قدميه .

ونحن نعلم أن هذا الأمر من رسول الله ﷺ هو من عند الله ؛ لأن الله تعالى أقر نبيَّه على ذلك ، وشاءت إرادة الله تعالى أن تبقى حراسة بيته بيد أحد بنى عبد الدار وبنيه من بعده ، وهو عثمان بن طلحة ، وحتى خمسة عشر قرناً من الزمان ، لم يتغير الأمر طالما أن رسول الله ﷺ هو الذى شرعه. وأما السقاية فقد تحولت على يد زبيدة زوج الرشيد ـ العباسية ـ ابنة العباس بن عبد المطلب إلى سقاية رسمية ـ من خلال مشروع المياه الذى مددته من الطائف إلى مكة لسقاية الحجيج حين لم يعد زمزم كافياً لذلك .

ونفقه من هذا الدرس كذلك أن بإمكان الحركة الإسلامية ـ وهى فى ذروة قوتها ـ أن تحافظ على بعض المآثر التى لا تتعارض مع المفهوم الإسلامى ، حفاظاً على مشاعر الأمة أن تصدم فيها حين تدخل فى صميم حياتها ، أما ما دون ذلك فمن حق دولة الإسلام أن تلغيه حين يتعارض مع الإسلام ، أو مصلحة المسلمين والجماعة الإسلامية .

لقد حافظ رسول الله ﷺ فى بداية الأمر على اللواء حتى أحد ، حيث كان بيد مصعب بن عمير رضي الله عنه العبدرى، لكنه بعد ذلك تخلى عنه، ولم يدخل اللواء فى إطار هذا الخلود ؛ لأن الله تعالى يعلم أن ألوية المسلمين سوف تملأ فجاج الأرض ، وسوف تنتشر تحت كل نجم ، فلا يمكن أن يحصر فى إنسان بل فى أمة بل فى جيل من الأجيال ، أما حين يرد سكان الأرض إلى البيت الحرام ، فلا يصعب أن تكون سدانته فى يدى بنى أبى طلحة ، ولا تزال فى عهدتهم إلى اليوم، حتى إن سادن الكعبة قد أعلن عن وفاته قبل عشرة أعوام فقط ، وقد استلم ابنه بعده وسيبقى إلى يوم الدين كما قال ـ عليه الصلاة والسلام: « خذوها تالدة خالدة ، لا ينزعها منكم إلا ظالم » .

---

(١) الرحيق المختوم ص ٣٧ .

ونقول فى نهاية المطاف مع هذه الفقرة : إن المسلمين وهم فى ذروة نصرهم، حيث لا يملك أحد أن يحول بينهم وبين ما يريدون ، ومع هذا كله فيستطيعون المحافظة على أعراف وتقاليد الدولة التى كانت قبل الحكم الإسلامى ما لم يتعارض ذلك مع الإسلام .

رابعاً : ثم كانت الخطبة التى أعلن فيها ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى بداية الأمر عفوه عن قريش: « يا معشر قريش ، ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ » ، قالوا: خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت . فقال : « فإنى أقول لكم كما قال أخى يوسف : ﴿ **لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين** ﴾ [يوسف : ٩٢] . اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

ثم أعلن مبادئ الحكم الإسلامى صريحة مدوية ، والتى سيبدأ بتنفيذها على التو ، بعد أن صار عليه الصلاة والسلام قادراً على تنفيذ هذا الحكم ، وها نحن نرى هذه المبادئ :

أ ـ إعلان إسلامية الدولة : « الحمد لله الذى صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده » .

ب ـ إسقاط الثارات والأمجاد السابقة : « إن كل ربا فى الجاهلية أو دم أو مال أو مأثرة فهو تحت قدمى هاتين ، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج » .

جـ ـ إسقاط الرابطة الجاهلية : « إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتكثُّرها بالآباء. كلكم لآدم وآدم من تراب ، وأكرمكم عند الله أتقاكم » .

د ـ حرمة الكعبة : « ألا إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ، فهى حرام بحرام الله لم تحل لأحد كان قبلى، ولا تحل لأحد كائن بعدى ، ولم تحل لى إلا ساعة من النهار ، ألا لا ينفر صيدها ولا يعضد (١) عضاهها (٢) ولا تحل لقطتها إلا لمنشد (٣) ولا يختلى خلاها (٤) » . فقال العباس : يا رسول الله ، إلا الإذخر فإنه لابد منه للقبور وظهور البيوت . فسكت ساعة ثم قال : « إلا الإذخر فإنه حلال » .

---

(١) يعضد : يقطع .
(٢) العضاة : شجر عظام له شوك .
(٣) اللقطة : الملقى فى الأرض ، والمنشد : المعرِّف بالضالة .
(٤) الخلا : الحشيش ، واختلى : قطع .

هـ ـ **فى مجال المرأة** : «ولا وصية لوارث، وأن الولد للفراش وللعاهر الحجر، ولا يحل لامرأة أن تعطى من مالها إلا بإذن زوجها » .

و ـ **إعلان الرابطة الجديدة** : « والمسلم أخو المسلم ، والمسلمون إخوة ، والمسلمون يد واحدة على من سواهم يتكافؤون دماءهم ، يردُّ عليهم أقصاهم ، ويعقد عليهم أدناهم ، ومشدُّهم على مضعفهم ، ومسيرهُم على قاعدهم » .

ز ـ **بعض الحقوق للطوائف الأخرى** : « ولا يقتل مسلم بكافر ، ولا ذو عهد فى عهده ، ولا يتوارث أهل ملتين مختلفتين » .

ح ـ **بعض الأحكام الاقتصادية** : « ولا جلب ولا جنب [1] ، ولا تؤخذ صدقات المسلمين إلا فى بيوتهم وبأفنيتهم . . . » .

ط ـ **فى النكاح** : « ولا تُنكح المرأة على عمتها وخالتها » .

ى ـ **فى القضاء** : « والبينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر » .

ك ـ **فى المحارم** : « ولا تسافر المرأة مسيرة ثلاث إلا مع ذى محرم » .

ل ـ **فى العبادات** : « ولا صلاة بعد العصر وبعد الصبح ، وأنهاكم عن صيام يومين يوم الأضحى ويوم الفطر » .

م ـ **فى الألبسة** : « وعن لبستين : لا يحتب أحدكم فى ثوب واحد يفضى بعورته إلى السماء ، ولا يشتمل الصماء ولا إخالكم إلا قد عرفتموها » [2] .

ومع نهاية الخطبة ألغى الوجود الجاهلى ، وصار الحكم للإسلام ، وتم تنفيذ حكمين شرعيين خلال وجود رسول الله ﷺ فى مكة :

أولهما : دية القتيل من بكر : « وقد قتلتم هذا القتيل والله لأديته فمن قتل بعد مقامى هذا فأهله بالخيار إن شاؤوا فدم قتيلهم وإن شاؤوا فعقله » .

ثم أمر خزاعة يخرجون ديته فأخرجوها مائة من الإبل، فكان أول قتيل وداه رسول الله ﷺ فى الإسلام .

---

(١) لا جلب ولا جنب : يجلب أموال الزكاة أو تجنب له.

(٢) أورد المقريزى هذه الخطبة فى إمتاع الأسماع ١/ ٣٨٧ ، وهى وإن لم تثبت كاملة فى هذا اليوم لكنها ثابتة بنسبتها إلى النبى ﷺ بأحاديث صحيحة .

ثانيهما : المرأة المخزومية التى سرقت ، وكانت امتحاناً مباشراً لدولة الإسلام فى الأرض ، وبنو مخزوم من أشراف الناس ، وبدأت الوساطات من كل جانب، وكان أسامة بن زيد رضي الله عنه أحب الناس إلى رسول الله ﷺ ، فجاء يشفع فى حدها . فكان الجواب قاسياً جداً عليه : « يا أسامة ، أتشفع فى حد من حدود الله » !!

ثم أعلن ـ عليه الصلاة والسلام ـ أسباب محق الأمم وهلاكها : « إنما أهلك من كان قبلكم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد » .

ثم أعلن كذلك ﷺ ، أنه لا أحد فى هذه الأرض فوق حدود الله بعد بلوغها للحاكم: « والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » .

والحركة الإسلامية تهلك يوم لا تعدل فى أحكامها بين قيادتها وقواعدها ، وطالما أنها ترهب أن تقول كلمة الحق فى صفها، فلن تعلن كلمة الحق فى الناس، وميزان الحكم على النصر والهزيمة من خلال هذه الكلية الضخمة ، وإنه لامتحان عسير أن تساوى القيادة فى أحكامها أبناءها مع الآخرين ، وحين تنفذ ذلك فتكون لها القوامة على الآخرين .

أما الذين أهدر رسول الله ﷺ دمهم ، وكانوا ستة نفر فكان أغلبهم من المرتدين ، أو الذين آذوا رسول الله ﷺ فى هجاء مقذع أو اعتداء أثيم ، وقد قتل نصفهم ونجا نصفهم . وتقبل رسول الله ﷺ ـ على كره منه ــ وساطة عثمان فى عبد الله بن سعد فى الوقت الذى أتاح فيه للمسلمين أن ينفذوا حكم رسول الله ﷺ فيه ، وشاءت إرادة الله ألا ينتبه المسلمون لذلك فينجو عبد الله ، ثم يسلم فيحسن إسلامه . وعثمان الذى تستحى منه الملائكة ، كان رسول الله ﷺ يستحى منه ويقول : « ألا أستحى ممن تستحى منه الملائكة » جعلت رسول الله يوافق بعد لأى وإلحاح لثلاث مرات على إجارته .

وهو موقف كريم من نبى كريم ، مع صحابى كريم من صحابته ، نرى من خلاله إلى أى مدى ترتفع قيمة الجندى عند قائده ولو فى تغيير خطة أعلنها على الملأ ، وكرامة عثمان عند رسول الله ﷺ ، كانت يوم تمت بيعة الحديبية على الموت ثأراً له بعد إشاعة مقتله . وها هو اليوم فى مكة يشفع لمرتد لا يمكن أن ينجو لولا الموافقة النبوية على ذلك .

والإشارة العظيمة إلى أن النبى لا يقتل بالإشارة ذات دلالة على شرف النبوة التى لا تتعامل بالغدر من الناس مهما كانت التكاليف الباهظة فى حقها .

إن كرامة العهد غالية جدّا على المسلم .

وكرامة الرجل المسلم غالية جدّا على الحركة الإسلامية .

وكرامة حدود الله غالية جدّا على الجيش المسلم .

ولابد من الموازنات بين هذه الأمور بحيث لا يطغى جانب على جانب .

ونلاحظ أن رسول الله ﷺ رفض قبول شفاعة أسامة بن زيد ووساطته من أجل المرأة المخزومية التى سرقت ، بينما قبل وساطة عثمان فى حد المرتد ، ولكن فى هذا الأمر شبهة لجوئه إلى مكة ، بينما حدثت السرقة فى ظل الدولة الإسلامية دون أية شبهة ، ودائماً تدرأ الحدود بالشبهات .

والحركة الإسلامية التى تحمل عبء إقامة دولة الله فى الأرض ، لابد لها أن تتحمل مسؤولية التطبيق العملى لذلك ، مهما كان الثمن غالياً ، والمجرمون الذين يحملون كبر الإجرام من كبار العتاة فى الأرض لابد من عقوبتهم دون مراعاة لعواطفهم ، طالما أنهم قادة لهذا الشر أو مراوغون مرتدون ثبت غدرهم وكفرهم، هذا بالنسبة لخارج الصف المسلم . وكذلك الأمر داخل هذا الصف فليست الغرابة أن يقع فيه الخطأ. بل نقول أكثر من ذلك : إن الغريب ألا يقع الخطأ فى هذا الصف ؛ لأن طبيعة النفس البشرية مجبولة على الخطأ .

« لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر الله لهم » (١).

إنما الأشد غربة أن يقع الخطأ فى كبيرة أو حد من الحدود ، ويُتهاون به ، وينفذ على الصغير دون الكبير ، وعلى الضعيف دون الشريف ، فهذه قاصمة الظهر للجماعة وللحركة الإسلامية كاملة ، فالحركة الإسلامية العاجزة عن تحقيق العدل فى صفوفها، هى من باب أولى عاجزة عن تحقيقه فى صفوف غيرها ، ومن هنا تأتى أضخم أزمة ثقة بين القيادة والقاعدة فى صف الحركة حين يصبح المثل المحتذى، والقدوة محل نقد وشك من شباب الدعوة، وجنودها الأوفياء .

---

(١) رواه الإمام أحمد عن ابن عباس ٢/ ٣٠٥ ، ومسلم عن أبى هريرة .

القيادات جميعاً تعتنق الإسلام

ولم يحدث فى تاريخ الأرض كلها أن يدخل قادة جيش العدو فى دين عدوهم إلا فى تاريخ الإسلام .

الثلاثة الكبار :

وهم قادة جيش العدو : صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبى جهل ، وسهيل ابن عمرو ، وإسلام كل واحد منهم ملحمة فخار فى تاريخ هذه الدعوة .

أما عكرمة ، فهو الذى قال لابن عمه خالد عندما دعاه للإسلام : لو لم يبق غيرى ما اتبعته أبداً .

ولاذ بالفرار إلى اليمن لينهى حياته هناك، غير أن المفاجأة أذهلته وهو يرى زوجه قد قدمت إليه، وحسب أنها فارة إليه ، ولكنها الآن تدعوه إلى أمان محمد ابن عبد الله ﷺ وعكرمة يعرف عهد محمد ووفاءه وكراهيته للغدر .

وعلى الصيغة نفسها كانت دعوة صفوان بن أمية للإسلام ، إذ لحق به صديقه السابق عمير بن وهب ، أما سهيل فاختبأ فى بيته ينتظر أماناً من رسول الله ﷺ فأعطاه إياه .

وطبيعى أن يفر هؤلاء الثلاثة أو يختبئوا ، فقد رفضوا الأمان الأول ، وحاربوا الجيش الإسلامى ، وأعلنوا العداء الصريح الواضح : أن لا لقاء مع محمد إلا من خلال السيف .

لكن حرص النبى ﷺ على طوى صفحة الحرب حتى مع هؤلاء القادة المحاربين ، كان واضحاً بحيث أعطى أمانه لهم دون تردد ، وحمل هذا الأمان زوجة وولد وصديق .

(وطلبت أم حكيم أماناً لعكرمة وقد هرب إلى اليمن . فأمَّنه ، فخرجت إليه حتى قدم ، فلما دنا من مكة قال رسول الله ﷺ : « يأتيكم عكرمة بن أبى جهل مؤمناً مهاجراً، فلا تسبوا أباه ، فإن سب الميت يؤذى الحى ، ولا يبلغ إليه » ، فلما رآه وثب إليه فرحاً ، فوقف ومعه امرأته متنقبة، فقال: يا محمد، إن هذه

أخبرتنى أنك أمنتنى . فقال : « صدقتْ . فأنت آمن » فأسلم)[1] .

وحين تُذكر الخالدات فى التاريخ تبرز أم حكيم فى ذروتهن ، فهى التى استطاعت أن يغلب حلمها جهلها والمرأة تنطلق من الحب والكره أكثر بكثير من الرجل ، ولم تكتف بذلك بل اعتبرت رسالتها الحقيقية هى أن تقنع زوجها بالإسلام ، وكم تثق بنفسها حين تقطع الأرض إلى اليمن باحثة عن زوجها تدعوه إلى أمان رسول الله ﷺ ، وطامحة إلى إسلامه ، وهى فى أعتى بيئة عداء للإسلام، فأبوها الحارث بن هشام الذى لم يدخل الإسلام بعد، وعمها أبو جهل، وزوجها عكرمة ، فالبيئة تنضح بالكره لمحمد والحقد عليه، ومع ذلك استطاعت أن تتجاوز هذا كله . وتمضى الداعية العظيمة فى فجاج الأرض لتعود بزوجها إلى رسول الله ﷺ .

ومدرسة النبوة الحية فى عظمة حلمها وصلتها وبرها تجل عن الوصف ، حتى إن النبى ﷺ يوصى المسلمين بالامتناع عن سب أبى جهل أمام عكرمة ، وتوارث سب أبى جهل فى الصف الإسلامى هو مدرسة بحد ذاتها، فلم يشتف المسلمون من كافر شفاءهم من أبى جهل. ورغم هذا الحقد المتوارث فى النفوس والكره المستأصل فيها ، فقد صدرت أوامر النبى ﷺ بإغلاق هذه المدرسة ، إكراماً لعكرمة المؤمن المهاجر . وإذا كان المسلمون قادرين على كبت مشاعر الحقد والكره على أبى جهل فرعون هذه الأمة، لكنهم عاجزون تماماً عن إبداء مشاعر الحب إلى الذى بقى حتى آخر لحظة يحارب الإسلام ويحارب الله تعالى ورسوله ، لكن النبى ﷺ الذى يحمل فى قلبه تاريخاً كاملاً من أذى أبى جهل وحربه له ولعقيدته ، كان أكبر من بشر الأرض جميعاً فى سموه ، واستطاع أن يظهر كل معانى الحب والود لعكرمة. فيثب إليه فرحاً منذ رؤيته ، أو لا يحس عكرمة رضي الله عنه أنه يذوب حياءً من رسول الله ﷺ ، وأنه أعجز من أن يصمد لحظة واحدة أمام هذا الاستقبال العظيم بعد الحرب الكؤود ، وأنه لن يقدر على هذا إلا أولو العزم من الرسل أو بالأحرى سيد هؤلاء الرسل جميعاً ، ومع ذلك تمالك وتجلد وتأكد قبل أن يعلن إسلامه من أمان رسول الله ﷺ له ، وأعلن إسلامه بعد أن نال أمانه .

إنها مدرسة فى التربية وليس درساً فقط ، تجرى أمام هذا الجيش المسلم ، تتجلى فى هذه المعالم الثلاثة :

---

(١) إمتاع الأسماع ١/ ٣٩٢ .

كظم الكره والحقد عن أكبر كفار التاريخ ومجرميهم أبى جهل إكراماً للعدو الألد ابنه الذى يأتى للإسلام .

القيام والوثوب لاستقبال هذا العدو الألد ، ومظاهر الفرح تملأ كيان النبى ﷺ ، ولما يعلن عكرمة إسلامه بعد .

إعطاء الأمان لعكرمة قبل أن يعلن إسلامه وهو الذى ملأ الدنيا حربا ضد الإسلام والمسلمين ، وهكذا دخل عكرمة فى هذا الدين دون أن تخدش كرامته أو تمس ، فقد كان بإمكانه أن يغادر مكة ، أو يبقى على كفره بهذا الأمان إلى فترة محدودة ، ولكنه حرص على أن يدخل فى هذا الدين دون أن يكون هذا الأمر تحت وطأة السيف وطريق الإرهاب . واستطاع النبى ﷺ أن يستل حقده كله ، وأن يضبط عواطف جيشه كله ، فلا ينال من عدو الله أبى جهل إكراماً لهذا المستأمن أولاً ، ثم المسلم بعد ذلك .

والذى يؤكد هذا المعنى هو صفوان بن أمية الذى طلب أماناً لشهرين فأعطاه رسول الله ﷺ الأمان لأربعة أشهر ، وتأخر فى إسلامه حتى حضر حنين مشركاً .

والذى لا شك فيه أن معاملة هؤلاء القادة كانت معاملة خاصة استثنائية ، فلا أمان لكافر محارب فى الأصل ، وإعطاؤه الأمان هو فسح الصدر لهذه النفوس أن تهدأ وترعوى .

وصفوان رضي الله عنه ، بلغ من حقده أنه رفض فى بداية الأمر أن يكلم صديق عمره عمير بن وهب الجمحى ، والذى لم يكن حقده عليه أقل من حقده على محمد ﷺ حين عاهده فى الحجر بعد بدر على قتل محمد ﷺ ، وراح يحدث القوم : سيأتيك عمير بخبر تتحدث به الركبان . وجاء الخبر بإسلامه ، فأقسم ألا يكلمه ، وها هو الآن يلحق به إلى البحر ويدعوه ويلاطفه ويلح عليه ، ويذكره بابن عمه محمد ﷺ أبر الناس وأوصل الناس وأحلم الناس حتى تلين قناته ، وتهدأ نفسه ، وعاد يطلب الأمان ، وقبل منه أن يدخل مدرسة المسلمين وهو على شركه ، إنه يعيش وسط البيئة المسلمة . وهو على شركه وهو على حقده ، وجرت حادثة كان من الممكن أن توتر الجو حين جاءه رسول محمد ﷺ .

حيث بعث رسول الله ﷺ يستقرض من صفوان خمسين ألف درهم ،

وأدراعاً من عنده للحرب فقال : أغصباً يا محمد ، قال : « لا . ولكن عارية مؤداة » . وأداها رسول الله ﷺ له من غنائم حنين ، ولئن كفلت المعاملة الطيبة لعكرمة مباشرة فى دخوله فى الإسلام ، لكن صفوان تأخر بعد حنين حتى أسلم يقول رضي الله عنه :

والله ما كان على ظهر الأرض أحد أبغض إلىّ من محمد ، فما زال يعطينى من غنائم حنين حتى لم يعد أحد على ظهر الأرض أحب إلى من محمد .

ولئن كان الوثوب لاستقبال عكرمة والأمان والنهى عن سب أبى جهل استطاعت أن تسل حقد عكرمة فيسلم ، وكانت غنائم حنين كفيلة بأن تستل حقد صفوان بعد شهرين . فكان لجواب رسول الله ﷺ لسهيل بن عمرو، أعظم الأثر فى استلال حقده، وكانت مدرسة سهيل بن عمرو من مدرسة خالد بن الوليد رضي الله عنه ، حيث آسلما من خلال الكلمة الطيبة .

كانت كلمة رسول الله ﷺ لخالد : « ما مثل خالد يجهل الإسلام ، وعقله عقله، ولو جاء إلينا لقدمناه على غيره » .

وكانت كلمة رسول الله ﷺ لعبد الله بن سهيل عن آبيه :

« من لقى سهيل بن عمرو فلا يشد النظر إليه ، فلعمرى إن سهيلاً له عقل وشرف ، وما مثل سهيل جهل الإسلام ، ولقد رأى ما كان يوضع فيه أنه لم يكن بنافع » .

فقال سهيل : كان والله براً صغيراً وكبيراً .

فخرج وشهد حنيناً وأسلم بالجعرانة .

إن هذا الصبر القليل على هؤلاء القادة الثلاثة ، جعلهم يدخلون الإسلام كما قال ابن الزبعرى ، بعد أن أسلم اللحم والعظام لربهم ، ولا يدخلونه خيفة أو نفاقاً .

إن الشخصيات العظيمة لا تتقن النفاق، فقد كان بالإمكان أن يموتوا طريدين مشردين، حاقدين على الإسلام، لكن عظمة المعاملة النبوية نقتلهم وهم قادة إلى الصف المسلم ليتبوؤوا موقع القيادة فيه ، ويكونوا سادة على قومهم يقاتلون بهم أعداء الله ، ويسقطون شهداء فى المعارك .

لقد مثل هذه الصورة واحد فقط من قادة مكة هو هبيرة بن أبى وهب زوج أم هانئ ولم يتراجع عن حقده ، ومات فى اليمن طريداً على كفره . فماذا يذكر التاريخ عن هبيرة ؟ وأم هانئ رضي الله عنها استطاعت أن تنقذ اثنين من أحمائها ليدخلوا فى حظيرة الإسلام ، ولم تتمكن أن تفعل مع زوجها ذلك .

شيوخ مكة :

وكان إسلامهم وهم يبثون حقدهم على رؤية بلال رضي الله عنه يؤذن فوق الكعبة ، تقول جويرية بنت أبى جهل - وهى تسمع : وأشهد أن محمداً رسول الله : قد لعمرى رفع لك ذكرك أما الصلاة فسنصلى ، والله لا نحب من قتل الأحبة أبدا . ولقد كان جاء أبى الذى جاء محمداً من النبوة فردها وكره خلاف قومه .

عتاب[1] بن أسيد : الحمد لله الذى أكرم أبى فلم يسمع هذا اليوم .

الحارث بن هشام : واثكلاه! ليتنى مت قبل هذا اليوم ، قبل أن أسمع بلالاً ينهق فوق الكعبة .

الحكم بن العاص : هذا والله الحدث العظيم ، أن يصبح عبد بنى جمح على بَنيَّة أبى طلحة[2] .

سهيل بن عمرو : إن كان هذا سخطاً لله فسيغيره ، وإن كان رضى فسيقره .

أبو سفيان بن حرب : أما أنا فلا أقول شيئاً ، لو قلت شيئاً لأخبرته هذه الحصباء . فأتى جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ فأخبره خبرهم[3] .

(فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال : « قد علمت الذى قلتم » ، ثم ذكر ذلك لهم . فقال الحارث وعتاب : نشهد إنك رسول الله ، ما اطلع على هذا أحد كان معنا فنقول : أخبرك)[4].

وهكذا انضم الحارث شيخ بنى مخزوم إلى الإسلام ، وهو أخو أبى جهل ، وانضم الشاب الفتى عتاب بن أسيد إلى الإسلام كذلك ، فكان أول أمير على مكة لرسول الله ﷺ وهو فى العشرين من عمره .

---

(١) عتاب فى مقتبل الشباب وكان جالساً معهم .

(٢) بنيَّة أبى طلحة : الكعبة ، ودعيت لأبى طلحة نسبة لأبى طلحة بن عبد الدار سادنها .

(٣) إمتاع الأسماع ١/ ٣٩٠،٣٩١ .

(٤) البداية والنهاية لابن كثير ٤/ ٣٠٢ .

لسان مكة :

وكان الناطق الرسمى باسم مكة ابن الزبعرى، الذى أمضى حياته ووطّن شعْره ووظفه فى حرب محمد ﷺ ، وفر إلى اليمن ، فأرسل إليه حسان بن ثابت بالبيت المشهور :

لا تعدمن رجلاً أحلك بغضه نجران فى عبش أحذ لئيم

وحرّك هذا البيت مشاعر ابن الزبعرى، فتقدم إلى مكة،حيث كان رسول الله ﷺ يهيئ الجو لقدومه ويقول فى صحبه : « هذا ابن الزبعرى ومعه وجه فيه نور الإسلام » ، ولا يغيب عن البال الشاعر الفحل الآخر ، كعب بن زهير الذى فرَّ هارباً إلى الطائف فجاءته رسالة أخيه المسلم بجير بن زهير يقول فيها :

من مبلغ كعباً فهل لك فى التى تلوم عليها باطلا وهو آحزم

إلى الله لا العزى ولا اللات وحده فتنجو إذا كان النجاء وتسلم

لدى يوم لا ينجو وليس بمفلت من الناس إلا طاهر القلب مسلم

فدين زهير وهو لا شىء دينه ودين أبى سُلمى علىَّ محرم

(فلما بلغ كعب الكتاب ضاقت به الأرض وأشفق على نفسه ، وأرجف به من كان فى حاضره من عدوه وقالوا : هو مقتول ، فلما لم يجد من شىء بدا قال قصيدته التى يمدح بها رسول الله ﷺ وذكر فيها خوفه وإرجاف الوشاة به ، ثم خرج حتى قدم المدينة فنزل على رجل كانت بينه وبينه معرفة من جهينة ، كما ذكر لى ، فغدا إلى رسول الله ﷺ فى صلاة الصبح فصلى مع رسول الله ثم آشار له إلى رسول الله ﷺ ، فقال : هذا رسول الله فقم إليه فاستأمنه ، فذُكر لى أنه قام إلى رسول الله ﷺ فجلس إليه ووضع يده فى يده وكان رسول الله ﷺ لا يعرفه فقال :

يا رسول الله ، إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائباً مسلماً فهل أنت قابل منه إن جئتك به؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم». فقال: إذن أنا يا رسول الله كعب بن زهير.

قال ابن إسحاق : فحدثنى عاصم بن عمرو بن قتادة أنه وثب عليه رجل من

الأنصار فقال : يا رسول الله ، دعنى وعدو الله أضرب عنقه ؟ فقال رسول الله ﷺ : « دعه عنك فإنه جاء تائباً نازعاً »)[1] .

وكان مما قاله :

نبئت أن رسول الله أوعدنى ... والعفو عند رسول الله مأمول

مهلاً هداك الذى أعطاك نافلة ... القرآن فيها مواعيظ وتفصيل

إن الرسول لنور يستضاء به ... مهند من سيوف الله مسلول

فى عصبة من قريش قال قائلهم ... ببطن مكة لما أسلموا زولوا

نسوة قريش :

وأسلمت هند بنت عتبة، وأم حكيم بنت الحارث امرأة عكرمة بن أبى جهل، والبغوم بنت المعذَّل امرأة صفوان بن أمية ، وفاطمة بنت الوليد بن المغيرة ، وهند بنت منبه بن الحجاج أم عبد الله بن عمرو بن العاص فى عشرة نسوة من قريش . فأتين رسول الله ﷺ بالأبطح، وعنده زوجتاه وفاطمة ابنته، فى نساء من نساء بنى عبد المطلب ، فبايعنه ولم تمس يده يد امرأة . (ورؤيت فيهن هند بنت عتبة وهى متنكرة لأجل صنيعها بحمزة فقال رسول الله ﷺ : « أبايعكن على ألا تشركن بالله شيئاً »، فبايع عمر النساء على ألا يشركن بالله شيئاً . فقال رسول الله ﷺ: « ولا تسرقن » . فقالت هند : إن أبا سفيان رجل شحيح ، فإن أنا أصبت من ماله هنأت ؟ فقال أبو سفيان : وما أصبت فهو لك حلال . فضحك رسول الله ﷺ وعرفها فقال: « وإنك لهند ؟ » قالت : نعم ، فاعف عما سلف يا نبى الله، عفا الله عنك ، فقال : « ولا يزنين » . فقالت : أو تزنى الحرة ؟ فقال : « ولا يقتلن أولادهن » . فقالت : ربيناهم صغاراً وقتلتهم ببدر كباراً فأنتم وهم أعلم . فضحك عمر حتى استلقى ، فتبسم رسول الله ﷺ فقال : « ولا يأتين ببهتان » ، فقالت: والله إن إتيان البهتان لقبيح، وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق، فقال: « ولا يعصينك فى معروف » فقالت : والله ما جلسنا مجلسك هذا وفى أنفسنا أن نعصيك .

ولما رجعت جعلت تكسر صنمها وتقول : كنا منك فى غرور)[2] .

---

(١) البداية والنهاية ٤/ ٣٦٩ .

(٢) الرحيق المختوم عن مدارك التنزيل للنسفى ص ٤٦٠ .

ها هى مكة بشيوخها وشبابها ونسائها وقادتها وشعرائها تدخل فى الإسلام ، أو فى أمان رسول الله ﷺ ، وحقق النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ هدفه الأكبر بالنسبة لقريش : « اليوم يوم المرحمة ، اليوم أعز الله قريشاً » .

وكان عزها فى دخولها أفواجاً فى دين الله ، واستطاع الرسول ﷺ أن يتجنب مجزرة فيها فناء قريش كلها من جهة وتهيئة قلبها لدخول الإسلام من جهة ثانية، ودخلت قريش كلها فى الإسلام ، وهذه هى عظمة الجهاد السياسى المسلح، الجهاد الذى ينطلق من القوة الضخمة التى تجعل العدو قد أحيط به ، فيستسلم على ضوء ذلك .

وهذا هو الفقه الأكبر للنفوس الذى شهدناه من خلال الفتح الأكبر، والحركة الإسلامية التى تحمل لواء الدعوة فى سبيل الله ، لابد أن تنتقل إلى الخط المسلح الذى يمنع عنها الإبادة من العدو ، ولكن هذا الأمر لا يتم إلا من خلال خطة متكاملة محددة المراحل ، فى طبيعة الصراع مع الباطل والطاغوت ، وقمة انتصارها حين تصبح قوة مرهوبة الجانب ، عندئذ يدخل خصومها معها فى حوار، وينتقلون للاعتراف بها كأمر واقع ، وكلما استطاعت أن تتقدم فى مضمار القوة أكبر، كلما استطاعت أن تسمع صوتها أكثر للجميع، واستطاعت أن تجد الآذان الصاغية لها ولدعوتها ، ولا يجوز أن تفتنها القوة عن هدفها ، بحيث تنسى مهمتها الأولى فى أن تكسب الناس جميعاً لهذا الدين الخصوم والأصدقاء على السواء.

ومن الفقه الأكبر كذلك،التعرف على نفسيات القيادات والشخصيات الضخمة للعدو. بحيث تتجنب أسلوب الإرغام والإذلال لها ؛ لأن هذا الأسلوب سيقود هذه الشخصيات إلى الحقد الأسود على الداعية والدعوة ، ويوجهها إلى الثأر والانتقام من جهة ، أو إلى المماألأة والنفاق ، ثم الكيد والتآمر فى الخفاء من جهة أخرى .

وعلى الحركة الإسلامية كذلك أن تعير قضية المرأة اهتمامها الكبير ، فهند بنت عتبة ، أشهر الحاقدات فى التاريخ ، هى التى قادت نسوة قريش إلى الإسلام ، وبلغ حقدها أن هاجمت زوجها ودعت إلى قتله حين دعا إلى الاستسلام، ومع ذلك أمكن تفتيت هذا الحقد إذ تقول لرسول الله ﷺ بعد انتهاء البيعة :

والله يا محمد ، ما كان على ظهر الأرض أحد أحب إليَّ من أن يذل من أهل بيتك وخبائك ، والله ما عاد على ظهر الأرض أحد أحب إليَّ من أن يعز من أهل بيتك وخبائك.

فيقول ـ عليه الصلاة والسلام : « وأيضاً والذى نفس محمد بيده »[1] .

فلو استطاعت الحركة الإسلامية أن تقنع رائدات الانحراف من النساء بطبيعة هذا الدين لأمكن أن يحولن المسار كله نحو الإسلام . والاهتمام بالقيم الكبرى التى تقبع فى أعماق القيادات وتختفى وراء بعض المظاهر الخادعة، يمكن أن يساهم مساهمة فعالة فى تحقيق الهدف العظيم :

﴿ إذا جَاء نصرُ اللهِ والْفتحُ . ورَأيْت النَاسَ يَدْخُلُونَ في دينِ اللهِ أفْوَاجًا . فسَبِّحْ بحَمْدِ ربِّكَ واسْتَغْفِرْهُ إنَّهُ كانَ تَوَّابًا ﴾ [سورة النصر] .

السمة الثالثة عشرة
إنهاء الجيوب الوثنية المتبقية
أ ـ هدم الأصنام العربية

وأقام رسول الله ﷺ بمكة تسعة عشر يوماً يجدد معالم الإسلام ، ويرشد الناس إلى الهدى والتقى ، وخلال هذه الأيام أمر أبا أسيد الخزاعى فجدد أنصاب الحرم ، وبث سراياه للدعوة إلى الإسلام ، ولكسر الأوثان التى كانت حول مكة، فكسرت كلها ونادى مناديه بمكة : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع فى بيته صنما إلا كسره .

السرايا والبعوث :

١ ـ ولما اطمأن رسول الله ﷺ بعد الفتح بعث خالد بن الوليد إلى العزى لخمس ليال بقين من شهر رمضان (سنة ٨ هـ) ليهدمها ، وكانت بنخلة ، وكانت لقريش وجميع بنى كنانة ، وهى أعظم أصنامهم ، وكان سدنتها بنى شيبان فخرج إليها خالد فى ثلاثين فارساً حتى انتهى إليها فهدمها ، ولما رجع سأله رسول الله

---

(١) البداية والنهاية ٤/٣١٩ عن البيهقى بسنده .

ﷺ : « هل رأيت شيئاً ؟ » قال : لا قال : « فإنك لم تهدمها ، فارجع إليها فاهدمها » ، فرجع خالد متغيظا قد جرد سيفه ، فخرجت إليه امرأة عريانة سوداء ناشرة الرأس ، فجعل السادن يصيح بها ، فضربها خالد فجزلها اثنتين ثم رجع إلى رسول الله فأخبره ، فقال : « نعم ، تلك العزى ، وقد أيست أن تعبد فى بلادكم أبدا » .

٢ ـ ثم بعث عمرو بن العاص فى نفس الشهر إلى سواع ليهدمه ، وهو صنم لهذيل برهاط على ثلاثة أميال من مكة ، فلما انتهى إليه عمرو قال له السادن : ما تريد ؟ قال : أمرنى رسول الله ﷺ أن أهدمه، قال: لا تقدر على ذلك، قال: لم ؟ قال : تُمنع، قال : حتى الآن أنت على الباطل ؟ ويحك، فهل يسمع أو يبصر ؟ ثم دنا فكسره ، وأمر أصحابه فهدموا بيت خزانته فلم يجدوا فيه شيئاً ثم قال للسادن : كيف رأيت ؟ قال : أسلمت لله.

٣ ـ وفى نفس الشهر بعث سعد بن زيد الأشهلى فى عشرين فارسا إلى مناة ، وكانت بالمشلل عند قديد للأوس والخزرج وغسان وغيرهم ، فلما انتهى سعد إليها قال له سادنها : ما تريد ؟ قال: هدم مناة ، قال : أنت وذاك ، فأقبل إليها سعد، وخرجت امرأة عريانة سوداء ثائرة الرأس ، تدعو بالويل ، وتضرب صدرها، فقال لها السادن : مناة دونك بعض عصاتك ، فضربها سعد فقتلها ، وأقبل إلى الصنم فهدمه وكسره ، ولم يجدوا فى خزانته شيئاً)[1] .

٤ ـ ولما رجع خالد بن الوليد من هدم العزى بعثه رسول الله ﷺ إلى بنى جذيمة داعياً ولم يبعثه مقاتلاً ومعه قبائل من العرب ، فوطئوا بنى جذيمة ، فلما رآه القوم أخذوا السلاح، فقال خالد : ضعوا السلاح ، فإن الناس قد أسلموا ، فلما وضعوا السلاح أمر بهم خالد عند ذلك : فكُتفوا، ثم عرضهم على السيف ، فقتل من قتل منهم ، فلما انتهى الخبر إلى رسول الله ﷺ رفع يديه إلى السماء ، ثم قال : « اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد ابن الوليد » ، ثم دعا رسول الله ﷺ على بن أبى طالب رضوان الله عليه فقال: « يا على، اخرج إلى هؤلاء القوم فانظر فى أمرهم ، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك » ، فخرج علىٌ حتى جاءهم ومعه مال قد بعث به رسول الله ﷺ ، فودى لهم الدماء وما أصيب لهم من

(١) الرحيق المختوم للمباركفورى ص ٤٦١ .

الأموال ، حتى إنه ليدى ميلغة الكلب[1] ، حتى إذا لم يبق شيء من دم أو مال إلا وداه ، بقيت معه بقية من المال، فقال لهم على ـ رضوان الله عليه ـ حين فرغ منهم : هل بقى لكم بقية من دم أو مال لم يود لكم ؟ قالوا : لا ، قال : فإنى أعطيكم هذه البقية من هذا المال احتياطاً لرسول الله ﷺ مما يعلم ولا تعلمون ، ففعل ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر فقال : « أصبت وأحسنت » ثم قام رسول الله ﷺ فاستقبل القبلة قائماً شاهراً يديه حتى إنه ليرى ما تحت منكبيه، يقول : « اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد » ثلاث مرات. وقد قال بعض من يعذر خالداً أنه قال : ما قاتلت حتى أمرنى بذلك عبد الله بن حذافة السهمى وقال : إن رسول الله ﷺ أمرك أن تقاتلهم لامتناعهم عن الإسلام .

قال ابن إسحاق : (وقد كان جحدم قال لهم حين وضعوا السلاح ورأى ما يصنع خالد ببنى جذيمة : يا بنى جذيمة، ضاع الضرب، قد كنت حذرتكم ما وقعتم فيه ، قد كان بين خالد وبين عبد الرحمن بن عوف فيما بلغنى كلام فى ذلك ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : عملت بأمر الجاهلية فى الإسلام ، فقال : إنما ثأرتُ بأبيك ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : كذبت ، قد قتلت قاتل أبى ، ولكنك ثأرت بعمك الفاكه بن المغيرة حتى كان بينهما شر ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : « مهلاً يا خالد ، دع أصحابى ، فوالله لو كان لك أحد ذهبا ثم أنفقته فى سبيل الله ، ما أدركت غدوة رجل من أصحابى أو روحته »)[2] .

٥ ـ هدم اللات : فلما فرغوا من أمرهم ، وتوجهوا إلى بلادهم راجعين ، بعث رسول الله ﷺ معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة ، فى هدم الطاغية ، فخرجا مع القوم ، حتى إذا قدموا الطائف أراد المغيرة بن شعبة أن يقدِّم أبا سفيان، فأبى ذلك أبو سفيان عليه . وقال : ادخل أنت على قومك ، وأقام أبو سفيان بماله بذى الهدم ، فلما دخل المغيرة بن شعبة علاها يضربها بالمعول ، وقام قومه دونه ـ بنو معتب ـ خشية أن يرمى أو يصاب كما أصيب عروة ، وخرج نساء ثقيف حسَّراً يبكين عليها ويقلن :

لتبكينَّ دفَّاع أسلمها الرضاع لم يحسنوا المِصاع [3]

---

(١) ميلغة الكلب : شيء يحفر من خشب ، ويجعل ليلغ فيه الكلب .

(٢) السيرة لابن هشام ٢/ ٤٢٨ ـ ٤٣٠ مقتطفات . (٣) المصاع : المضاربة بالسيوف .

ويقول أبو سفيان ـ والمغيرة يضربها بالفأس : واهاً لك [1] .

* * *

كانت الخطوة الأولى بعد هدم الأصنام بالكعبة هو أن تُلاحق الأصنام فى الأرض العربية كلها ، وكان هبل الصنم الأعظم بمكة قد تحطم على يدى الرسول ﷺ .

﴿ أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى . ألكم الذكر وله الأنثى . تلك إذا قسمة ضيزى ﴾ [النجم : ١٩ ـ ٢٢] .

ولقد ارتبطت قدسية البيت الحرام ارتباطاً وثيقاً بقدسية الأصنام ، ولم يكن العربى بعد الله تعالى يحلف بصنم إلا باللات والعزى .

وإن كان تأخر اللات بالهدم عن العزى ومناة كان مرتبطاً بكسر شوكة ثقيف ، غير أن العزى كانت أول المقدسات العربية تحطيماً بعد أصنام الكعبة ، وتلتها مناة بعد ذلك .

وكانت الخطة النبوية أن يقوم قائدا الفرسان فى مكة بهذه المهمة ، خالد وعمرو ، أما خالد فكانت مهمته إلى العزى ، بينما كانت مهمة عمرو بن العاص إلى سُواع .

وخالد وعمرو للملمات والمهمات الخاطفة الفدائية ، ومن أجل ذلك لم يكن معهما إلا بضعة وعشرين فارسا من فرسان المسلمين،ونجحت المهمتان نجاحاً عظيماً رغم المظاهرة العنيفة من العزى ومناة، التى تظهر من تلك المرأة العارية السوداء الناشرة شعرها ، وكان لتحطيم الصنم ، ومقتل المرأة وتهدم بيت السدانة أثر ضخم فى اضمحلال قدسية هذه الأصنام ، وكانت الآثار الإعلامية لهذه الأحداث أن اجتثت جذور الوثنية وزلزلت أركانها من القواعد.

لكننا نلحظ أن مناة كانت من نصيب سعد بن زيد الأشهلى رضي الله عنه ، ولم تكن من نصيب خالد وعمرو ، وسبب ذلك أن مناة هى المقدسة عند الأوس والخزرج، فلابد أن يهدمها واحد من الأوس والخزرج ، كما كانت العزى من مقدسات قريش فكان هدمها على يد خالد ، ولا يبعد أن تكون سواع مقدسة عند قوم عمرو

(١) السيرة لابن هشام ٤ / ٤٣١ .

أو أقاربه ، ومن أجل هذا كلف بهذه المهمة ، أو لعلها من المقدسات عند قريش كذلك .

وهو تخطيط نبوى واضح ، أن يحطَّم الصنم ممن كانوا يولونه القداسة والعبادة أكثر من غيرهم ، وهكذا نلحظ أن الذى هدم اللات فيما بعد ـ صنم ثقيف ـ هو المغيرة بن شعبة الثقفى ، وترافق هذا الهدم مع التوجيهات النبوية العامة فى مكة وحولها .

« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع فى بيته صنماً إلا كسره » .

وليس هذا أمراً سهلاً فى الحقيقة فهذه الخطوة من حيث الضخامة والخطورة تقارب فتح مكة وتحطيم تلك الآلهة المدعاة ، ثم تحطيم تلك الأصنام التى تملأ البيوت العربية ، تعنى هذه الأمور ثورة كاملة على الجاهلية، وإزالة معالمها ومحو مقدساتها من النفوس قبل البيوت وقبل أماكن العبادة ، وقد استطاع الإسلام ـ حقا فى هذه الخطوات ـ أن يهزم الجاهلية فى أقل عدد من الخسائر فى الأموال والأرواح ، والتى كان بالإمكان أن ترافقها المذابح الجماعية فى الأرض العربية .

ولابد هنا من المقارنة بين خطين كبيرين فى العمل الإسلامى فى هذه المرحلة.

هذان الخطان هما : تحطيم الأصنام ، وتحطيم الأشخاص .

فبمقدار ما حرص رسول الله ﷺ على الحفاظ على الأشخاص ، مهما كانت مستويات محاربتهم للإسلام ، ومستويات عقائدهم الوثنية ، حرص رسول الله ﷺ على تحطيم كل أثر من آثار الوثنية ، حتى ولو كان الصنم الصغير التافه فى البيت .

ولم نجد فى هذه القضية إطلاقا مراعاة للنفوس التى قد تثور أو تحقد أو تغضب أو ترتد حين تحطم مقدساتها وتكسر .

وما أحوج الدعاة إلى التفريق بين الخطين حتى فى مرحلة القمة ، مرحلة الفتح الأكبر والنصر المبين. إننا فى لحظة الانفعالات العاطفية، والخط الدعوى الإعلامى كثيراً ما نستعمل هذه المقولة : والأشخاص الطغاة الذين يحكمون بغير شريعة الله أصنام يجب أن تحطم .

والطغاة حين يصرون على الكفر لابد أن يسقطوا أو يحطموا . هذا لا شك

فيه ، لكن عظمة الإسلام هى فى الاغتيال النفسى لهؤلاء الطغاة وإعادة تركيبهم من جديد على ضوء الإسلام، فتكون معادلة البناء سهلة فى هذا المجال ونحن حين نغزو قلوب عظماء الرجال ، ونحتلها بهذا الإسلام العظيم ، نكون قد قطعنا شوطاً كبيراً فى مجال الدعوة من خلال البنيان القبلى والعشائرى الذى يجعل للقبيلة الدور الضخم فى شرائح الجهاد الإسلامى .

فخالد بن الوليد الذى حطَّم العزى كان فى مرحلة من المراحل من طواغيت مكة ، وكان صنماً يجب أن يحطم على حد مقولتنا الإعلامية العاطفية ، لكن عظمة الإسلام أن جعلت منه الأداة التى حطمت العزى فى الأرض العربية .

وقل هذا القول بالنسبة لعمرو بن العاص رضي الله عنه الذى كان أحد طواغيت مكة الكبار ، وتم على يديه هدم سُواع ، وكان من الممكن أن يكون هدف تحطيمه معركة طاحنة .

وقل مثل ذلك بالنسبة لأبى سفيان رضي الله عنه الذى كان أكبر الطواغيت فى مكة ، فلقد كان هدفاً بحد ذاته ، ولطالما بعث رسول الله من يغتاله ، وشاءت إرادة الله تعالى ألا ينجح مشروع اغتياله ، وبالتالى يدخل ضمن مخطط الهدى النبوى ، فيكون الأداة بعد أشهر فقط فى هدم اللات مع المغيرة بن شعبة .

إنها نقلة ضخمة فى عالم العظام أن تسير بهم برفق وبعبقرية من الجاهلية إلى الإسلام، وتحولهم من هدف للتحطيم إلى أداة تحطم بها معالم الكفر ، وبالتالى تفقه الحركة الإسلامية الفرق بين الخطين المذكورين ، وبمقدار ما تراعى أعماق النفس الإنسانية ، وتستلم مفتاحها وتوجد الهزة الشعورية التى تنقلها إلى حظيرة الإسلام بمقدار ما ترمى وراء ظهرك هذه المشاعر جميعاً عند بناء العقيدة وتهديم معالم الكفر ، وعدم إعطاء أى وزن لغضب النفوس من جراء تحطيم معالم الجاهلية ، وكان أقصى حد من التساهل فى المجال هو أن يعفى رسول الله ﷺ القوم من هدم أصنامهم بيدهم ، دون أن يكون تأجيل الهدم موضع مساومة، وأنت قادر على ذلك .

لكن هذا لا يمنع أبداً من القول: إن هذا المبدأ لم يكن هو المبدأ السائد فى كل المراحل، ونستطيع أن نلاحظ الموقف من الأصنام . إنه قد مرَّ بمراحل متعددة :

أولى هذه المراحل : يوم نهى الإسلام عن سب هذه الأصنام ، وكان هذا فى مرحلة البناء الأولى فى مرحلة تأسيس الدعوة :

﴿ ولا تسبُّوا الذين يدْعُون من دُون الله فيسبُّوا الله عدْوًا بغير علْم ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

وهذه المرحلة لا ترتبط بزمن ، وهى بالنسبة للحركة الإسلامية تمتد طالما أن الحركة الإسلامية غير قادرة على مواجهة الكفر بشىء يوم يُسبُّ الله تعالى ، ولا تستطيع أن تحول دون ذلك .

والثانية فى مرحلة تأسيس الدولة : ويختلف الأمر هنا من داخل الدولة إلى خارجها ، فداخل حدود الدولة الأصل أن تزول معالم الوثنية منها ، أما إذا اشترك فى سلطانها أكثر من جهة فيمكن أن تبقى هذه الأصنام دون أن يشارك المسلمون فى تقديسها . فمناة مثلاً لم تهدم قبل فتح مكة ، وكانت تشترك فى تقديسه الأوس والخزرج وغسان ، وإذا كان الأوس والخزرج قد انتهى تقديسها عندهم بعد الإسلام ، لكن اشتراك غسان فى تقديسها ، وغسان ذات شوكة ضخمة، ومرتبطة مع الروم بتحالفات مصيرية، أجلت عملية الهدم إلى فتح مكة.

والثالثة فى مرحلة تمكين الدولة : ويختلف الأمر فى مرحلة التمكين بين حق المشاركة وحق السيادة ، فحق المشاركة الذى قام من خلال معاهدة الحديبية ، والذى حدد تنفيذه بعد عام كامل ، وذلك حيث تختلط معالم الوحدانية بمعالم الشرك ، وحيث يقدر المسلمون أن يمارسوا شعائر الإسلام دون أن يشاركوا فى شعائر الشرك ، كما هو الأمر فى عمرة القضاء، وطاف المسلمون حول البيت الحرام ، دون أن يحق لهم التدخل فى آلهة المشركين.

ونلاحظ المرحلية حتى فى مجال المشاركة إذ تبدأ ـ كما قلت ـ بعد عام من المعاهدة ، وأما عند حق السيادة فالأصل إلغاء الوجود الوثنى كله ، مهما كانت النفوس ضعيفة ، وذلك الموقف الذى نشهده الآن بعد فتح مكة .

وفى الحديث عن سرية خالد رضي الله عنه إلى بنى جذيمة تبرز معان جديدة متعددة ، فمن هذه المعانى : أن خالداً رضي الله عنه قد نجح أعظم نجاح بصفته قائداً حربياً فى مؤتة وفتح مكة ، وهدم العزى ، ولم يوفق كثيراً بصفته داعية إلى الله تعالى ، وطغى الجانب الحربى على الجانب الدعوى عنده، وكانت تجربة قاسية له ولا شك ، ولما يمر على إسلامه سنة كاملة وبالتحديد خلال الأشهر الثمانية الأولى من إسلامه.

لقد كانت بوادر هذا الاندفاع ظاهرة فى فتح مكة حيث قاتل المشركين ، ورسول الله ﷺ قد نهى عن القتال ، وحوسب على ذلك فقال : (جاءنى فلان فأمرنى أن أقتل من قدرت عليه ، فأرسل إليه ألم آمرك ؟ قال : أردت أمراً وأراد الله أمراً فكان أمر الله فوق أمرك ، وما استطعت إلا الذى كان) [1] . وفى رواية أنه أقسم ما قاتل حتى قوتل .

وقبل رسول الله ﷺ عذره .

لكن الخطيئة فى بنى جذيمة كانت ضخمة،وذات أثر سيئ جداً فى الصف العربى الذى ينظر إلى المسلمين على أنهم القدوة العليا فى الأرض ، وعلى اختلاف الروايات ، فلا نجد رسول الله ﷺ هنا يغفر لخالد ، بل يرفع يديه إلى السماء متجهاً إلى القبلة ويقول: « اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد » قالها ثلاثاً .

وصورة الأمر حين ينتشر يعنى أن لا عهد للمسلمين مع خصومهم ، وأنه ليس أمام هؤلاء الخصوم إلا المقاومة أو الإسلام، ورسول الله ﷺ بعث خالداً داعياً ولم يبعثه مقاتلاً. ودون الخوض فى التعليلات التى سبقت واختلاف الروايات فيها ، فمما لا شك فيه أن مقتل الكثير من بنى جذيمة يخالف التوجيه النبوى مخالفة تامة ، واحتمال أن تكون هذه النفوس السبعون أو أكثر قد قتلت ظلماً بعد الإسلام هو احتمال قوى كما تذكر بعض الروايات الصحيحة ، والذى يزيد فى المسؤولية أن هناك من احتج احتجاجاً شديداً على قتلهم،وأهم من احتج على ذلك عبد الله بن عمر، وسالم مولى أبى حذيفة، وعبد الرحمن بن عوف، حتى كاد يكون بينهم شر، وإن كانت بعض الروايات تشير إلى أن عبد الله بن حذافة السهمى رضي الله عنه هو الذى أمر خالداً بذلك ، وكان ألم رسول الله ﷺ ألماً عظيماً من هذه النتيجة ، وحاول أن يستدرك الأمر بعلى رضي الله عنه الذى لحق ببنى جذيمة فأوقف القتل، ودفع دية جميع القتلى بلا استثناء ، وعوض عن جميع الخسائر المادية حتى ميلغة الكلب .

ومن هذه المعانى : الدرس القاسى الذى لقنه رسول الله ﷺ لخالد ، حين أعلن براءته مما عمله على مستوى الملأ ، هذا بالنسبة له ، لكن حرص ـ عليه

(١) البداية والنهاية ٤ / ٢٩٧ .

الصلاة والسلام ـ على الحفاظ على ما تبقى من الدماء ، درس آخر علنى فى تسفيه سلوك خالد وتخطئته على الملأ من بنى جذيمة .

ومن طرف ثالث وضع خالد ﷺ ضمن حدوده حين يتجاوز على أمثال عبد الرحمن بن عوف ﷺ وهو من السابقين الأولين من المهاجرين .

إن هذه النفسية العظيمة التى كانت تجد الأمجاد أمامها مجدا بعد مجد لابد لها حين تخطئ من أن تُكفكف عن خطئها، وتطامن من كبريائها، فتبقى هذه التجاوزات محاطة بسياج الإسلام يردها عندما تريد الجموح . لقد كانت كلمة رسول الله ﷺ لخالد أقسى من أى درس تلقاه فى حياته . درس فى التربية يتلقاه القائد العظيم ليتعلم أصول الدعوة وطريقها ، وذلك حين قال له ـ عليه الصلاة والسلام : « دع عنك أصحابى ، فلو أنفقت ملء أحد ذهباً ما بلغت مد أحدهم ولا نصيفه » ، وفى رواية : « ما أدركت غدوة رجل من أصحابى أو روحته » .

كان لابد لهذه المعانى أن تطرق ذهن القائد العظيم وهو يتلقى دروس التربية فى مدرسة النبوة . فذكر الغدوة والروحة لابد من الإشارة إليه ، وكل علاقة خالد بالجهاد لم تبلغ بعد ثلاث معارك خلال ثمانية أشهر ، فكيف يغيب عن ذهنه جهاد عشرين عاماً أو تزيد فى صحيفة عبد الرحمن ﷺ هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فلذكر جبل أحد معنى ذو مذاق خاص ، لا يدرك مذاقة المر مثل خالد ابن الوليد ﷺ ، فهو بطل أحد ، وهو الذى حارب رسول الله ﷺ فى تلك المعركة فى الوقت الذى كان عبد الرحمن بن عوف واحد من خمسة يذودون عن رسول الله ﷺ ، وناله أكثر من عشرين جراحة ، فكيف يستويان ؟

وفى الوقت الذى كان خالد ﷺ يحمل على كتفيه وسام مؤتة وهو من أعلى الأوسمة العسكرية على الإطلاق ، لكن هذا لا يعفيه من المسؤولية ، ولا يبيح له قتل كثير من المسلمين دون تثبت ، فكان هذا الدرس من أعظم الدروس التربوية التى تلقاها خالد فى حياته ﷺ .

فقه منه أن الحرب ليست للحرب ، كما هى الحال فى تاريخه العسكرى لعشرين عاماً خلت ، وفقه منه أنه داعية قبل أن يكون قائد حرب ممتاز ، وفهم منه أن استلامه الموقع الأول فى القيادة لا يعنى أن هذا يعطيه حق التعالى على الآخرين ، أو أنه غدا خيراً منهم، بل لا يحق له أن يقارن نفسه مع الجيل الأول من المجاهدين ومع الرعيل الأول منهم .

ومن المعانى التى تبرز من خلال هذه السرية : حركية الرسول ﷺ العجيبة التى جعلته يتدارك الأمر قبل فوات الأوان ، وحين تقارن هذه الحركية مع الحركية القائمة للجماعة الإسلامية يكاد يصيبنا الذهول والألم للبون الكبير بين الحركيتين، مع توفر وسائل المواصلات اليوم. وفى العمق النفسى الذى سلكه رسول الله ﷺ واختياره عليا بالذات بصفته الممثل الشخصى له فهو أخوه وابن عمه كى يطمئن الناس إلى الموقف الصحيح الذى عالج الخطأ ، بهذه الحكمة حتى ليدى ميلغة الكلب، ويوزع الباقى على بنى جذيمة لتثلج صدور الناس من جديد ، وتمسح هذه اليد الحانية تلك المجزرة الضخمة ، ولا أدل على التعبير عنها مما رآه رسول الله ﷺ فى نومه إذ قال :

(« رأيت كأنى لقمتُ لُقمة من حيس[1] فالتذذت طعمها ، فاعترض فى حلقى منها شىء حين ابتلعتها فأدخل علىٌ يده فنزعه » ، فقال أبو بكر الصديق : يا رسول الله ،هذه سرية من سراياك تبعثها . فيأتيك منها بعض ما تحب ، ويكون فى بعضها اعتراض فتبعث عليا فيسهله) [2] ، ولعل الشىء الأخطر الذى أنقذه على رضي الله عنه هو سمعة المسلمين ، وذلك حين يتناقل الناس النبأ : إن المسلمين يغدرون ، وإنهم سيذبحون كل من يعاديهم حتى لو دخل فى الإسلام ، فانتشار هذه القالة دون أن ينتشر معها ذلك التصحيح المباشر الذى يلف الخطأ ويزيل آثاره سوف يقف سدا ذريعاً بين الناس وبين الإسلام .

وهذا الدرس يعنى أن كرامة الحركة فوق كرامة الأشخاص ، وسمعة الدعوة فوق سمعة الأشخاص ، وأن يُشْرَح خطأ خالد علناً ، على ما فيه من قساوة على خالد ، هو أمر من مصلحة هذه الدعوة التى لا يجوز لها أن تفرط فى ذرة من سمعتها على الإطلاق .

ومن أجل إرضاء النفوس يبذل المال كله ، ولو تجاوز حدود الصلاحيات المتاحة ضمن الهدف العام الذى تتحرك القيادة من أجله وهو تطبيب النفوس ، وإعادة الثقة فيها من جديد.

ومن المعانى السابقة المذكورة إلى المعنى الأخير الخطير ، هذا المعنى هو : قيمة

---

(١) حيس : أن يخلط السمن والتمر والاقط فيؤكل .

(٢) السيرة لابن هشام ٤ / ٤٢٩

الداعية المجاهد ، وقبل أن نمضى بعيداً فى هذا المعنى نقف مع هذه اللمحات والخطرات فى واقع الحركة الإسلامية من خلال بعض الأمثلة التى توضح الفرق بين هذا الواقع وبين الأفق الوضىء الذى تدعونا السيرة النبوية إليه .

١ ـ ذات مرة وقع أخ من صفوف الحركة الإسلامية أسيرا بيد حليف هذه الحركة ، ولخطأ أو إهمال أو غدر تم تسليم هذا الأخ إلى يد العدو ، فأدت هذه القضية فى صف هذه الحركة إلى توترٍ لم يحصر الأمر ضمن الخطيئة ، بل زعزع ثقة الجنود بكل القيادة ، وأشار بعض المغرضين فيها بأصابع الاتهام إلى خط الجماعة كله ، ووصمها البعض بالغباء والتواطؤ، ولا شك أن الحاقدين تمكنوا من إثارة هذا الجو وتعبئة النفوس فى هذا المسار ؛ لأن هذا التسليم عرض العديد من الشباب للخطر .

٢ ـ ألقى أخ مسؤول ذات مرة كلمة حماسية فى الإذاعة المخصصة للحركة الإسلامية ، فثار الشباب المتحمس ضده فى اليوم الثانى ، واتهمه بأنه يريد أن يذبح أسرى هذه الحركة الموجودين فى صفوف العدو ، وراح الحماس يلعب دوره حتى اتهمه بمسؤوليته عن قتل ستة آلاف شهيد نتيجة تلك الكلمة المذاعة ، علماً بأن الشهداء سقطوا قبل هذه الكلمة ، وأضحت المطالبة بإقصائه ومحاكمته وقتله .

٣ ـ حدث فى الإذاعة التى تشترك بها الحركة الإسلامية أن أخطأ بعض الإخوة ، وأدخل مقطوعة موسيقية ضمن برنامج إسلامى ، فقامت القواعد ولم تقعد . متهمة القيادة بالانحراف عن الإسلام ، وبأن هذه القيادة غدت أداة فى يد العدو ، تهادن فى دين الله ، وتستحل الحرام ، وتعلن القواعد فقدان ثقتها النهائية بالقيادة ؛ لأن بعض أفرادها مسؤول عن مراقبة البرامج مع عددٍ من الإخوة وقبل هذا الحرام .

ذكرت هذه النماذج الثلاثة ، ولا أقول : إن القواعد جميعها تسلك هذا السبيل ، إنما يوجد بعض الشباب الذين يثيرون هذه الاتهامات، وتجد أذناً صاغية لهذا البهتان ، وتضخيم الخطأ ، وتحويله إلى انحراف كامل بالحركة .

وهذه النماذج الثلاثة أضعها بين يدى حادثة بنى جذيمة ، وكيف أعمل خالد رضي الله عنه السيف بالأسرى بعد أن أمَّنهم، أو بعد إعلان إسلامهم رغم المعارضة العنيفة لهذا التصرف من كبار المهاجرين،ورأينا خطورة هذه القضية التى اقتضت

إعلان البراءة مما فعله خالد ﷺ أمام الصحابة جميعاً ، ثم كف يده عن القتل بأمر رسول الله ﷺ ودية من تمت إبادتهم .

خطأ أودى بأرواح سبعين أو أكثر من بنى جذيمة، وقضوا خطأ بعد إسلامهم، وماذا جرى بخالد بعد هذا الدرس النبوى القاسى ؟؟

لقد بقى خالد ﷺ فى مركزه وبعد أقل من عشرين يوماً خاض غزوة حنين، وهو بموقفه نفسه قائد خيالة المسلمين ، كما يقول المقريزى : وبقيت سُليم كما هى فى مقدمة الخيل وعليهم خالد بن الوليد (١) .

فالخطأ الذى أخطأه ابن الوليد ﷺ لم يحرقه،ولم يقض عليه، ولم يعزله ، ولم ينل من كفاءته وطاقته ، إنما أعلن خطؤه ، وسمع التأنيب الضرورى ، وتلقى الدرس التربوى المناسب،وتابع مهمته فى موقعه نفسه فى القيادة دون أن يشهَّر به، أو يستغنى عنه، بل نهى المسلمين بعد الخطأ ذاك من الاسترسال فى النقد ، وطلب منهم الكف عن الحديث فى هذا الأمر وقال: « لا تسبوا خالداً فإنه سيف من سيوف الله، سلَّه الله على المشركين » (٢).

ونخلص من هذا الدرس الأخير إلى أن خطأ الأخ سواءً كان فى القيادة أو فى القاعدة لابد أن يعالج المعالجة المناسبة، ويحاسب على خطئه، لكنَّ هذا لا يقتضى إسقاطه أو عزله، أو التخلى عنه، والتخلى عن طاقاته وإماكاناته ومواهبه، والجماعة الحكيمة هى التى تحافظ لا على قيادتها فحسب بل على أصغر جندى من جنودها ، والفرق كبير جداً جداً بين محاسبة المخطئ فى الحدود اللازمة ، وبين الإجهاز عليه ، وما يوم بنى جذيمة بسر .

ب ـ غزوة حنين

الرسول ﷺ يغادر مكة إلى حنين :

وفى يوم السبت السادس من شهر شوال سنة ٨ هـ ، غادر رسول الله ﷺ مكة ، وكان فى اثنى عشر ألفاً من المسلمين ، عشرة آلاف ممن كانوا خرجوا معه

---

(١) إمتاع الأسماع ١ / ٤٠٥ .

(٢) المصدرالسابق ١ / ٤٠٠ .

لفتح مكة ، وألفان من أهل مكة ، وأكثرهم حديثو عهد بالإسلام ، واستعار من صفوان بن أمية مائة درع بأداتها ، واستعمل على مكة عتاب بن أسيد ، ولما كان عشية جاء فارس فقال: إنى طلعت جبل كذا وكذا، فإذا أنا بهوازن عن بكرة أبيهم بظعنهم ونعمهم وشائهم ، فتبسم رسول الله ﷺ وقال : « تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله » ، وتطوع للحراسة تلك الليلة أنس بن أبى مرثد الغنوى.

وفى طريقهم إلى حنين رأوا سدرة عظيمة خضراء يقال لها : ذات أنواط ، كانت العرب تعلق عليها أسلحتهم ، ويذبحون عندها ويعكفون ، فقال بعض أهل الجيش لرسول الله ﷺ : يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال: « الله أكبر ، قلتم ، والذى نفسى بيده، كما قال قوم موسى : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال : إنكم قوم تجهلون إنها السنن ، لتركبن سنن من كان قبلكم » ، وقد كان بعضهم قال ـ نظراً إلى كثرة الجيش : لن نغلب اليوم ، وكان قد شق ذلك على رسول الله ﷺ .

الجيش الإسلامى يُباغتُ الرماة والمهاجرين :

انتهى الجيش الإسلامى إلى حنين ليلة الثلاثاء لعشر خلون من شوال ، وكان مالك بن عوف قد سبقهم فأدخل جيشه بالليل فى ذلك الوادى ، وفرق كمناءه فى الطرق والمداخل والشعاب والأخباء والمضايق ، وأصدر إليهم أمره بأن يرشقوا المسلمين أول ما طلعوا ، ويشدوا شدة رجل واحد . وبالسحر عبأ رسول الله ﷺ جيشه ، وعقد الألوية والرايات ، وفرقها على الناس ، وفى عملية الصبح استقبل المسلمون وادى حنين ، وشرعوا ينحدرون فيه، وهم لا يدرون بوجود كمناء العدو فى مضايق هذا الوادى ، فبينا هم ينحطون إذا تُمطر عليهم النبال ، وإذا كتائب العدو قد شدت عليهم شدة رجل واحد ، فانشمر المسلمون راجعين ، لا يلوى أحد على أحد ، وكانت هزيمة منكرة . . . وانحاز رسول الله ﷺ جهة اليمين وهو يقول : « هلموا إلىَّ أيها الناس ، أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله »، ولم يبق معه فى موقفه إلا عدد قليل من المهاجرين وأهل بيته وحينئذ ظهرت شجاعة النبى ﷺ التى لا نظير لها فقد طفق يركض بغلته قِبَلَ الكفار وهو يقول : « أنا النبى لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب » .

بيد أن أبا سفيان بن الحارث كان آخذاً بلجام بغلته ، والعباس بركابه يكُفانها ألا تسرع ، ثم نزل رسول الله ﷺ فاستنصر ربه قائلاً : « اللهم أنزل نصرك ».

رجوع المسلمين واحتدام المعركة :

وأمر رسول الله ﷺ عمه العباس ـ وكان جهير الصوت ـ أن ينادى الصحابة . قال العباس : فقلت بأعلى صوتى : أين أصحاب السمرة ؟ قال : فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتى عطفة البقر على أولادها ؛ فقالوا: يا لبيك يا لبيك ، ويذهب الرجل ليثنى بعيره فلا يقدر عليه فيأخذ عليه درعه فيقذفها فى عنقه ، ويأخذ سيفه وترسه ، ويقتحم عن بعيره ، ويخلى سبيله ، فيؤم الصوت حتى إذا اجتمع إليه مائة استقبلوا الناس واقتتلوا .

وصرفت الدعوة إلى الأنصار : يا معشر الأنصار ، يا معشر الأنصار ، ثم قصرت الدعوة فى بنى الحارث بن الخزرج ، وتلاحقت كتائب المسلمين واحدة تلو الأخرى كما كانوا تركوا الموقعة، وتجالد الفريقان مجالدة شديدة، ونظر رسول الله ﷺ إلى ساحة القتال ، وقد استحر واحتدم فقال : « الآن حمى الوطيس »، ثم أخذ رسول الله ﷺ قبضة من تراب الأرض، فرمى بها فى وجوه القوم ، وقال : « شاهت الوجوه » ، فما خلق الله إنساناً إلا ملأ عينيه تراباً من تلك القبضة فلم يزل حدهم كليلاً ، وأمرهم مدبراً .

انكسار حدة العدو ، وهزيمته الساحقة :

وما هى إلا ساعات قلائل ـ بعد رمى القبضة ـ حتى انهزم العدو هزيمة منكرة وقتل من ثقيف وحدهم نحو السبعين ، وحاز المسلمون ما كان على العدو من مال وسلاح وظعن . وهذا هو التطور الذى أشار إليه سبحانه وتعالى فى قوله: ﴿**ويوم حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ . ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ**﴾ [التوبة : ٢٥ ، ٢٦] .

حركة المطاردة :

ولما انهزم العدو صارت طائفة منهم إلى الطائف ، وطائفة إلى نخلة ،وطائفة إلى أوطاس ، فأرسل النبى ﷺ إلى أوطاس طائفة من المطاردين يقودهم أبو عامر الأشعرى فناوش الفريقان القتال قليلاً، ثم انهزم جيش المشركين،وفى هذه المناوشة قُتل القائد أبو عامر الأشعرى ، وطاردت طائفة أخرى من فرسان المسلمين فلول

المشركين الذين سلكوا نخلة ، فأدركت دريد بن الصمة فقتله ربيعة بن رفيع . وأما معظم فلول المشركين الذين لجؤوا إلى الطائف فتوجه إليهم رسول الله ﷺ بنفسه بعد أن جمع الغنائم .

الغنائم :

وكانت الغنائم : السبى ثلاثة آلاف رأس ، والإبل أربعة وعشرون ألفاً ، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة ، وأربعة آلاف أوقية فضة ، أمر رسول الله ﷺ بجمعها ثم حبسها بالجعرانة ،وجعل عليها مسعود بن عمرو الغفارى،ولم يقسمها حتى فرغ من غزوة الطائف، وكانت فى السبى الشيماء بنت الحارث السعدية ، أخت رسول الله ﷺ من الرضاعة ، فلما جيء بها إلى رسول الله ﷺ عرَّفت نفسها فعرفها بعلامة فأكرمها ، وبسط لها رداءه وأجلسها عليه ، ثم منَّ عليها ، وردَّها إلى قومها .

غزوة الطائف :

وهذه الغزوة فى الحقيقة امتداد لغزوة حنين، وذلك أن معظم فلول هوازن وثقيف دخلوا الطائف مع القائد العام ـ مالك بن عوف النصرى ـ وتحصنوا بها ، فسار إليهم رسول الله ﷺ بعد فراغه من حنين وجمع الغنائم بالجعرانة فى نفس الشهر ، شوال سنة ٨ هـ ، وقدم خالد بن الوليد على مقدمته طليعة من ألف رجل ، ثم سلك رسول الله ﷺ إلى الطائف فمر فى طريقه على النخلة اليمانية، ثم قرن المنازل ، ثم على لية ، وكان هناك حصن لمالك بن عوف فأمر بهدمه ، ثم واصل سيره حتى انتهى إلى الطائف ، فنزل قريباً من حصنه ، وعسكر هناك ، وفرض الحصار على أهل الحصن ، ودام الحصار مدة غير قليلة . ففى رواية أنس عند مسلم أن مدة حصارهم كانت أربعين يوماً، وعند أهل السير خلاف فى ذلك، فقيل : عشرين يوماً ، وقيل : بضعة عشر ، وقيل : ثمانية عشر ، وقيل : خمسة عشر ، ووقعت فى هذه المدة مراماة ومقاذفات ، فالمسلمون أول ما فرضوا الحصار رماهم أهل الحصن رمياً شديداً كأنه رجل جراد حتى أصيب ناس من المسلمين بجراحة،وقتل منهم اثنا عشر رجلاً واضطروا إلى الارتفاع عن معسكرهم إلى مسجد الطائف اليوم ، فعسكروا هناك.

ونصب النبى ﷺ المنجنيق على أهل الطائف ، وقذف به القذائف ، حتى

وقعت شرخة فى جدار الحصن ، فدخل نفر من المسلمين تحت دبابة ، ودخلوا بها إلى الجدار ليخرقوه، فأرسل عليهم العدو سكك الحديد المحماة فخرجوا من تحتها، فرموهم بالنبل، وقتلوا منهم رجالاً.

وأمر رسول الله ﷺ ـ كجزء من سياسة الحرب لإلجاء العدو إلى الاستسلام ـ أمر بقطع الأعناب وتحريقها ، فقطعها المسلمون قطعاً ذريعاً، فسألته ثقيف أن يدعها لله والرحم، فتركها لله والرحم ، ونادى مناديه ﷺ : أيما عبد نزل من الحصن ، وخرج إلينا فهو حر، فخرج إليهم ثلاثة وعشرين رجلا فيهم أبو بكرة ، تسورَّ حصن الطائف وتدلى منه ببكرة مستديرة يستقى عليها ، فكناه رسول الله ﷺ أبا بكرة ، فأعتقهم رسول الله ﷺ ودفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يمونّه ، فشق ذلك على أهل الحصن مشقة شديدة ، ولما طال الحصار واستعصى الحصن ، وأصيب المسلمون بما أصيبوا من رشق النبال ، وبسكك الحديد المحماة ـ وكان أهل الحصن قد أعدوا فيه ما يكفيهم لحصار سنة ـ استشار رسول الله ﷺ نوفل بن معاوية الدولى فقال : هم ثعلب فى جحر إن أقمت عليه أخذته ، وإن تركته لم يضرك ، وحينئذ عزم رسول الله ﷺ على رفع الحصار والرحيل ، فأمر عمر بن الخطاب فأذَّن فى الناس : إنا قافلون غداً إن شاء الله ، فثقل عليهم ، وقالوا : نذهب ولا نفتحه ؟ فقال رسول الله ﷺ: « اغدوا على القتال »، فغدوا فأصابهم جراح فقال : « إنا قافلون غداً إن شاء الله »، فسروا بذلك وأذعنوا ، فجعلوا يرحلون . . . ورسول الله ﷺ يضحك، ولما ارتحلوا واستقلوا قال: «قولوا: آيبون تائبون ، عابدون ، لربنا حامدون » .

وقيل : يا رسول الله ، ادع على ثقيف ، فقال : « اللهم اهد ثقيفاً وائت بهم » (١).

وفد ثقيف :

كانت وفادتهم فى رمضان سنة ٩ بعد مرجع رسول الله ﷺ من تبوك ، وأسلمت ثقيف .

---

(١) الرحيق المختوم للمباركفورى مقتطفات ص ٤٦٦ ـ ٤٧٢ ،وانظر السيرة النبوية لابن هشام مقتطفات ٢/ ٤٣٧ ـ ٤٦٠ ، ٤٧٨ ـ ٤٨٧ .

وفد هوازن :

وبعد توزيع الغنائم أقبل وفد هوازن مسلماً وهم أربعة عشر رجلاً .

* * *

لم يكن يكفى سقوط معقل الوثنية ـ مكة ـ لانتهاء المقاومة المسلحة ، فالقبائل المجاورة من هوازن وثقيف لا تزال مركز قوة ضخم، وتشكل خطراً على الوجود الإسلامى كله ، ومن أجل هذا كانت خطة النبى ﷺ تتجه إلى إنهاء كل الجيوب الوثنية المتبقية ، وهى ذات قوة ضاربة فعالة .

وحيث إن التربية جزء أساسى من حياة الفرد المسلم والجماعة المسلمة ، وحيث إن هذا التجمع الجديد الذى وصل تعداده إلى اثنى عشر ألف مقاتل ، لم تتح له فرصة التمحيص المناسبة ، ولم تصهره المحنة بعد ؛ إذ تم دخول مكة دون قتال يذكر ، فهذا يعنى أن هذا الجيش الذى يزيد فى أكثر من نصفه من حديثى العهد بالإسلام ، فكانت المحنة سبرا لهذه النفوس .

لقد أثر هذا الحشد الضخم على أعصاب المسلمين، ورأوا هذه الأعداد الهائلة، فيقول قائلهم : لن نغلب اليوم عن قلة أو يقول ـ عليه الصلاة والسلام : « لن نغلب اليوم من قلة»[1] ، فالأمر فى النتيجة واحد، هو أن التجمع الذى لا تصهره التربية يصعب عليه أن ينتصر ، وهذا ما نزل بالمسلمين يوم حنين .

﴿ لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ﴾ [التوبة : ٢٥] .

وفى لحظة من لحظات الضعف البشرى بالاعتماد على الأسباب المادية والثقة بها ، يأتى التأديب الربانى لينال الجماعة المسلمة كلها ، وهذا التأديب يتناسب مع طبيعة الخطأ الذى تخطئه هذه المجموعة .

ومن خلال المحنة والابتلاء يتم انصهار هذا التجمع ليتحول إلى جماعة .

وكان الابتلاء الربانى فى هذا المعركة ذا محورين :

---

(١) والتحقيق أن الذى قالها هو غير رسول الله ﷺ ، وهذا لا ينفى صحة الحديث النبوى : « لن يغلب اثنا عشر ألف عن قلة » والمعنى أنهم يغلبون لعوامل غير عوامل العدد .

المحور الأول : فى الضراء . حيث كانت هزيمة حنين الأولى ، وعدم نجاح حصار الطائف .

المحور الثانى : فى السراء . وذلك من خلال غنائم حنين .

فلقد أعد المسلمون من الأسباب المادية ما يفوق الإعداد فى أية معركة،وكان قوام الجيش اثنى عشر ألفاً ، وكانت الأسلحة متوفرة كذلك ، ومن أحدث أنواع الأسلحة ، كان رسول الله ﷺ قد غنمها من اليهود فى خيبر ، فقد كان عند المسلمين المنجنيق والدبابة ولأول مرة فى تاريخ حروبهم كانوا يمتلكون ذلك، واستعار رسول الله مائة درع من صفوان بن أمية.

هذا من حيث الإعداد المادى ، الذى لم يسبق له مثيل فى تاريخ الجيوش الإسلامية ، لكن هذا التجمع الإسلامى لا يزال فى صفوفه الكثير ممن دخل فى الإسلام وهو فى قمة النصر ، ورأى أن المسير فى الاتجاه الإسلامى يعنى نصراً مستمرا وغنائم ضخمة ، فكان لا بد من هزة حنين .

وبعث رسول الله ﷺ استطلاعه الجيد قبل المعركة ، وشاءت إرادة الله تعالى ألا يرى ذلك الاستطلاع كمائن العدو المنبثة فى جميع شعاب الجبل،وكانت المعركة.

وحين يقرأ المسلم أحداث هذه المعركة يذهله الخبر ، فالهجوم المباغت من هوازن أفقد الجيش المسلم كله توازنه ، حتى القاعدة الصلبة . فقدت توازنها ، ولاذت بالفرار من هول المفاجأة،ولم يسبق لهذه القاعدة الصلبة أن اهتزت هذا الاهتزاز فى تاريخها كله إلا يوم أحد.

ومع هول المفاجأة، فرَّ الجيش الإسلامى كله ، ولم يثبت مع رسول الله ﷺ إلا بضعة عشر رجلاً وكانوا فريقين :

الفريق الأول: أقرباؤه الأدنين: العباس بن عبد المطلب،والفضل بن العباس، وربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب .

وهذه نماذج جديدة على الساحة ، ورغم دخولها الجديد فى الإسلام ، لكنها لم تتراجع خطوة واحدة بجوار رسول الله ﷺ .

الفريق الثانى: وهم الخميرة الأولى للدعوة: أبو بكر، عمر، عثمان، على، أبو دجانة.

كما برز فريق ثالث من الشباب هما : أيمن بن عبيد الخزرجى ، وأسامة بن زيد رضي الله عنهما .

وبرز فريق رابع من النساء هن: أم سليم بنت ملحان،هى يومئذ حامل بولدها عبد الله بن أبى طلحة ، وأم عمارة بنت كعب ، وأم سليط وأم الحارث .

ولا يبعد أن يكون هناك قتال ضار فى مكان آخر ، غير أن هذه المجموعة الفدائية بقيت حول رسول الله ﷺ (١) .

وحين يكون الصف المسلم فيه من يفكر بقتل رسول الله ﷺ يعنى أن التربية لم تشمله كله بعد . ويحدثنا أحد المغامرين شيبة بن عثمان بن أبى طلحة ، عن هذه اللحظات من الأزمة فيقول : (لما رأيت النبى ﷺ غزا مكة فظفر بها وخرج إلى هوازن ، قلت : أخرج لعلى أدرك ثأرى ، وذكرت قتل أبى يوم أحد وعمى، فلما انهزم أصحابه جئته عن يمينه . فإذا العباس قائم عليه درع بيضاء كالفضة ، فقلت: عمه! لن يخذله ! ثم جئته عن يساره، فإذا بأبى سفيان بن الحارث فقلت: ابن عمه لن يخذله ، فجئته من خلفه ، فلم يبق إلا أن أُسوِّرَه (٢) بالسيف ؛ إذا رفع لى فيما بينى وبينه شواظ من النار كأنه برق ، وخفت أن يمحشنى (٣) ، فوضعت يدى على بصرى ومشيت القهقرى فالتفت إلى،وقال : «يا شيب، أدن منى»، فوضع يده على صدرى ، وقال : « اللهم اذهب عنه الشيطان » ، فرفعت رأسى إليه وهو أحب إلى من سمعى وبصرى وقلبى ثم قال :

« يا شيب ، قاتل الكفار ! » فتقدمت بين يديه أحب والله أقيه بنفسى كل شىء، فلما انهزمت هوازن ودخلتُ عليه فقال: « الحمد لله الذى أراد بك خيراً مما أردت ثم حدثنى بما هممت به » (٤) .

وهذه الظاهرة التى حالت دون شيبة وقتله للنبى ﷺ كانت ظاهرة عامة، فلم تر هوازن أن الجيش الإسلامى قد فرَّ ولم يبق منه إلا بضعة عشر ، لقد جاء المدد الإلهى مباشرة ، ونزلت الملائكة بعمائمها الحمر تسد الأفق بين الأرض والسماء .

---

(١) وفى النصوص الصحيحة أن قرابة المائة لم تتراجع أبدا وهم المائة الصابرة .

(٢) تسور الحائط : علاه يريد أنه لم يبق شىء إلا أن ارتفع إليه فأعلوه فآخذه بالسيف.

(٣) محشته النار . أحرقت جلده حتى يبدو العظم .

(٤) إمتاع الأسماع ١ / ٤١١ .

﴿ فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها ﴾ [التوبة : ٤٠] .

وكانت المرحلة الثانية من المعركة هى النداء الخالد للعصبة المؤمنة : يا أصحاب سورة البقرة . كان النداء إلى السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، فبدأت الأفراد تفد إلى ساحة المعركة ، حتى بلغت المائة ، ويقال: إن المائة الصابرة يومئذ ثلاثة وثلاثون من المهاجرين وسبعة وستون من الأنصار .

ثم خصص رسول ﷺ فى المرحلة الثالثة : يا معشر الأنصار ، يا أصحاب السمرة، (فنادى العباس بذلك، وكان رجلاً صيتاً فأقبلوا كأنهم الإبل إذا حنت إلى أولادها يقولون: يا لبيك يا لبيك ، فأشرف رسول الله ﷺ كالمتطاول فى ركابيه ، فنظر إلى قتالهم، وقال: « الآن حمى الوطيس»، ثم أخذ بيده من الحصا، فرماهم بها ، وهو يقول : « شاهت الوجوه ثم لا ينصرون »، ثم قال : « انهزموا ورب الكعبة »، فما زال أمرهم مدبراً وانهزموا) (١) .

وكانت هذه المراحل المتلاحقة بسرعة تحدد مراحل المعركة ، وتثبت الإيمان فى قلوب ضعاف الإيمان ، فلو استثنينا تلك القاعدة الصُلبة التى تبلغ الألفين من المسلمين لرأينا أن العمود الفقرى من الجيش ، وهو من حديثى العهد بالإسلام كان لابد أن يرى هذه المعجزة الإلهية بأم عينه ، ويرى نصر الله تعالى لنبيه ، ويرى ثبات هذا النبى وحده وبضعة عشر نفراً ، وهو يقول :

أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب

ولقد كان هذا التحدى مثلجاً لصدور العصبة الصغيرة حولهم ، فحوالى ثلثهم من بنى عبد المطلب الذين ثبتوا معه،وكانوا بالأمس يحاربونه ويهجونه ويقاومونه.

ولابد أن يطرق هذا المعنى، أذهان الشباب المسلم ويتسع بأفقه بعيداً، ويعترف بقوة رابطة النسب إلى جوار رابطة العقيدة، حين يرى أبا سفيان بن الحارث وأخاه ربيعة والعباس وابنه ، وعلى بن أبى طالب . وهذا يعنى الاستفادة من روابط النسب وغيرها إلى جوار رابطة العقيدة وتحت ظلها ورايتها ، وأكدت هذه المعركة كذلك أن الصف المسلم سيبقى فى محن متتابعة حتى يتم انصهاره وتلاحمه، وأن النصر بيد الله تعالى يؤتيه من يشاء ، وأن الإعجاب النفسى بالقوة والطاقة قمين

(١) إمتاع الأسماع ١/ ٤٠٧ .

بالمحنة القاسية لتعديل هذه النظرة وتغييرها حتى يتطامن ذلك الإعجاب ويخضع صاحبه لله رب العالمين .

وكانت المحنة الثانية العنيفة التى واجهها الجيش المسلم هى حصار الطائف الذى استمر أربعين يوماً ، على ما تقوله روايات الإمام مسلم عن أنس ﷺ . واستمرار هذا الحصار لثقيف التى لا تقل عزة ومنعة عن قريش ، كان درساً جديداً لهذا الجيش كذلك ؛ لأن نصر حنين يغرى ، فلم يكن بُد لهم أن يتحملوا مسؤولية الحصار الطويل ويجربوا الالتزام والانضباط ، هذا من جهة ، ومن جهة ثانية لابد أن يشعروا أن النصر ليس دائما حليف المسلمين ، فلئن لم يتأخر نصر حنين ساعات ، فنصر الطائف لم يتم إلا بعد شهور، ولأول مرة فى تاريخ الجيش الإسلامى كذلك يتم انسحابه دون تحقيق هدفه ، وعظم ذلك على القاعدة الصلبة المؤمنة ، حين تلقوا أوامر الانسحاب ، فأمرهم رسول الله ﷺ بالقتال فى اليوم الثانى ، فخرجوا مشمرين نشيطين، غير أن سكك الحديد المحماة ، والسهام ومطر النبل عليهم ، أدت إلى أن أثخنتهم الجراح ، وحين جاء الأمر فى اليوم الثانى سروا له وبشوا به ، وضحك القائد العظيم ـ عليه الصلاة والسلام .

ولابد أن تكون التجربة من القيادة حية حين ترى تلكؤا فى تنفيذ أوامرها ، وتعالج هذه النفوس الصعبة من خلال التجربة الحية ، حتى تزداد قناعة الجنود بقيادتهم .

إن عملية بناء الجماعة ورص الصف هى من أشق العمليات ، وقد تواجه القيادة أحياناً بخلل حتى فى الصفوة المختارة ، والقاعدة الصلبة ، سواء فى الجزع والهلع من المواقف أو بالصورة المعاكسة فى التبرم من التريث والصبر ، والأمر الذى لا يلامس شغاف القلب لا يمكن أن يثمر ثمرته ، ولو أدى الحرص على الإقناع فيه الخسائر فى الأموال والأرواح بقدر .

لكن كيف انتهت هذه الجيوب الوثنية الضخمة : هوازن وثقيف ؟

إذ إن هوازن قد أمعنت فى الهرب وطوردت من المسلمين ، لكنها لم تدخل حظيرة الإسلام ، وثقيف تمنعت وتأبت ، وانصرف المسلمون عنها وفكوا الحصار دون شروط .

بقى دور الجهاد السياسى ، واستغلال كل الظروف لتفتيت الحقد النفسى ، كى تفىء هذه النفوس إلى الإسلام .

يقول ابن إسحاق : ثم إن وفد هوازن بالجعرانة أتوا رسول الله ﷺ وقد أسلموا فقال: يا رسول الله ، إنا أصل وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك ، فامنن علينا منَّ الله عليك ، قال : وقام رجل من هوازن ، ثم أحد بنى سعد بن بكر يقال له : زهير يكنى أبا صرد ، فقال : يا رسول الله، إنما فى الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتى كن يكفلنك ، ولو أنا ملحنا [1] للحارث بن أبى شمر ، أو للنعمان بن المنذر ثم نزل منا بمثل الذى نزلت به رجونا عطفه وعائدته علينا ، وأنت خير المكفولين .

فقال رسول الله ﷺ: « أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟ » فقالوا: يا رسول الله ، خيَّرتنا بين أموالنا وأحسابنا ، بل ترد إلينا نساءنا وأبناءنا فهو أحب إلينا فقال لهم : « أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، وإذا ما أنا صليت الظهر بالناس فقوموا وقولوا : إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين ، وبالمسلمين إلى رسول الله فى أبنائنا ونسائنا فسأعطيكم عند ذلك، وأسأل لكم » ، فلما صلى رسول الله ﷺ الظهر قاموا فتكلموا بالذى أمرهم به ، فقال رسول الله ﷺ : «وأما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم » ، فقال المهاجرون : وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ ، وقالت الأنصار : وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ ، فقال الأقرع بن حابس: أما أنا وبنو تميم فلا، وقال عيينة بن حصن : أما أنا وبنو فزارة فلا وقال عباس بن مرداس : أما أنا وبنو سُليم فلا ، فقالت بنو سليم : ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ. قال: يقول عباس بن مرداس : لبنى سُليم: وهنتمونى.

فقال رسول الله ﷺ : « أما من تمسك منكم بحقه من هذا السبى فله بكل إنسان ست فرائض من أول سبى أصيبه، فرُدوا إلى الناس أبناءهم ونساءهم »[2].

وفى رواية : (فقال الناس : قد طبنا لرسول الله ﷺ فقال : « إنا لا نعرف من رضى منكم ممن لم يرض، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم » ، فردوا عليهم نساءهم وأبناءهم لم يتخلف منهم أحد غير عيينة بن حصن ، فإنه أبى آن

---

(١) ملحنا : أرضعنا .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٤٨٨ .

يرد عجوزاً صارت فى يديه منهم ، ثم ردَّها بعد ذلك ، وكسا رسول الله ﷺ السبى قبطية قبطية)[1] .

وقال رسول الله ﷺ لوفد هوازن وسألهم عن مالك بن عوف ما فعل ؟ فقالوا : هو بالطائف مع ثقيف ، فقال رسول الله ﷺ : « أخبروا مالكاً أنه إن أتانى مسلماً رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل » ، فأتى مالك بذلك فخرج إليه من الطائف ، وقد كان مالك خاف ثقيفاً على نفسه أن يعلموا أن رسول الله ﷺ قال له ما قال فيحبسوه، فأمر براحلته فهيئت له ، وأمر بفرس له، فأُتى به إلى الطائف ، فخرج ليلاً فجلس على فرسه فركضه حتى أتى راحلته حيث أمر بها أن تحبس ، فركبها فلحق برسول الله ﷺ فأدركه بالجعرانة فرد عليه أهله وماله وأعطاه مائة من الإبل ، وأسلم فحسن إسلامه ، فقال مالك بن عوف حين أسلم :

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله ... فى الناس كلهم بمثل محمد
أوفى وأعطى للجزيل إذا اجتُدى ... ومتى تشأ يُخبرك عما فى غد
وإذا الكتيبة عرَّدت أنيابها ... بالسِّمهرى وضرب كل مهند
فكأنه ليث على أشباله ... وسْط الهباءة خادرٌ فى مرصد

فاستعمله رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه ، وتلك القبائل : ثُمالة وسَلمةُ وفهم، فكان يقاتل بهم ثقيفاً ، لا يخرج لهم سرح إلا أغار عليه ، حتى ضيَّقَ عليهم فقال أبو محجن :

هابت الأعداء جانبنا ... ثم تغزونا بنى سلمة
وأتانا مالك بهمُ ... ناقضا للعهد والحرمة
وأتونا فى منازلنا ... ولقد كنا أولى نقمة[2]

* * *

لقد انهزمت هوازن فى المعركة ، وحقق رسول الله ﷺ نصراً ساحقاً عليهم حتى ساق نَعَمهم ونساءهم وأبناءهم سبايا فى المعركة ، وفرَّ قائدهم إلى ثقيف ، لكن ماذا استفاد الإسلام من هذه المعركة ، إذا كان الحقد والكراهية والكفر هو

(١) الرحيق المختوم للمباركفورى ص ٤٧٥ . (٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٤٨٨ ، ٤٩١ .

الذى يسود فى صفوف هوازن؟ إن النصر العسكرى يهم القائد العسكرى فقط ، ويهم أصحاب المناصب والمراكز والمتصارعين على السلطة ، أما الحركة الإسلامية فالنصر بالنسبة لها هو فى دخول كتائب جديدة فى الإسلام، وفتح مغاليق هذه النفوس لتجد الرحمة والملاذ والأمن فى ظل الإسلام، ومن أجل هذا فما يركز عليه الداعية المسلم فى السيرة المطهرة هو ما وراء المعارك ، وما وراء النصر العسكرى ؛ لأن هذا التفكير يعنى آن فصائل جديدة تنضم إلى الإسلام كل يوم ، لا ترتد عنه وتثور عليه ، وهذا هو وفد هوازن ، أربعة عشر رجلاً من قادتهم جاؤوا إلى رسول الله ﷺ مسلمين ، وكان بالإمكان أن ينضم إلى الصف الإسلامى هذا الوفد فقط ؛ لأن الأوان قد فات وتم توزيع السبايا على المسلمين ، وهو حق مكتسب لهم، فكيف يفعل رسول الله ﷺ معهم ؟ إنه القائد الفذ الذى لم تشهد البشرية مثيلاً له ولن تشهد ، إنه يفكر فى أن ينتزع هذه السبايا من اثنى عشر ألف مقاتل، ومثل هذا الأمر من خلال النص الشرعى ، قد يدفع الجيش كله إلى الثورة عليه ، ولو صمت الجيش لصمت على مضض وكتم على ألم وتوتر، فكيف استطاع ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يستعيد هذه السبايا من الجيش، والجيش هانئ راض يتسابق على التخلى عنهن ؟

إنها عظمة النبوة ولا شك ، وهى بالتالى درس لكل قيادة فى الأرض أن تحقق أهدافها من خلال استخراج كل ما فى النفس الإنسانية من خير ونبل ، ولو كان قابعاً فى أعمق أعماق هؤلاء الناس ، وأن يتمكن الرسول ﷺ من استعادة السبايا من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، من أصحاب الكتيبة الخضراء، من الذين أعادوا بثباتهم النصر من جديد للجيش المسلم ، من الذين استحقوا بجدارة هذه السبايا فهذا أمر سهل ، أما أن يسترد هذه السبايا من المسلمين الجدد الذين مرَّ على إسلامهم سنة ونيف ، ولا يزالون يتحركون من خلال الرغبة الجامحة فى الغنيمة فهذه هى عظمة المعاملة النبوية فى فقه هذه النفوس ، ولم يهدد ـ عليه الصلاة والسلام ـ بسلطة ، ولم يلوِّح بعصا إنما كانت الخطوة الأولى من خلال الأريحية ، والثقة وحصر ثقته بأهله بنى عبد المطلب ، وبذلك خط منطلقاً لتيار كبير فى الجيش أن يحذو حذوه ، وكان لهذا الخط حدود ، وما أمكن له أن يستوعب الجيش كله فلجأ ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى الخط الثانى ، خط الترغيب بالعوض عن هذه السبايا . وتمكن ـ عليه الصلاة والسلام ـ بهذا الخط أن يستوعب بقية الجيش حتى العجوز الشمطاء التى كانت من نصيب عيينة بن حصن،

وألحَّ فى الاحتفاظ بها وترك لزعيم وفد هوازن أن يهز عيينة بن حصن بقوله له : خذها عنك ، فوالله ما فوها ببارد ولا ثديها بناهد ولا بطنها بوالد ، ولا زوجها بواجد ، ولا درها بماكد[1] ، فردها بست فرائض ، وعلى النهج نفسه ، أمكن جلب قائد هوازن الذى استعصى فى ثقيف ، فأرسل إليه يدعوه إلى الإسلام وسيعطيه أهله وماله ومائة من الإبل ، وكان هذا العرض السخى كفيلاً بأن يستجيب مالك للإسلام ، وليست استجابة سلبية فقط بحيث يركن إلى ماله وإبله وأهله ، بل استجابة فاعلة إيجابية ارتضى أن يغزو ثقيفاً ، الذين كان بحمايتهم وكانوا معه فى المعركة ضد محمد رسول الله ﷺ .

وهكذا دخلت هوازن فى الإسلام،وبالتركيز على قرابة الرحم والنسب كما قال أبو صرد: إنما فى الحظائر عماتك وخالاتك فامنن عليهم،ومن خلال رابطة النسب نفسها استطاع ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يستثير النخوة العربية ، والعزة القبلية ، فيوظفها فى خدمة الإسلام.

ألا ما أحوج الحركة الإسلامية اليوم إلى هذه المعانى ، أن تخطط لتدخل الأمة كلها فى حظيرة الإسلام ، وحين تقارن بين طريقين نجد البون شاسعاً جداً بينهما :

الطريق الأول : الذى ينطلق فقط من خلال حرفية النظام ، وحرفية القرار ، فيستعبده النظام والقرار ولو أدى إلى كسر النفوس ، وذبح القلوب ، وتغير الثقة وتخلخل الصف .

الطريق الثانى : الذى ينطلق إلى جوار القرار، من دوافع النفس ، وخلجات القلب ، وطبيعة الفطرة البشرية، ونوازع النسب فتسخر هذه جميعا لخدمة الهدف الأبعد من القرار، وهو حفظ مال الأمة أو حفظ شبابها أو حفظ صفها .

ولقد رأينا الحركة الإسلامية فى إحدى فصائلها تتخذ قراراً مالياً ذات يوم تحجب به شيئاً من الراتب عن الإخوة الذين شاركوا معها فى جهادها ، وضحوا بأرواحهم ودمائهم لتدفعهم إلى العمل وكسب المعيشة . . . فكان الدرس قاسياً للفريقين القيادة والقاعدة .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٤/ ٤٩٠ .

فقساوة الدرس للقيادة أنها كسرت نفوس إخوانها بهذا القرار ، فانصرفوا عنها والألم يذبح قلوبهم، وماذا تربح القيادة إذا خسرت ثقة قواعدها بها ، وهم عدتها فى الحرب والجهاد والمواجهة ، وقساوة الدرس للقاعدة أنها اهتزت عند أول أزمة، فنقص شىء بسيط من المال ، دفعهم إلى العنف والاحتجاج واتهام القيادة، فكيف لو كان الأمر بالتخلى عن ثمار المعركة كلها ، وأعز ما فيها من ثمار .

وعلى النهج نفسه كانت معالجة قادة مكة بعد نصر حنين وتوزيع الغنائم عليهم، ونكتفى بعرضها فهى فى غنىً عن أى تعليق :

(وانتهى إلى الجعرَّانة ليلة الخميس لخمس خلون من ذى القعدة والسبى والغنائم بها محبوسة ، وقد اتخذ السبى حظائر يستظلون بها من الشمس ، وكانوا ستة آلاف ، والإبل أربعة وعشرين ألف بعير، والغنم أربعين ألفا وقيل أكثر ، فأمر بُسْرَ بن سفيان الخزاعى يقدم مكة فيشترى للسبى ثياباً يكسوهم، وكساهم كلهم ، واستأنى رسول الله بالسبى ، فلما رجع إلى الجعرانة بدأ بالأموال فقسمها. فأعطى المؤلفة قلوبهم أول الناس، وكان مما غنم أربعة آلاف أوقية فضة، فجاء أبو سفيان بن حرب والفضة بين يديه ، فقال : يا رسول الله ، أصبحت أكثر قريش مالاً . فتبسم ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقال أبو سفيان : أعطنى من هذا يا رسول الله . قال : « يا بلال ، زن لأبى سفيان أربعين أوقية وأعطوه مائة من الإبل »، قال : ابنى يزيد ؟ قال : « زنوا ليزيد أربعين أوقية وأعطوه مائة من الإبل » ، قال : ابنى معاوية يا رسول الله ؟ قال : « زن له يا بلال أربعين أوقية وأعطوه مائة من الإبل » ، قال أبو سفيان : إنك لكريم فداك أبى وأمى ، والله لقد حاربتك فنعم المحارب كنت، ثم سالمتك فنعم المسالم أنت، جزاك الله خيراً ، وسأل حكيم بن حزام يومئذ مائة من الإبل فأعطاه ، ثم سأل مائة فأعطاه ، ثم سأل مائة فأعطاه ، ثم قال : « يا حكيم بن حزام ، إن هذا المال خضرة حُلوة ، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذى يأكل ولا يشبع ، واليد العليا خير من السفلى ، وابدأ بمن تعول » ، فأخذ حكيم المائة الأولى ثم ترك ما عداها .

وأعطى النضير بن الحارث ـ أخا النضر بن الحارث ـ مائة من الإبل ، وأعطى أسيد بن جارية حليف بنى زهرة مائة من الإبل ، وأعطى العلاء بن جارية خمسين

بعيراً ، وأعطى الحارث بن هشام مائة من الإبل،وصفوان بن أمية مائة بعير. وفى صحيح مسلم عن الزهرى أن رسول الله ﷺ أعطى صفوان بن أمية ثلاثمائة من الإبل، ويقال : إنه طاف مع النبى ﷺ وهو يتصفح الغنائم ؛ إذ مر بشعب مما آفاء الله عليه فيه غنم وإبل، ورعاؤها مملوءاً فأعجب صفوان، وجعل ينظر إليه فقال : « أعجبك يا أبا وهب هذا الشِّعب ؟ » قال : نعم . قال : « هو لك وما فيه » ، فقال : أشهد ما طابت بهذا نفس أحد قط إلا نبى ، وأشهد أنك رسول الله .

وأعطى قيس بن عدى مائة من الإبل،وأعطى عيينة بن حصن الفزارى مائة من الإبل، وأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل،وأعطى العباس بن مرداس السلمى دون المائة فعاتب النبى ﷺ فى شعر قاله فقال رسول الله ﷺ : « اقطعوا عنى لسانه » فأعطوه مائة)[1] .

لكن التعامل مع القاعدة الصلبة يختلف كثيراً عن التعامل مع صفوة الصف المسلم، الذى ينطلق من الثقة العميقة بقائده ، غير أن هذه القاعدة لابد من تذكيرها دائماً بهذا الأصل ، وإلا فقد تقلق حين تغيب عنها هذه المعانى ، وقد تطفو على السطح أحياناً بعض المعانى المادية ، وكأن تقويم المرء المسلم من خلالها، فلابد من اليقظة المستمرة والتربية المستمرة للمحافظة على الأفق العالى لهذه الجماعة .

(قال سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه : يا رسول الله ، أعطيت عيينة بن حصن والأقرع بن حابس مائة مائة ، وتركت جعيل بن سراقة الضمرى ، فقال : « أما والذى نفسى بيده لجعيل بن سراقة خير من طلاع الأرض كلها مثل عيينة والأقرع، ولكنى أتألفهما ليسلما ، ووكلت جعيل بن سراقة إلى إسلامة » [2]) ، وكانت هذه عند جعيل رضي الله عنه تعدل مال الأرض كله .

كان هذا على المستوى الفردى ، وكان هذا على المستوى الجماعى .

(ولما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا فى قريش وفى قبائل العرب ، ولم يكن فى الأنصار منها شىء ، وجد هذا الحى من الأنصار فى أنفسهم حتى كثرت منهم القالة حتى قال قائلهم : لقد لقى رسول الله ﷺ قومه،

(١) إمتاع الأسماع ١/ ٤٢٢ ـ ٤٢٥ .

(٢) المصدر السابق ١/ ٤٢٥ .

فدخل عليه سعد بن عبادة فقال : يا رسول الله ، إن هذا الحى من الأنصار قد وجدوا عليك فى أنفسهم لما صنعت فى هذا الفيء الذى أصبت ، قسمت فى قومك ، وأعطيت عطايا عظاماً فى قبائل العرب ، ولم يك فى هذا الحى من الأنصار منها شيء ، قال : « فأين أنت من ذاك يا سعد » قال : يا رسول الله ، ما أنا إلا من قومى ،قال: « فاجمع لى قومك فى هذه الحظيرة » ، قال : فخرج سعد فجمع الأنصار فى تلك الحظيرة، قال : فجاء رجال المهاجرين فدخلوا فتركهم ، وجاء آخرون فردهم ، فلما اجتمعوا له أتاه سعد فقال : قد اجتمع لك هذا الحى من الأنصار، فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال : « يا معشر الأنصار ، ما قالة بلغتنى عنكم ، موجِدَةٌ [1] وجدتموها علىَّ فى أنفسكم ؟ ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف بين قلوبكم » قالوا : بلى ، الله ورسوله أمن وأفضل ، ثم قال: « ألا تجيبونى يا معشر الأنصار ؟» قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ورسوله المن والفضل، قال ﷺ : « أما والله لو شئتم لقلتم فلَصَدقتم ولصُدِّقتم: أتيتنا مكذَّبا فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلاً فآسيناك ، أوجدتم يا معشر الأنصار فى أنفسكم فى لعاعة [2] من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير ، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ، فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار » فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا : رضينا برسول اللّه قسما وحظا ، ثم انصرف رسول اللّه وتفرقوا)[3] .

لقد كلف إنهاء جيوب الوثنية فى الأرض العربية أن وضع المال كله أداة لتطييب النفوس وترقيقها وتحبيبها للإسلام ، وهذه هى وظيفة المال أن يكون أداة لطاعة اللّه .

---

(١) الموجدة : العتاب .

(٢) اللعاعة : بقلة خضراء ناعمة ، شبه بها زهرة الدنيا ونعيمها .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٤٩٨،٤٩٩ .

والعدالة فى التوزيع هى أصل فى المال، وتربية النفوس على ألا تستعبد لهذا المال أصل آخر ، ومن أجل هذا أجَّل رسول الله ﷺ توزيع هذا الفيء، بعد أن أصدر أوامره بمنع أخذ أى شيء منه حتى الخياط والمخيط، وضبط النفوس ظاهراً على الأقل. والنفسية العربية التى ترى المال بين يديها من الدراهم والدنانير والإبل والشياه ، ثم تتمالك دون أن تلتهمه شيء يختلف مع طبيعة هذه النفسية ، وكان هذا هو الدرس الأول .

(ثم ثار بعض الأعراب ، وهم يلحون على رسول الله ﷺ بقسمة الغنائم حتى خطفوا رداءه فقال : « ردوا علىَّ ردائى أيها الناس ، فوالله أن لو كان لكم بعدد شجر تهامة نعماً لقسمته عليكم ثم ما ألفيتمونى بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً »، ثم قام إلى جنب بعير ، فأخذ وبرة من سنامه فجعلها بين إصبعيه ، ثم رفعها ثم قال : أيها الناس ،والله مالى من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس والخمس مردود عليكم ») [1] وكان هذا هو الدرس الثانى .

(وجاء رجل من الأنصار بكُبَّة من خيوط شعر فقال : يا رسول الله ، أخذتُ هذه الكُبَّة أعمل بها برذعة بعيرٍ لى دبِر،فقال: «أما نصيبى منها فهو لك »، قال : « أما إذا بلغت هذا فلا حاجة لى بها ، ثم طرحها من يده)[2] ، وكان هذا هو الدرس الثالث .

ثم كان التوزيع الآنف الذكر على المؤلفة قلوبهم على أوسع مظانة ، وكان هذا هو الدرس الرابع .

(وجاء رجل من بنى تميم يقال له : ذو الخويصرة ، فوقف عليه وهو يعطى الناس ، فقال : يا محمد ، قد رأيتُ ما صنعتَ هذا اليوم ، فقال رسول الله : « أجل فكيف رأيت ؟ » قال : لم أرك عدلت ، قال : فغضب النبى ﷺ، ثم قال: « ويحك،إذا لم يكن العدل عندى فعند من يكون؟» فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ، ألا أقتله ؟ قال : « لا ، دعه فإنه سيكون له شيعة يتعمقون فى الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرميَّة»)[3] وكان هذا هو الدرس الخامس،ثم كان أعظم الدروس على الإطلاق هو هذا اللقاء مع الأنصار.

(١، ٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٤٩٢ . (٣) المصدر نفسه ٢/٤٩٦ .

ولا معنى لأن يكسب رسول الله ﷺ زعماء تلك القبائل وزعماء قريش ، مقابل فقدان الثقة من صفه الأول من المهاجرين والأنصار ، وعندما توضح الالتباس ، وعرف هذا الصف موقعه من رسول الله ﷺ أن يكون المحيا محياهم والممات مماتهم، وأن يذهب الناس بالشياه والبعير ويذهب الأنصار برسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ فهو قرة عيونهم وهم قرة عينه، ومن أجل هذا مُسحت هذه الموجدة وذابت ، والسعادة تغمرهم بهذه الغنيمة .

وفى هذا الأمر دروس غنية للصف المسلم اليوم قاعدة وقيادة يحسن أن نستوعبها فنستفيد منها .

أولاً : التفريق بين المال العام والمال الخاص ، وحرمة التصرف فى المال العام قبل توزيعه، مهما كان حجمه . ولو كان كبة الشعر والخيط والمخيط والتساهل فى التصرف فيه يقود إلى النار :

« فإن الغُلُول يكون على أهله عاراً ونارا وشناراً يوم القيامة » (١) .

ثانياً : تقدير التوزيع وعدالته عائد لقيادة الجماعة وأميرها ، فهو آمر الصرف فيها ، وهو يقدِّر كمية التوزيع وأهميته ، ومصلحة الدعوة تحكمه ، ونصوص الشريعة تحكمه.

ثالثاً :والأصل أن يكون المال فى الدعاية إلى الإسلام ولو على حساب الدعاة، وفى كسب القلوب النافرة ورد النفوس الجامحة .

رابعاً : والصف المسلم القوى قد يحرم من هذا التوزيع كله ، وذلك فى ذات الله والأصل أن يكون الإيثار خلقه،فلا يقيَّم المرء من خلال ما يأخذ من راتب، بل يقيم من خلال التقوى والعمل الصالح .

خامساً : أن تبقى القيادة على صلة بقواعدها فتلاحق الشبهات التى تثور فى نفسها ، وتوضح خط السير العام لجنودها ، وتقضى على قالة السوء فى صفوفها ، وإلا خسرت هذه القاعدة .

سادساً: وأن يضع الجندى نفسه موضع قائده،ويصدر أحكامه على قيادته هو

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٤/ ٤٩٢ .

أمر خطير، وذلك من خلال التمسك بحرفية النص الذى يقوده إلى الخروج من الإسلام من حيث يريد الإسلام، والذى يقوده إلى الصف غير المسلم من حيث حرصه عليه.

سابعاً : وطبيعة هؤلاء الشباب من حيث صلاحهم وتقواهم لا يرقى إليها الشك ، «تحقرون صلاتكم إلى صلاتهم ، وصيامكم إلى صيامهم »، لكنهم يضعون أنفسهم موضع القاضى ، وموضع المفتى ، وموضع إصدار الأحكام ، وهذه الظاهرة المرضية ، لابد من التفريق بينها وبين ظاهرة النصيحة والاستفسار والسؤال .

فسعد ﷺ والأنصار ﷺ عتبوا على رسول الله ﷺ حين رأوا أنهم محرومون من هذا المال ، لكن بقى الأمر خلال السؤال والاستفسار ، لا من باب الاتهام ، بينما وجدنا ذا الخويصرة تدفعه جرأته أن يتهم رسول الله ﷺ فى عدله.

ثامناً : ولابد من التفريق بين موقف الجندى من رسول الله ﷺ ، وموقف الجندى من أمير جماعته، فالشك فى عدل رسول الله ﷺ كفر بواح، أما الشك فى عدالة القائد فلا يدخل فى هذا الإطار، إنما يدخل فى إطار الخطأ التنظيمى الذى يفسد صف الجماعة ويفتت تماسكها .

تاسعاً : ويبقى الجندى المجاهد أعظم فى ميزان الله وميزان قيادته من كل قوى الأرض الأخرى وزعاماتها وقياداتها ، طالما أنها تنطلق من مصلحتها لا من دينها ، ويبقى جعيل بن سراقة خير من طلاع الأرض مثل عيينة والأقرع ، وكلاهما قد دخل فى الإسلام حديثا ، ونالا من الإكرام ما لا يوصف .

عاشراً : وبقيت ثقيف دون أن تنهار معاقلها بالقوة والمواجهة ، لتنهار بعد ذلك من خلال حرب العصابات التى شنها عليها مالك بن عوف رئيس هوازن ، ومن خلال الحرب النفسية التى زلزلت كيانها فأقنعتها ألا جدوى من المقاومة .

السمَة الرابعة عشرة

الجزيرة العربية تدخل فى الإسلام

حين نتحدث عن السمات نلحظ أنها حلقات من سلسلة ، كل حلقة تقود إلى التى تليها . وتحدد لنا طبيعة التدرج فى السير خطوة عقب خطوة ، فلا يمكن أن يقبل الناس على الدخول فى دين اللّه أفواجا،والإسلام ضعيف محارب مضطهد، ممنوع من إعلان صوته وشرح فكرته وعقيدته .

وتأتى هذه السمة فى موقعها من المنظومة الإسلامية،فحين استسلمت قريش العدو الأكبر للإسلام وصار الرسول ﷺ سيد الجزيرة العربية،وتحطمت قوى المعارضة المسلحة كان من الطبيعى أن تفد القبائل العربية الضخمة لتحاور أو تناقش أو تسلم ، أو تفرض شروطها حسب تصورها عن طبيعة قوتها ، ونشهد فى هذه السمة الحدود الدقيقة ، فيما يجوز التساهل فيه ، ومراعاة طبيعة النفوس فيه ، وما لا يدخل ضمن إطار المساومة ، فنعلم حدود التميز والمفاصلة ، وحدود التساهل والمعاملة ، وذلك من خلال عرضٍ لمراكز القوى العربية بعد قريش.

ثقيف، تميم ، عامر ، بنو حنيفة ، طيئ ، كندة ، ملوك حمير ، بنو الحارث ابن كعب .

أولا : وفد ثقيف :

لقد كانت العرب ترى فى ثقيف وقريش أهم مواقع القوى فيها ، وذكر القرآن الكريم هذا المعنى عن القريتين ، وهو ينقل مقولتهم : ﴿ **وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ** ﴾ [الزخرف : ٣١] .

وشاءت إرادة اللّه تعالى أن ينتهى عظيم قريش الوليد بن المغيرة كافراً مشركاً بينما كان عظيم ثقيف شهيداً وفى قومه بالذات ، وهو عروة بن مسعود الثقفى رضي الله عنه .

وكان من حديثهم أن رسول اللّه ﷺ لما انصرف عنهم اتبع أثره عروة بن مسعود الثقفى حتى أدركه قبل أن يصل المدينة ، فأسلم وسأله أن يرجع إلى قومه بالإسلام ، فقال له رسول اللّه ﷺ ، كما يتحدث قومه : « إنهم قاتلوك » ،

فقال عروة : يا رسول الله ،أنا أحب إليهم من أبكارهم ، وكان فيهم محبباً مطاعاً ، فخرج يدعو قومه إلى الإسلام رجاء ألا يخالفوه لمنزلته فيهم ، فلما أشرف لهم على عليَّة له ، وقد دعاهم إلى الإسلام وأظهر لهم دينه رموه بالنبل من كل وجه ، فأصابه سهم فقتله ، فقيل لعروة : ما ترى في دمك ؟ قال : كرامة أكرمني الله تعالى بها ، وشهادة ساقها الله إليّ فليس فيَّ إلا ما في الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله ﷺ قبل أن يرتحل عنكم ، فادفنوني معهم ، فزعموا أن رسول الله ﷺ قال فيه: « إن مثله في قومه لكمثل صاحب يس في قومه » .

وعظيما القريتين مرا بموقف متشابه ، فالوليد بن المغيرة عرف في قرارة قلبه أن ما يقوله محمد ما هو بكلام الإنس وما هو بكلام الجن ، لكنه خاف على موقعه، فقال: إن هذا إلا سحر يؤثر ، فكانت عاقبته النار ، بينما تخلى عروة عن موقعه، وأعلن إسلامه على قومه وهو يعلم أنه أحب إليهم من أبكارهم ، وبشره رسول الله ﷺ بالشهادة : « إنهم قاتلوك » فما توانى ولا تراجع ، ورموه بالسهم حتى سقط شهيداً في سبيل الله ، فكان أول داعية في قومه إلى الله ورسوله كما كان صاحب يس في قومه .

وها هو عمرو بن أمية يأتي إلى زعيم ثقيف الثاني عبد ياليل بن عمرو فيقول له : إنه قد كان من أمر هذا الرجل ما قد رأيت ، قد أسلمت العرب كلها ، وليست لك بحربهم طاقة ، فانظروا في أمركم ، فعند ذلك ائتمرت ثقيف بينها ، وقال بعضهم لبعض : أفلا ترون أنه لا يأمن لكم سرب ولا يخرج منكم أحد إلا اقتطع، فائتمروا بينهم ، وأجمعوا أن يرسلوا إلى رسول الله ﷺ رجلاً فكلموا عبد ياليل بن عمرو . . . وأجمعوا أن يبعثوا معه رجلين من الأحلاف ، وثلاثة من بني مالك فيكونوا ستة [1] ، وعبد ياليل ، هو الذي قال قبل قرابة اثني عشر عاما لرسول الله ﷺ : أنا أمرط ثياب الكعبة إن كان الله قد أرسلك . هو نفسه اليوم يمضي إلى المدينة وافداً لرسول الله ﷺ يعلن إسلام قومه ، وفي الوقت الذي كان المسلمون يدعون على ثقيف ، ويطلبون من رسول الله ﷺ ذلك كان يقول : « اللهم اهد ثقيفاً وائت بهم » ، ولم يغير رسول الله نهجه مع ثقيف سواءً وهم يطاردونه بالحجارة، أو يحاصرهم في حصونهم ، فلقد كانت هدايتهم

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٥٤ .

عزيزة عليه جداً « عسى الله أن يخرج من أصلابهم من يقول : لا إله إلا الله » .

ولتمكن هذا المعنى فى نفس النبى ﷺ ومعرفة المسلمين به ، كان أبو بكر والمغيرة بن شعبة يتسابقان لنقل هذه البشرى لرسول الله ـ صلوات الله عليه .

وجاء الوفد ومعه عزة الجاهلية ، وتركه النبى ﷺ فى الجو الإسلامى والبيئة الإسلامية، يتعرف على مبادئ الدعوة ومفاهيم الإسلام . وكانت نفسية الوفد منطلقة من صورة معاهدة صلح أكثر من صورة استسلام لله عز وجل، ومن أجل ذلك قدموا شروطاً خمسة، أن يأذن لهم بالزنا وشرب الخمور، وأكل الربا ، ويترك لهم طاغيتهم اللات ثلاث سنين على الأقل ويعفيهم من الصلاة[1] ورفضت الشروط كلها بلا استثناء؛ لأن الأمر ليس أمر ملك دنيوى، بل هو أمر الله تعالى وشريعته، ولا يمكن أن يكون القوم مسلمين، ويحلوا حراماً، أو يبيحوا ترك فريضة، والإسلام هو الاستسلام الكامل لله تعالى فى كل شىء يحل حلاله ويحرم حرامه، وحين رأت ثقيف أن لا مناص من ذلك طلبت طلباً واحداً تمت تلبيته وهو أن يعفيهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ من هدم آلهتهم بأيديهم فقبل ذلك منهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وبعث المغيرة بن شعبة الثقفى فهدمها بعد ذلك . ورجع الوفد إلى قومه فكتمهم الحقيقة وخوفهم بالحرب والقتال ، وأظهر الحزن والكآبة وأن رسول الله ﷺ سألهم الإسلام وترك الزنا والربا والخمر وغيرهم، وإلا يقاتلهم، فأخذت ثقيفاً نخوة الجاهلية، فمكثوا يومين أو ثلاثة يريدون القتال، ثم ألقى الله فى قلوبهم الرعب، وقالوا للوفد : ارجعوا إليه فأعطوه ما سأل ، وأبدى الوفد حينئذ حقيقة الأمر ، وأظهروا ما صالحوا عليه وأسلمت ثقيف[2] .

وبذلك انهارت أمنع الحصون العربية ودخلت فى الإسلام ، وتوضح الأمر أن لا مساومة على دين الله،ولو كانت المساومة تأجيل هدم اللات شهراً واحداً فقط، وهذا فى موقع القوة ، بينما قبل الرسول ﷺ محو (رسول الله) و (الرحمن الرحيم) يوم الحديبية .

وتجلى الفرق بين الدخول فى الإسلام ودولة الإسلام ، وبين التفاوض من موقع المساواة فى القوة ، بل يتضح الفرق أكثر يوم رأينا رسول الله ﷺ قبل

(١، ٢) الرحيق المختوم ص ٥٠٤ .

ثلاثة عشر عاماً يطلب فقط حمايته من ثقيف ليدعو إلى الله عز وجل دون أن يتدخل فى دينها ومقدساتها، وأى شأن من شؤونها، وبين الوضع اليوم والمسلمون قد تمكنوا من الأرض ، وتزلزلت ثقيف رعبا من حروبهم .

والحركة الإسلامية المبصرة ، تعرف الفرق بين المرحلتين ، وتنطلق حسب الظروف التى تملكها لتمكن لنفسها ولدين الله ، وتتعلم كذلك ما يمكن قبوله من الشروط وهى فى موقع القوة ، وما لا يمكن قبوله وهى فى الموقع نفسه حين وجدنا رسول الله ﷺ يرفض شرطاً يحل حراماً أو يحرم حلالاً بينما لا يجد حرجاً من إعفائهم من كسر أصنامهم بأيديهم.

ثانياً : وفد تميم :

أما وفد تميم فقد جاء يباهى بشعره وبيانه فأجابه بالأسلوب نفسه فرُدَّ على الشعر بالشعر ، حيث أفحم شاعر تميم من حسان ، ورُدَّ على الخطبة بالخطبة حيث أفحم تميم من ثابت بن قيس وانتهى الأمر عندهم أن (قال الأقرع بن حابس : وأبى إن هذا الرجل لمؤتى له لخطيبه أخطب من خطيبنا ، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أجلى من أصواتنا ، فلما فرغ القوم أسلموا ، وجوَّزهم رسول الله فأحسن جوائزهم) (١) .

وهذا الأسلوب من الدعوة والطراز الجديد فيها، يدعونا إلى أن نعطى الإعلام الإسلامى حقه، وأن نتأكد أن معركة الإسلام ليست معركة عسكرية فحسب، بل هى معركة سياسية، ومعركة إعلامية يمكن حين نبرز فيها أن نحول الخصوم إلى أصدقاء ، أو محايدين ، وننشر فكرنا وعقيدتنا ومبادئنا من هذا المنبر ، ونقطع كثيراً من الأشواط التى لا نتصور أن تقطع إلا من خلال القوة ، مع الإشارة كذلك أن القوة التى ينطلق منها الإعلام، هى التى تفتح القلوب له لكن القلوب تبقى مسدودة أمام منطق الضعفاء .

ثالثا : وفد عامر :

وجاء وفد عامر ليعرض عضلاته ويفرض شروطه :

(فقدم عامر بن الطفيل عدو الله على رسول الله ﷺ وهو يريد الغدر به ،

---

(١) السيرة لابن هشام ٢ / ٥٦٧ .

وقد قال له قومه : يا عامر ، إن الناس قد أسلموا فأسلم ، قال : والله لقد كنت آليت ألا أنتهى حتى تتبع العرب عقبى ، أفأنا أتبع عقب هذا الفتى من قريش : ثم قال لأربد [1] : إذا قدمنا على الرجل فإنى سأشغل عنك وجهه ، فإذا فعلتُ ذلك فاعله بالسيف، فلما قدموا على رسول الله ﷺ قال عامر بن الطفيل : يا محمد، خالنى[2] ، قال: « لا والله حتى تؤمن بالله وحده » ، قال : يا محمد ، خالنى، وجعل يكلِّمه وينتظر من أربد ما كان أمره به ، فجعل أربد لا يحير شيئاً، قال : فلما رأى عامر ما يصنع أربد، قال : يا محمد ، خالنى ، قال : « لا حتى تؤمن بالله وحده لا شريك له » ، فلما أبى عليه رسول الله ﷺ قال : أما والله لأملأنها عليك خيلاً ورجالاً ، فلما ولى قال رسول الله ﷺ : « اللهم اكفنى عامر بن الطفيل . . . » ، وخرجوا راجعين إلى بلادهم [3] .

وفى صحيح البخارى أن عامراً أتى النبى ﷺ فقال: أخيرك بين خصال ثلاث: يكون لك أهل السهل ولى أهل المدر ، أو أكون خليفتك من بعدك ، أو أغزوك بغطفان بألف أشقر وألف شقراء [4] .

حتى إذا كانوا ببعض الطريق ، بعث الله على عامر بن الطفيل الطاعون فى عنقه . فقتله الله فى بيت امرأة من بنى سلول، فجعل يقول: أغُدة كغُدَّةِ البكر [5]، فى بيت امرأة من بنى سلول .

كان عامر ينطلق ويتكلم من منطق القوة ، فعامر بن صعصعة من أعز العرب وأكبرهم عدداً، فجاء يطالب بالوراثة بعد النبى ﷺ أو اقتسام السلطة بين الإسلام والجاهلية، فرفض ـ عليه الصلاة والسلام ـ ذلك كله ولم يقبل منه إلا الإسلام ، وكان لتهديده بقوته دعوة رسول الله ﷺ : « اللهم اكفنى عامر بن الطفيل » فقُضى عليه قبل أن يصل إلى قومه .

والفهم الحركى لهذا الوفد يعطينا صورة جديدة من الصور المرفوضة فى المساومات ، وهى قضية الوراثة أو المشاركة بين الكفر والإسلام فى الحكم ، وقد

---

(١) أربد : أحد زعماء بنى عامر .

(٢) خالنى : اتخذنى خليلا وصاحباً .

(٣) السيرة لابن هشام ٢ / ٥٦٨ .

(٤) البخارى ٢/٥/١٣٥ والظاهر أن هذه الوفادة كانت قبل فتح مكة. أما فى عام الوفود فجاء بنو عامر وانضموا للإسلام. وقد شارك أحد زعمائهم فى فتح مكة مع المسلمين .

(٥) غدة البكر : داء يصيب البعير فيموت عنه ، وهو شبيه بالذبحة التى تصيب الإنسان .

رفضت هذه الصورة منذ المرحلة المكية حين كان رسول الله ﷺ يدعو القبائل إلى الإسلام .

فالجانب السياسى له حدود محدودة، وهذه الحدود لا يمكن أن يكون الإسلام فيها موضع مساومة أو موضع مفاوضة، لا يجتمع الإسلام والجاهلية فى حكم واحد ، أو موقع واحد .

رابعا : وفد بنى حنيفة :

ولم تكن بنو حنيفة أقل سطوة وقوة من تميم وغطفان، فلقد كانت تحكم ريف اليمامة، وجاء وفدهم ومعه مسيلمة بن حبيب الذى جاء يراوغ ويداور لعله يصل إلى شىء فكان جواب رسول الله ﷺ له وفى يده عسيب من سعف النخل: « لو سألتنى هذا العسيب ما أعطيتكه » .

(ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ وجاؤوه بما أعطاه ، فلما انتهوا إلى اليمامة ارتد عدو الله وتنبأ وتكذب له ، وقال : إنى أشركت فى الأمر معه)[1] .

وكان ثمامة بن أثال أصدق ديناً وأثبت أصلاً وأندى مروءة من مسيلمة الذى أسره رسول الله ﷺ (ويأتيه رسول الله فيقول له : « أسلم يا ثمامة » ، فيقول : إيهاً يا محمد، إن تقتُل تقتل ذا دم ، وإن تُرِد الفداء فسل ما شئت ، فمكث ما شاء الله أن يمكث ثم قال النبى ﷺ : « أطلقوا ثمامة » ، فلما أطلقوه خرج حتى أتى البقيع ، فتطهر فأحسن طهوره ثم أقبل فبايع النبى ﷺ على الإسلام . . . ثم خرج معتمراً فلما قدم مكة ، قالوا : أصبوت يا ثُمام ؟ فقال: لا ولكنى اتبعت خير دين ، دين محمد ولا والله لا تصل إليكم حبة من اليمامة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ ، فمنعهم أن يحملوا إلى مكة شيئاً فكتبوا إلى رسول الله : إنك تأمر بصلة الرحم ، وإنك قد قطعت أرحامنا ، وقد قتلت الآباء بالسيف ، والأبناء بالجوع ، فكتب رسول الله ﷺ إليه أن يخلّى بينهم وبين الحمل)[2] ، وبقيت اليمامة بزعامة مسيلمة تتهيأ للوثوب .

ولعل هذه القيادات القبلية لم تكن تدرك حقيقة الإسلام، إنما كانت تتصور الأمر هزيمة أمام سلطان حاكم ، ولم يفكر الرسول ﷺ باللين مع هذه القيادات

---

(١) السيرة لابن هشام ٢ / ٥٧٦ .

(٢) المصدر السابق ٢ / ٦٣٩ .

بصورة من الصور حين تريد أن تجعل لرأيها وزنا مع الله ورسوله .

خامسا : وفد طيئ :

وقدم على رسول الله ﷺ وفد طيئ ، فيهم زيد الخيل وهو سيدهم ، فلما انتهوا إليه كلّموه ، وعرض عليهم رسول الله ﷺ الإسلام ، فأسلموا وحسن إسلامهم، وقال رسول الله ﷺ كما حدثنى من لا أتهم من رجال طيئ: « ما ذكر لى رجل من العرب بفضل ثم جاءنى إلا رأيته دون ما يقال فيه ، إلا زيد الخيل ، فإنه لم يبلغ كل ما كان فيه ، ثم سماه رسول الله ﷺ زيد الخير » .

وأما عدى بن حاتم فكان يقول : ما من رجل من العرب كان أشد كراهية لرسول الله ﷺ حين سمع به منى ، أما أنا فكنت امرأ شريفاً وكنت نصرانيا ، وكنت أسير فى قومى بالمرباع [1] ، فكنت فى نفسى على دين ، وكنت ملكاً فى قومى ، لما كان يصنع بى ، فلما سمعت برسول الله ﷺ كرهته فقلت لغلام كان لى عربى، وكان راعياً لإبلى : لا أبا لك، اعدد لى من إبلى جمالاً ذللاً سماناً . فاحتبسها قريباً منى، فإذا سمعت بجيش لمحمد قد وطئ هذه البلاد فآذنى، ففعل ، ثم إنه أتانى ذات غداة فقال : يا عدى ، ما كنت صانعاً إذا غشيتك خيل محمد فاصنعه الآن، فإنى قد رأيت رايات فسألت عنها ، فقالوا : هذه جيوش محمد، فقلت : فقرِّب إلىَّ أجمالى ، فقربها ، فاحتملت بأهلى وولدى ، ثم قلت: ألحق بأهل دينى من النصارى بالشام. فسلكت الجيوشية[2]. وتخالفنى خيل لرسول الله ﷺ فتصيب ابنة حاتم فيمن أصابت ، فقدُم بها على رسول الله ﷺ فى سبايا من طيئ ، وقد بلغ رسول الله ﷺ هربى إلى الشام، قال : فجعلت بنت حاتم فى حظيرة بباب المسجد، وكانت السبايا يحبسن فيها ، فمرّ بها رسول الله ﷺ فقامت إليه وكانت امرأة جزلة ، فقالت : يا رسول الله ، هلك الوالد ، وغاب الوافد ، فامنن علىَّ منَّ الله عليك ، قال : « ومن وافدك ؟ » قالت : عدى بن حاتم ، قال : « الفارُّ من الله ورسوله ؟ » قالت: ثم مضى رسول الله ﷺ وتركنى ، حتى إذا كان من الغد مرَّ بى، فقلت له مثل ذلك ، وقال لى مثل ما قال بالأمس، قالت : حتى إذا كان بعد الغد مرَّ بى وقد يئست منه ، فأشار إلىَّ رجل من خلفه أن قومى فكلميه ، قالت : فقمت إليه فقلت : يا رسول الله ، هلك الوالد ،

---

(١) المرباع : آخذ الربع من الغنائم . (٢) الجيوشية : جبل قرب نجد .

وغاب الوافد ، فامنن علىَّ من الله عليك ، فقال ﷺ : « قد فعلت ، فلا تعجلى بخروج حتى تجدى من قومك من يكون لك ثقة حتى يبلغك إلى بلادك ثم آذنينى»، فسألتُ عن الرجل الذى أشار إلىَّ أن أكلمه فقيل : على بن أبى طالب، وأقمت حتى قدم ركب من بلى أو قضاعة، قالت : وإنما أريد أن آتى أخى بالشام، قالت: فجئت رسول الله فقلت : يا رسول الله، قدم رهط من قومى لى فيهم ثقة وبلاغ ، قالت : فكسانى رسول الله وأعطانى نفقة ، فخرجت معهم حتى قدمت الشام، قال عدى : فوالله إنى لقاعد فى أهلى ، إذ نظرت إلى ظعينة تصوَّب إلىّ تؤمنا ، قال : فقلت : ابنة حاتم ، قال : فإذا هى هى ، فلما وقفت علىَّ انسحلت تقول : القاطع الظالم ، احتملت بأهلك وولدك ، وتركت بقية والدك عورتك ، قلت : أى أخية ، لا تقولى إلا خيرا . . . فوالله مالى من عذر لقد صنعتُ ما ذكرت ثم نزلت فأقامت عندى ، فقلت لها : وكانت امرأة حازمة : ما ترين فى أمر هذا الرجل ؟ قالت : أرى والله أن تلحق به سريعاً، فإن يكن الرجل نبياً فللسابق إليه فضله، وإن يكن ملكاً فلن تذل فى عز اليمن وأنت أنت، قال : قلت : والله إن هذا الرأى .

قال : فخرجت حتى أقدم على رسول الله ﷺ فدخلت عليه ، وهو فى مسجده فسلَّمت عليه فقال : « من الرجل ؟ » فقلت : عدى بن حاتم ، فقام رسول الله ﷺ ، فانطلق بى إلى بيته ، فوالله إنه لعامد بى إليه ، إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة ، فاستوقفته ، فوقف لها طويلاً تكلمه فى حاجتها ، قال : قلت فى نفسى: واللّه ما هذا بملك ، قال : ثم مضى بى رسول اللّه ﷺ حتى إذا دخل بى بيته ، تناول وسادة من أدم محشوة ليفًا فقذفها إلى، فقال: « اجلس على هذه »، قال : قلت : بل أنت فاجلس عليها ، فقال : « بل أنت » فجلست عليها وجلس رسول الله ﷺ على الأرض : قال : قلت فى نفسى : واللّه ما هذا بأمر ملك ، ثم قال: « إيه يا عدى بن حاتم ألم تكن ركوسيًا [1] ؟ » قال: قلت: بلى، قال: « أولم تكن تسير فى قومك بالمرباع ؟ » قال : قلت : بلى ، قال : « فإن ذلك لم يكن يحل لك فى دينك » ، قال : قلت : أجل واللّه ، وقال : وعرفت أنه نبى مرسل يعلم ما يجهل ، ثم قال : « لعلك يا عدى إنما يمنعك من الدخول فى

(١) ركوسياً : وهو قوم لهم دين بين دين النصارى والصابئين .

هذا الدين ما ترى من حاجتهم ، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه ، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان فى غيرهم، وايم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم » ، قال : فأسلمت.

وكان عدى يقول : قد مضت اثنتان وبقيت الثالثة ، والله لتكونن ، قد رأيت القصور البيض من أرض بابل قد فتحت ، وقد رأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها لا تخاف حتى تحج هذا البيت، وايم الله لتكونن الثالثة : ليفيضنَّ المال حتى لا يوجد من يأخذه[1] .

طيئ تمتد فى بادية الشام والعراق والحجاز، وحاتم الطائى من أشهر العرب فى الجاهلية بالكرم وبه يضرب المثل ، إذ يقول الشاعر :

إقدام عمرٍو فى سماحة حاتمٍ فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

ومكارم الأخلاق لها وزن فى هذه القبيلة ، فقد أطلق رسول الله ﷺ سراح سفانة بنت حاتم ؛ لأن أباها كان يحب مكارم الأخلاق ، وزيد الخيل فيما سمعه رسول الله ﷺ عنه من ثناء كان أقل مما فيه ، وأطلق عليه زيد الخير وحصافة سفانة ، وذكاء عدى وعمق فكره فى التفريق بين الملك والنبوة ، حيث أدرك الفرق من خلال وقوفه للمرأة العجوز ، ومجلسه المتواضع فى بيته ، وعلمه بمظالم عدى أقنعته بنبوة محمد ـ عليه الصلاة والسلام .

وأدرك الرسول ﷺ أبعاد عدى بن حاتم الذى لجأ إلى ملوك غسان ، وأنه ينتمى إلى النصرانية التى تقودها مملكة الروم ، فكان لابد من غزو هذه الأبعاد، والإحاطة بهذه الأعماق حيث أبرزها على السطح وهى الخوف من الفقر والضعف وقلة العدد ، وحيث إن عديًا قد تجاوز مرحلة التشكيك فى النبوة ، كان هذا الحديث عن أفق المستقبل الوضىء ضروريًا له ليقوده إلى الحق فتلين قناته ، ويذلل جماحه .

---

(١) السيرة لابن هشام ٤ / ٥٧٧ ـ ٥٨٠ .

ولا شك أن النماذج البشرية تختلف فلابد من الحديث مع كل نموذج بما يناسبه ، والحديث المشهور الذى رواه الترمذى عن عدى فى لقائه مع رسول الله ﷺ وهو على نصرانيته ، وفي عنقه صليب ذهبى كبير ، ورسول الله ﷺ يتلو : ﴿ اتَّخذُوا أَحبَارهُمْ ورُهْبَانهُمْ أَربَابًا مِن دُونِ اللهِ والْمَسِيح ابن مريم ﴾ [التوبة: ٣١]، قال: يا رسول الله، ما عبدناهم قال: « ألم يحلوا لهم الحرام ، ويحرموا لهم الحلال» قال : بلى قال : « فتلك عبادتهم إياهم » .

ويدرك عدى بن حاتم أعماق هذا المعنى ، فهو على الركوسية ، وهو يأخذ ربع الغنائم من قومه ، وهذا لا يحل له ، ومع ذلك يفعله ، وهو بهذه النقلة الجديدة ينتقل من دين البشر إلى دين الله عز وجل الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ومن أجل ذلك كان إيمانه عميقاً متغلغلاً فى كل ذرة من ذرات كيانه ، وبقى على نهج الإسلام دون تلعثم أو تردد حتى لقى وجه ربه ، وشهد كتائب الإيمان تفتح الأرض ، ومدائن كسرى تهوى بين قدمى المسلمين ، وشرفه الله تعالى بأن كان أحد القادة الذين حاصروا القصر الأبيض ، وشهد بأم عينه الظعينة تمضى من القادسية إلى البيت الحرام لا تخشى إلا الله .

إن عظمة النبى ﷺ كانت فى كشف المخبوء من الخلل فى دين عدى ، من حيث الفكر ،وكانت فى تقديم القدوة بين يديه فى الصورة البديلة ، فى مواصفات النبوة التى تعيش آلام الناس وحياتهم .

ومن هنا تدرك الجماعة المسلمة دورها الكبير فى التعامل مع خصومها ، بحيث تسبر أغوار نفوسهم وحقيقة فكرهم ، وزيف عقائدهم ، وهى لا تنجح حين تداهنهم فى هذا الباطل ، وتتدسس إليهم فى هذا الباطل ، إنها حين تفعل ذلك يدرك خصوم الدعوة أن هذه الجماعة فكر بشرى قاصر مثل فكرهم ، وإن إصرار دعاة الباطل على باطلهم ، لا يقتضى من الدعاة تقريظه ، أو السكوت عليه، فلابد فى الحوار الفكرى من الوضوح التام الذى لا يقبل التلجلج والتردد.

ومن المأساة حقا على سبيل المثال أن نجد بعض دعاة الإسلام بحجة الدعوة إلى الله بالحسنى يزينون للنصارى باطلهم ، ويقولون لهم: كلنا مؤمنون بالله. والنصرانى الذى يعيش هذا التناقض فى نفسه سوف يستخف بهذا الداعية الذى يربت على كتفه ويبارك باطله ، ويعلم أن لا مبرر لهذا الداعية أن تكون له السيادة

فى الأرض طالما أنه مثله فى الباطل .

ومن جهة ثانية : تبقى عملية القدوة العملية فى التعامل والخلق والسلوك، ويبقى شرف الخصومة والحفاظ على العهد والصدق فى الرضا والغضب هو مدار الدعوة الحقيقى ومحوره، فإذا تزلزل المحور ، تمزقت الصورة وتبعثرت فى تقييم الخصوم لهذه الدعوة .

وحين نربح أولئك الخصوم، من خلال القدوة العملية ، والوضوح الفكرى، نستطيع أن نتكلم معهم من منطق القوة والاعتزاز بهذا الدين والثقة بأن المستقبل لهذا الدين ، وحين نربط هذه القضايا معاً بالقضية المادية المكافئة ، نستطيع أن نتحرك بهذه المحاور جميعاً نحو الهدف الأول ، هدف : إسقاط الخصم فى خضم هذه العقيدة ، وفى لب هذا الدين ، لا بإسقاطه وتصفيته ، وتكوين تجمع يثأر له من بعده .

وحرص رسول الله ﷺ على أن يتلو آية براءة بين يدى حاتم ، ويوضح له من خلال هذه الآية أنه ليس على دين كما كان يحسب عدى ويتصور ، وبذلك تنقطع المبررات التى تدفع الخصم للتمسك بمبادئه .

ونقول فى هذا الصدد : إن هذا الخط من الوضوح الفكرى والقدوة العملية ليس مرتبطاً بمرحلة معينة ، فقد رأيناه ، والمسلمون فى أشد حالات الضعف فى الحبشة ، ونراه اليوم والمسلمون أسياد الجزيرة العربية ، لكن الذى يحكم هذا الخط ، هو ألا يتحول هذا الموقف إلى السباب والشتيمة ، والغضب للنفس ، فإن القيد الأكبر لهذا الحوار والجدل هو أن يكون بالتى هى أحسن ، أى بالصورة التى لا يوجد أحسن منها على الإطلاق . . . وجدال التى هى أحسن هو الذى يثمر خصماً منفعلاً مع عقيدة الإسلام ، أو معترفاً بعظمة التعامل فيه .

سادساً : وفود الجنوب :

وكانت هذه الوفود ترد إلى رسول الله ﷺ معلنة ولاءها ودخولها فى الإسلام ، وذلك من خلال الدعوة إلى الله تعالى ، ودون توجيه جيوش إليها . وذلك بعد أن رأت سقوط مقاومة قريش وثقيف وغطفان وتميم وطيئ قلب جزيرة العرب . ودخولها فى الإسلام ونعرض لهذه الوفود بحيث نرى نماذج الدعوة إلى الله من خلالها :

أ ـ فهذا ضمام بن ثعلبة ، الذى يمثل صدق الأعراب وصفاءهم وقوة شكيمتهم (. . . فأقبل حتى وقف على رسول الله ﷺ فى أصحابه ، فقال : أيكم ابن عبد المطلب ؟ فقال رسول الله ﷺ: « أنا ابن عبد المطلب ». قال: أمحمد ؟ قال: « نعم » ، قال: يا بن عبد المطلب ، إنى سائلك ومغلظ عليك بالمسألة فلا تجدنَّ فى نفسك . قال : « لا أجد فى نفسى ، فسل عما بدا لك »، قال : أنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك ، آلله بعثك إلينا رسولاً ؟ قال : « اللهم نعم » ، قال : فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك ، آلله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده لا نشرك به شيئاً، وأن نخلع هذه الأنداد التى كان آباؤنا يعبدون معه ؟ قال : « اللهم نعم » ، قال: فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك،آلله أمرك أن نصلى هذه الصلوات الخمس ؟ قال: « اللهم نعم » قال : ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة الزكاة والصيام والحج وشرائع الإسلام كلها، ينشده عند كل فريضة منها كما ينشده فى التى قبلها، حتى إذا فرغ قال: فإنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله . وسأؤدى هذه الفرائض وأجتنب ما نهيتنى عنه ، ثم انصرف إلى بعيره راجعاً قال: فقال رسول الله ﷺ: « إن صدق ذو العقيصتين دخل الجنة » . قال : فأتى بعيره فأطلق عقاله ، ثم خرج حتى قدم على قومه، فاجتمعوا إليه، فكان أول ما تكلم به أن قال : بئست اللات والعزى، قالوا : مه يا ضمام ، اتق البرص، اتق الجذام ، اتق الجنون ، قال : ويلكم ، إنهما والله لا يضران ولا ينفعان ، إن الله قد بعث رسولاً ، وأنزل عليكم كتاباً استنقذكم به مما كنتم فيه ، وإنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله . وقد جئتكم من عنده بما أمركم به ، وما نهاكم عنه . قال : فوالله ما أمسى من ذلك اليوم فى حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلماً . قال : يقول عبد الله بن عباس : فما سمعنا بوافد قوم كان أفضل من ضمام بن ثعلبة)[1] .

إنه ليدور فى خلدى ذلك الإنسان الذى عاش فى صحرائه، ضِمام بن ثعلبة . منسجماً مع نفسه فى إبله وأهله ، وله السيادة فى قومه ، جاء إليه من حدثه عن محمد رسول الله ، فسُر فى قلبه سروراً عظيماً ، وعزم على أن يمضى بنفسه

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٥٧٣ ـ ٥٧٥ .

ليلقى هذا الرسول من عند رب العالمين ، وسوف يناشده الله أن يصدقه ، ومضى بهذا التصميم إليه ، ونفسه تتوق طيلة الطريق إلى ذلك اللقاء الذى يتعرف به على هذا المرسل من عند الله رب السماء والأرض . ووصل واعتذر سلفاً عن الإغلاظ فى المسألة ، وصمم على أن يناشده ربه عن كل شيء ، حتى إذا تأكد من صحة كلام هذا المبعوث من عند الله تعالى ، أخذ الأوامر المرسلة ، والنواهى المجتنبة ، ومضى إلى قومه وقد انتهى إلى اليقين النهائى فى نفسه ، وأمام هذا الإيمان العجيب ، دخل قومه كلهم فى الإسلام ، ولم يكلف دخول هذه القبيلة كلها أكثر من كلمات : « اللهم نعم » من رسول الله ﷺ ، بينما كلف دخول قريش فى الإسلام حرب عشرين عاماً أو تزيد .

وهكذا تضم الحركة الإسلامية إلى رصيدها هذه الصورة الجديدة من الدعوة التى لا تعدو أكثر من إجابة واحدة على أسئلة محددة ، وتدخل إلى قلوب هذه النماذج ، بهذا الوضوح والصراحة .

وقد نجد الشباب الإسلامى يقرأ المجلدات من الفكر الإسلامى ولكنه يعجز عن الوصول إلى عامة الناس وسوادهم، فهو لا يعرف اللغة التى يفهمون بها . قد يتحدث معهم عن الفلسفة الإسلامية ونظام الحكم ، ونظام القضاء والأيديولوجية لكن دون جدوى ، فهو فى واد ، وجماهير الأمة فى واد آخر ، وقد لا يكلف التفاهم مع هذه الجماهير أكثر من وليمة أو كلمة ثناء أو أريحية فى خدمة . أو تبسيط دون أى تعقيد ، وهذا ما رأيناه فى هذا الموقف الذى لم يكلف نبى الله تعالى أكثر من قوله : « اللهم نعم » ، ثم أعطى الدرس لأصحابه : « إن صدق ذو العقيصتين دخل الجنة ».

ب ـ وعلى نهج ضمام كان مقدم الجارود فى عبد القيس (فلما عرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام ودعاه إليه ورغبه فيه قال : يا محمد ، إنى كنت على دين ، وإنى تارك دينى لدينك ، أفتضمن لى دينى ،فقال رسول الله ﷺ : « نعم أنا ضامن أن قد هداك الله إلى ما هو خير منه » ،قال : فأسلم وأسلم أصحابه ، ثم سأل رسول الله ﷺ الحُملان فقال:« والله ما عندى ما أحملكم عليه » قال : يا رسول الله ، فإن بيننا وبين بلادنا ضوال من ضوال الناس ، أفتبلغ عليها إلى بلادنا ؟ قال : « لا إياك وإياها فإنما تلك حرق النار » . فخرج من عنده الجارود راجعاً إلى قومه ، وكان حسن الإسلام صُلباً على دينه ، حتى هلك وقد أدرك

الرِّدة ، فلما رجع من قومه من كان أسلم منهم إلى دينهم الأول قام الجارود فتكلم فشهد شهادة الحق ، ودعا إلى الإسلام فقال : أيها الناس ، إنى أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله وأكفر من لم يشهد) (١).

فقد اكتفى الجارود حين ترك دينه بضمانة رسول الله ﷺ له دينه السابق ، ومثَّل القاعدة الصُلبة فى البحرين . حيث سبقه حاكمها المنذر بن ساوى العبدى إلى الإسلام، وعلى رأس هؤلاء العلاء بن الحضرمى موفَدُ رسول الله ﷺ إليهم، وكان الجارود والعلاء هما اللذان وقفا مع المؤمنين فى وجه المرتدين الذين قادهم الغرور بن المنذر بن النعمان بن المنذر. وتبقى القاعدة الصُلبة هى الحصن الحصين للدعوة وقت الأزمات .

جـ ـ ومن قبائل الجنوب مراد وزبيد ومذحج ، يقدم فروة بن مسيك المرادى على رسول الله ﷺ مفارقاً لملوك كندة، ومباعداً لهم إلى رسول الله ـ صلوات الله عليه (فلما انتهى إلى رسول الله قال له : « يا فروة ، هل ساءك ما أصاب قومك يوم الردم » ، فقال : يا رسول الله ، من ذا يصيب قومه مثل ما أصاب قومى يوم الردم لا يسوءه ذلك ، فقال رسول الله ﷺ : « أما إن ذلك لم يزد قومك فى الإسلام إلا خيراً » ، واستعمله النبى ﷺ على مُراد وزُبيد ومذحج كلها ، وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص على الصدقة ، فكان معه فى بلاده حتى توفى رسول الله ﷺ) .

فالمعارك بين مراد وهمدان هى التى دفعت فروة بن مسيك لمفارقة قومه إلى المدينة ، ومن أجل هذا قال له ـ عليه الصلاة والسلام : « أما إن ذلك لم يزد قومك فى الإسلام إلا خيراً » إذ دفعه ليكون من السابقين للإسلام .

ونلحظ أن رسول الله ﷺ كان يحرص على إبقاء قادة القبائل فى مواقعهم من زعامة قبيلتهم ، بينما يبعث معهم أحد صحابته ليفقِّهَ القوم بالإسلام ، وبذلك تبقى النفوس على عهدها دون أن تحس بإهانة أو تحطيم ، ويبقى كيان القبيلة وزعامتها ضمن إطار الإسلام . وهذا خط نبوى واضح يحسن أن تعيه الحركة الإسلامية فى الاستفادة من الزعامات بحيث لا تشعر أن الإسلام خطر عليها إن هى انضوت تحت لوائه، لكن دون أن يُتخذ الإسلام مطية لظلمها وتعسفها .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٥٧٥ .

د ـ وقد أدى دخول مراد فى الإسلام إلى أن تنافسها همدان، فيتحرك وفدها إلى المدينة فيلتقوا مع رسول الله ﷺ مرجعه من تبوك بكل ثقلها شعراء وأمراء . (فقام مالك بن نمط بين يديه فقال: يا رسول الله، نصية[1] من همدان من كل حاضر وباد ، أتوك على قُلصٍ[2] نواج[3] متصلة بحبائل الإسلام ، لا تأخذهم فى الله لومة لائم ، من مخلاف خارف ويام وشاكر أهل السود[4] والقود[5] ، أجابوا دعوة الرسول وفارقوا الإلهات[6] الأنصاب[7] عهدهم لا ينقض ما أقامت لعلع[8]، وما جرى اليعفور[9] بَصَلع[10] . فكتب لهم رسول الله ﷺ ، هذا كتاب من رسول الله محمد ، مخلاف خارف وأهل جَناب الهَضب وحِقاف [11] الرمل مع وافدها ذى المشعار مالك بن نمط ومن أسلم من قومه ، على أن لهم فراعها ووهاطها ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة يأكلون علافها[12] ويرعون عافيها[13] ، لهم بذلك عهد الله وذمام رسوله ، وشاهدهم المهاجرون والأنصار ، فقال فى ذلك مالك بن نمط :

فما حملت من ناقة فوق رأسها ... أشد على أعدائه من محمد

وأعطى إذا ما طالبُ العرف جاءه ... وأمضى بحد المشرفى المهند

هـ ـ وقدم على رسول الله ﷺ كتاب ملوك حمير مقدمه من تبوك ورسولهم إليه بإسلامهم ، الحارث بن عبد كلال ونُعيم بن عبد كلال ، والنعمان قَيْل[14] ذى رعين ومعافر وهمدان . وبعث إليه زرعة ذو يزن مالك بن مرة الرهاوى بإسلامهم ، ومفارقتهم الشرك وأهله .

و ـ ثم بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فى شهر ربيع الآخر أو جمادى الأولى سنة عشر ، إلى بنى الحارث بن كعب بنجران ، وأمره أن يدعوهم إلى

---

(١) النصية : خيار القوم .
(٢) قلص : الإبل الفتية .
(٣) نواج : مسرعة .
(٤) المخلاف : المدينة ، وما بعدها أسماء قبائل ، والسود : الإبل .
(٥) القود : الخيل .
(٦) الإلهات : جمع آلهة .
(٧) الأنصاب : حجارة يذبحون لها .
(٨) لعلع : مجموعة من الجبال .
(٩) اليعفور : ولد الظبية .
(١٠) صلع : اسم موضع .
(١١) الحقاف : جمع حقف وهو الرمل المستدير .
(١٢) علافها : ثمر الطلح .
(١٣) عافيها : نباتها الكثير .
(١٤) القَيْل : ملك إقليم .

الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثاً فإن استجابوا فاقبل منهم ، وإن لم يفعلوا فقاتلهم ، فخرج خالد حتى قدم عليهم فبعث الركبان يضربون فى كل وجه ويدعون إلى الإسلام ، ويقولون: أيها الناس ، أسلموا تسلموا فأسلم الناس ودخلوا فيما دُعوا إليه ، فأقام فيهم خالد يعلمهُم الإسلام، وكتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، وبذلك كان أمَرَه ﷺ إن هم أسلموا ولم يقاتلوا .

فأقبل خالد إلى رسول الله ﷺ وأقبل معه وفد بنى الحارث بن كعب ، فلما وقفوا على رسول الله ﷺ سلموا عليه وقالوا : نشهد أنك رسول الله ، وأنه لا إله إلا الله . ثم قال رسول الله ﷺ : « أنتم الذين إذا زجروا استقدموا » فسكتوا ، فلم يراجعه منهم أحد ثم أعادها الثانية فلم يراجعه منهم أحد ، ثم أعادها الثالثة، فلم يراجعه منهم أحد،ثم أعادها الرابعة،فقال يزيد بن عبد المدان: نعم يا رسول الله ، نحن الذين إذا زجروا استُقدموا ، قالها أربع مرار ، فقال رسول الله ﷺ: « لو أن خالداً لم يكتب إلىَّ أنكم أسلمتم ، ولم تقاتلوا لألقيت رؤوسكم تحت أقدامكم » ، فقال يزيد بن عبد المدان : أما والله ما حمدناك ولا حمدنا خالداً، قال: « فمن حمدتم ؟ » قالوا: حمدنا الله عز وجل الذى هدانا بك يا رسول الله ، قال : « صدقتم » ، ثم قال رسول الله ﷺ : « بم كنتم تغلبون من قاتلكم فى الجاهلية ؟ » قالوا : لم نكن نغلب أحداً ، قال : « بلى قد كنتم تغلبون من قاتلكم » ، قالوا : كنا نغلب من قاتلنا يا رسول الله أنا كنا نجتمع ولا نتفرق ، ولا نبدأ أحداً بظلم . قال : « صدقتم » ، وأمَّر رسول الله ﷺ على بنى الحارث بن كعب قيس بن الحصين ، فرجع وفد بنى الحارث إلى قومهم فى بقية من شوال أو فى صدر ذى القعدة ، فلم يمكثوا بعد أن رجعوا إلى قومهم إلا أربعة أشهر ، حتى توفى رسول الله ﷺ ، ورحم وبارك ورضى وأنعم [1] .

لقد تحرك جنوب الجزيرة العربية كلها ، نجران وهمدان ومراد وزبيد ومذحج، بقلوب مفتوحة للإسلام، ونفوس متعطشة إليه ، بينما دخل وسط الجزيرة العربية هرباً من السيف، فكان محضن الردة فيما بعد. وبقى الشمال العربى مستعصياً فلم تتحرك وفوده إلى المدينة ، أما ملوك العرب فى الجنوب حمير وكندة فقد جاؤوا مستسلمين لله عز وجل منيبين إليه كما وصفهم رسول الله ﷺ : « أرق قلوباً وأرق أفئدة » .

---

(١) السيرة لابن هشام ٤/ ٥٩٢ ـ ٥٩٤ .

غير أن بنى الحارث بن كعب كانت طريقة دعوتهم مختلفة ، فقد بعث رسول الله ﷺ خالداً إليهم ؛ لأنهم مشهورون بقوة شكيمتهم وشدة بأسهم ، وخالد بن الوليد قد طغت شهرته فى الأرض العربية من حيث كفاءته القيادية فلابد أن يشعر القوم بالقوة المرهوبة الجانب ، ومن طرف آخر فالفشل الدعوى الذى لقيه خالد رضي الله عنه فى بنى جذيمة ، كان لابد أن يغسله فى موقف دعوى آخر فكانت الفرصة المتاحة الجديدة فى بنى الحارث بن كعب . كان لابد له أن يضبط أعصابه ويتحلى بالصبر الطويل على الخُلق البشرى ، والتعنت البشرى وهذا أشق عليه ألف مرة من الصبر فى المعارك وتحمل ضراوتها ، وأن يتعود هذا السيف الذى سله الله على المشركين ، أن يغمد أمام سيل الدعوة المنطلق فترة من الفترات هو أمر ضرورى ، فعظمة الالتزام أن يكون هذا السيف تحت إمرة الله ورسوله وأن تجرب مشاق الدعوة ووعورتها وأثرها الضخم فى النفس الإنسانية .

ونجح ابن الوليد أيما نجاح فى هذه الدورة التدريبية على الدعوة ، وهيأ الله تعالى له مدخر أجر ، أن يكون إسلام بنى الحارث بن كعب على يديه ، وبذلك أصبح الجنوب العربى إسلامياً خالصاً لله وحده .

السمة الخامسة عشرة

التحدى الأكبر للروم فى غزوة تبوك

فى شمال الجزيرة العربية ـ كما ذكرنا من قبل ـ كان إقبال الوفود العربية قليلاً جداً ، إلا ما ذكر من وفد بَلِىّ ، ووفد فرع من قضاعة غير أن الحدث المهم فى شمال جزيرة العرب هو إسلام فروة بن عمرو الجذامى الذى كان قائداً من قواد الروم ، ووالياً لهم على من يليهم من العرب وكان منزله معان وما حولها من أرض الشام ، فلما بلغ الروم ذلك من إسلامه طلبوه حتى أخذوه فحبسوه عندهم فقال فى محبسه ذاك :

ولقد علمت أبا كبيشة أننى ... وسط الأعزة لا يحص[1] لسانى

فلئن هلكتُ لتفقدُن أخاكم ... ولئن بقيتُ لتعرفُن مكانى

(١) لا يحص : لا يقطع .

ولقد جمعت أجل ما جمع الفتى من جودة وشجاعة وبيان

فلما أجمعت الروم لصلبه على ماء لهم يقال له : عفراء بفلسطين قال :

ألا هل أتى سلمى بأن حليلها على ماء عفرا فوق إحدى الرواحل

ولما قدموه ليقتلوه قال :

بلغ سراة المسلمين بأنني سَلْمٌ لربي أعظمي ومقامي

وكما كان السبب المباشر فى مؤتة مقتل الحارث بن عمير الأزدى رسول رسول الله ﷺ، كان السبب المباشر فى تبوك هو مقتل فروة بن عمرو الجذامى الذى استغاث بالمسلمين وبرسول الله ﷺ وتبع هذا الأمر حشود ضخمة على الحدود الشمالية ، وكانت الأنباء تترامى إلى المدينة بإعداد الرومان للقيام بغزوة حاسمة ضد المسلمين حتى كان الخوف يتسورهم فى كل حين ، لا يسمعون صوتاً غير معتاد إلا ويظنونه زحف الرومان ، ويظهر ذلك جليا مما وقع لعمر بن الخطاب فقد كان النبى ﷺ آلى من نسائه شهراً فهجرهن[1]. ففى صحيح البخارى: (وكنا تحدثنا أن آل غسان تنعل النعال لغزونا . فنزل صاحبى يوم نوبته ، فرجع عشاءً فضرب بابى ضرباً شديداً وقال: أنائم هو ؟ ففزعت فخرجت إليه، وقال حدث أمر عظيم، فقلت : ما هو ؟ أجاءت غسان ؟ قال : لا بل أعظم منه وأطول ، طلق رسول الله ﷺ نساءه)[2] .

وإن قيمة الجندى المسلم عظيمة فى الإسلام ، وحين يكون المسلمون قادرين على حمايته فلابد من ذلك ، أو الثأر له ولو اقتضى الأمر إشعال حرب كاملة من أجله ، وما بيعة الرضوان بسر، وما غزوة تبوك بسر، وما غزوة مؤتة بسر، وما سرية أسامة إلى تخوم الشام بسر ، إذ قامت هذه جميعاً ثأراً من الغادرين الذين يقتلون الرسل ويستخفون بالأعراف الدبلوماسية حين يكون عدوهم مهيض الجناح حسب ما يتصورون . فالرسل لا تقتل فى الأصل ، وما يقدم على ذلك الغادرون إلا تحدياً لخصومهم فى ذلك .

وسنعرض لغزوة تبوك فى خطوط عريضة تتناسب مع طبيعة هذه السمة :

---

(١) الرحيق المختوم للمباركفورى ص ٤٨٣ . (٢) صحيح البخارى ١/ ٣٣٤ .

الخط الأول : التظاهرة الكبرى فى تحرك ثلاثين ألفاً من المسلمين :

فقد أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم وذلك فى زمان عسرة من الناس وشدة من الحر ، وجدب من البلاد ، وحين طابت الثمار ، والناس يحبون المقام فى ثمارهم وظلالهم ، ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذى هم عليه ، وكان رسول الله ﷺ قلما يخرج فى غزوة إلا كنّى عنها ، وأخبر أنه يريد غير الوجه الذى يصمد له ، إلا ما كان من غزوة تبوك فإنه بينها للناس ، لبعد الشُقة وشدة الزمان ، وكثرة العدو ، الذى يصمد له ليتأهب الناس لذلك أهبته ، فأمر الناس بالجهاز وأخبرهم أنه يريد الروم[1] .

(ثم إن رسول الله ﷺ جدَّ فى سفره وأمر الناس بالجهاز ، وحضَّ أهل الغنى على النفقة والحملان فى سبيل الله،فحمل رجال من أهل الغنى واحتسبوا، وأنفق فى ذلك عثمان بن عفان نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها)[2] .

(ثم إن رجالاً من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ وهم البكاؤون ، وهم سبعة نفر من الأنصار ، فاستحملوا رسول الله ﷺ ، وكانوا أهل حاجة . فقال : « لا أجد ما أحملكم عليه » ، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون) [3].

(وجاء المعذرون من الأعراب فاعتذروا إليه فلم يعذرهم الله تعالى) [4] .

وكان الاتجاه الإسلامى ألا يتخلف أحد عن المعركة ، فقد كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ بعد انطلاقه من المدينة كلما ذكر له تخلف أحد من أصحابه أو الخُلّص منهم كان يقول:« إن يكن به خير فسيلحق بنا » .

وجرى ذلك مع أبى ذر الغفارى وأبى خيثمة .

ويحدث كلثوم بن الحصين يقول:(فقلت: استغفر لى يا رسول الله، فقال : « سر »، فجعل رسول الله يسألنى عمَّن تخلف من غفار فأخبرته، فقال:« ما منع أحدٌ أولئك حين تخلف أن يحمل على بعير من إبله امرأ نشيطاً فى سبيل الله، إن أعز أهلى علىَّ أن يتخلف عنى المهاجرون والأنصار وغفار وأسلم »)[5] .

---

(١) السيرة لابن هشام ٢/ ٥١٦ .
(٢، ٣) المصدر السابق ٢/ ٥١٨ .
(٤) السيرة لابن هشام ٢/ ٥١٨ .
(٥) المصدر السابق ٢/ ٥٢٩ .

(فلما رحل رسول الله ﷺ من ثنية الوداع عقد الألوية والرايات فدفع لواءه الأعظم إلى أبى بكر رضي الله عنه ، ورايته العظمى إلى الزبير ، وراية الأوس إلى أسيد ابن الحضير ، ولواء الخزرج إلى أبى دجانة ، وأمر كل بطن من الأنصار ، والقبائل من العرب أن يتخذوا لواءً أو راية وساروا معه ثلاثون ألفاً ، وعشرة آلاف فرس ، واثنا عشر ألف بعير) (١) .

ولا شك أن هذه التظاهرة الضخمة سوف تكون حديث الركبان فى جزيرة العرب ، فقد ارتفع العدد ثلاثة أضعاف عما كان فى فتح مكة . ولئن كانت العملية الفدائية الأولى إلى تخوم الروم ثلاثة آلاف فى مؤتة، فقد بلغت هذه الحملة عشرة أضعاف تلك ، إنه لتطور ضخم ابتدأ فى العام الأول للهجرة بثلاثين راكباً . وانتهت فى العام التاسع للهجرة بثلاثين ألفاً . وهذا يعنى أن الجيش الإسلامى ارتفع خلال تسع سنوات ألف ضعف عما ابتدأ به .

الخط الثانى : مسير الغزوة وعملياتها :

كما ذكرت فلم يكن فى الحملة الضخمة مواجهة تذكر لأن عرب الشام سمعوا بضخامة الحملة فتفرقوا فى البلاد،كما أن هرقل لم يكن بنيته مواجهة محمد رسول الله لما يعرفه عنه.

(وشاور رسول الله ﷺ فى التقدم فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إن كنت أُمرت بالمسير فسر، فقال: « لو أُمرتُ به ما استشرتكم فيه » قالوا: يا رسول الله، إن للروم جموعاً كثيرة، وليس بها أحد من أهل الإسلام ، وقد دنوت منهم حيث ترى ، وقد أفزعهم دنوك فلو رجعت هذه السنة حتى ترى ، أو يُحدث الله لك فى ذلك أمرا) (٢) .

كما كلّف رسول الله ﷺ البطل المغوار خالد بن الوليد باختطاف أكيدر بن عبد الملك بدومة الجندل فى أربعمائة فارس ، وكان أكيدر نصرانياً (فقال خالد : يا رسول الله ، كيف لى به وهو وسط بلاد كلب، وإنما أنا فى أناس يسير فقال : « ستجده يصيد البقر فتأخذه » وقال : « فلا تقتله وائت به ، فإن أبى فاقتلوه » ، فخرج خالد حتى إذا كان من حصنه بمنظر العين ، وفى ليلة مقمرة وهو على

(١ ، ٢) إمتاع الأسماع للمقريزى ١/ ٤٥٠ .

سطح له من الحر ، ومعه امرأته وقينة تغنيه وقد شرب ، فأقبلت البقر[1] تحك بقرونها باب الحصن ، فأشرفت امرأته فرأت البقر فقالت : ما رأيت كالليلة من اللحم، هل رأيت مثل هذا قط ؟ قال: لا: قالت: من يترك هذا ؟ قال: لا أحد.

قال أكيدر: والله ما رأيت جاءتنا ليلاً بقر غير تلك الليلة، ولقد كنت أضمر لها الخيل شهراً أو أكثر ثم أركب بالرجال وبالآلة ، فنزل فأمر بفرسه فأسرج وأمر بخيل فأُسرجت ، وركب معه نفر من أهل بيته ، فخرجوا قَباء حصنهم بمطاردهم وخيل خالد تنتظرهم لا يصهل منها فرس ولا يتحرك ، فساعة فصل أخذته الخيل، واستلب خالد بن الوليد أخاه حساناً قَباءَ ديباجٍ مخوصاً بذهب[2] فبعث به إلى رسول الله ﷺ مع عمرو بن أمية ، فجعل المسلمون يلمسونه بأيديهم ويتعجبون منه فقال عليه السلام: « لمناديل سعد بن معاذ فى الجنة أحسن من هذا ». ثم خرج خالد إلى المدينة ومعه أكيدر وأخوه فصالحه رسول الله ﷺ على الجزية وخلى سبيله وسبيل أخيه)[3]. وخاف أهل أيلة وتيماء فقدم يُحنَّةُ بن رؤبة ومعه أهل جرباء وأذرح ، فصالحهم عليه السلام وقطع عليهم الجزية)[4] .

وهذه هى العمليات الحربية والسياسية التى قام بها جيش النبى ﷺ حيث تسارع الناس هناك لمصالحته ، وذلك من خلال اختطاف أكيدر فى عملية حربية ناجحة ، وأدت التظاهرة العسكرية والسياسية دورها فى إرهاب الشمال العربى وكفِّه عن التفكير بالهجوم على المدينة مستنداً إلى قوة الرومان العسكرية .

الخط الثالث : بروز المنافقين وتخطيطهم من جديد :

بعد أن صُفِّى المنافقون تقريباً عند صلح الحديبية وبقى وجودهم لا يتعدى بضعة أفراد عاد المجتمع الإسلامى فأخذ أبعاده بعد الحديبية ثم بعد الفتح ، فتضاعف الجيش الإسلامى عشرين ضعفاً ، وكثير ممن دخل هذا المجتمع كان دافعه الرغبة والرهبة ، وكان عبد الله بن أبى لا يزال على قيد الحياة ، فاستعاد بناء معسكره من جديد ، ونظم صفوفه من خلال القاعدة الجديدة العريضة التى انضمت له وبرزت مخططات المنافقين بتوزيع المهام بين المدينة قبل النفير ، ومع الجيش وبعد العودة إليها .

---

(١) البقر : بقر الوحش التى تصطاد .

(٢) مخوصا بذهب : أن يجعل للثوب صفائح من ذهب على قدر عرض خوص النخل وفى صورته .

(٣) إمتاع الأسماع ١/ ٤٦٣ ــ ٤٦٥ .

(٤) المصدر نفسه ١/ ٤٦٧ .

أما دورهم قبل النفير فكان ينصب على تخذيل الناس عن رسول الله ﷺ ودعوتهم إلى الركون للدنيا ﴿ ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ [التوبة : ٤٩] ، ﴿ وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون ﴾ [التوبة : ٨١] ، ﴿ ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين ﴾ [التوبة : ٤٦] .

وأما دورهم فى الجيش فكان فى مخالفة الأوامر ، وبث الفتنة فى الجيش والفرقة فيه . وعلى رأس هذه المخططات جميعاً محاولة اغتيال رسول الله ﷺ ﴿يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله فإن يتوبوا يك خيرا لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذابا أليما في الدنيا والآخرة وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير ﴾ [التوبة : ٧٤]. وأحبط الله تعالى مخططاتهم بإطلاع نبيه عليها حين هموا بما لم ينالوا، ومع وضوح الجريمة الغادرة فلم تقم ضدهم عمليات قتل أو تصفية جسدية ، حفاظاً على السمعة العامة للجماعة المسلمة أن يقول الناس: إن محمداً يقتل أصحابه ، ومنعاً لتكتل قد يظهر على الساحة ، فيجر بعض الموتورين وهم كثر ممن دخل فى دين الله خوفاً على مصلحته ، وأما فى المدينة فقد كانوا يخططون لافتتاح مركز خاص لهم يأوى إليه كل المنافقين ، وهو مسجد الضرار الذى وعد رسول الله ﷺ بافتتاحه والصلاة فيه بعد العودة من تبوك ، وأطلع الله تعالى نبيه على الهدف من ذلك ، فبعث من يحرق مسجد الضرار بمن فيه : ﴿ والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون ﴾ [التوبة : ١٠٧] .

وكانت آيات سورة براءة التى نزلت فى المنافقين قرابة مائة آية أعنف حرب إعلامية عليهم ، كشفت جميع مخططاتهم ، وعرّتهم تعرية كاملة فى المجتمع الإسلامى ، حتى كان الصحابة يطلقون عليها أسماء عديدة ، منها : المخزية والفاضحة والمبعثرة . واستطاعت هذه الحملة الناجحة أن تهزم معسكر النفاق، وتعيد الكثيرين منه إلى الصف الإسلامى الخالص، فيحسن إسلامهم وكان أكبر فاجعة نزلت بهم هى موت عبد الله بن أبى زعيمهم، وكى لا يفتح رسول الله ﷺ معركة مع أتباعه فيما بعد فصلى عليه واستغفر له وأعطاه كساءه وعاتب الله

تعالى نبيه فى ذلك بقوله : ﴿ ولا تصلِ علىٰ أحدٍ منهم مات أبدا ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ﴾ [التوبة : ٨٤] .

وهذا الخط السياسى الذى اختاره النبى ﷺ فى عملية البناء الداخلى، تحتاج الحركة الإسلامية اليوم إلى دراسة أبعاده وجوانبه وأساليبه ، بحيث تستطيع أمام أى خلل فى صفها أن تعالجه بتفتيت ذلك التجمع المضاد ، وفضح أهدافه وضرب مركز القوة فيه حتى لا ينساق سواد الصف معه ، وأية معالجة غير هذه المعالجة تصل بالصف الإسلامى كله إلى التفجر والتشرذم والصلة المستمرة بالقواعد ، والتوعية التربوية والسياسية التى تشير إلى دور المغامرين والمقامرين بمصير الجماعة، دون أن تتحول القضية إلى حرب شخصية ، أو صراعات فردية ، هى صمام الأمان لسلامة خط الجماعة ، وحسن سيرها إلى الهدف الذى تسعى إليه ، وجهاز الأمن القوى للجماعة الذى يكشف كل المحاولات الخبيثة لتهديم الصف المسلم هو ضرورة ماسة فى كل حركة إسلامية ويبقى المحور الإسلامى فى هذا المجال هو عزل قادة النفاق أو المشاقين للجماعة المستغلين لها ، دون أن يبقى معهم مغرر واحد .

الخط الرابع : المخلفين الثلاثة وموقف المجتمع الإسلامى منهم[1] :

ورغم أن الصحابة الثلاثة ﷺ هم واحد من عشرة آلاف بالقياس إلى الجيش المسلم ، لكن أثر موقفهم فى المجتمع الإسلامى لم يكن أقل من خط منهجى للحركة تقتفى آثاره .

فقد تخلفوا عن المعركة دون عذر ، وصدقوا الله ورسوله وقال لهم ـ عليه الصلاة والسلام : « أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يحكم الله فيك » .

وكان التوجيه الربانى بالنسبة لهؤلاء الثلاثة هو مقاطعتهم من المسلمين (ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا أيها الثلاثة) وكانت محنة من الطرف الآخر لهذا الصف ، ومدى استجابته للموقف الحازم من المخالفين من جنوده ، وثبتت قوة الصف والتحامه فى المفاصلة مع هؤلاء الثلاثة فى أروع ما يحمل تاريخ الدعوات من صور؛ لدرجة أنهم يسلمون فلا يرد عليهم السلام، ولكن أعظم ما فى هذه

---

(١) ما بين القوسين مقتطفات من قصة كعب وتخلفه. انظر : السيرة لابن هشام وغيرها .

المفاصلة ولا شك هو الأمر الأخير لزوجاتهم بمقاطعتهم ، وقد نجحت حتى هذه الخطوة وتحقق العزل الكامل لهم فى صورة لم يشهد التاريخ مثيلاً لها، وما أظنه يشهد (فأقمنا على ذلك أربعين ليلة من الخمسين إذا رسول رسول الله يأتينى فقال: إن رسول الله يأمرك أن تعتزل امرأتك قال : قلت : أطلقها أم ماذا ؟ قال: لا بل اعتزلها ولا تقربها) .

وتبلغ أهمية هذا الموضوع وخطره على الصف الإسلامى ، أن بلغ أعداء الإسلام فى الشام حتى بعثوا يتصلون بكعب بن مالك أحد الثلاثة والشاعر الإسلامى المشهور يعرضون عليه الانضمام إليهم . (إذا نبطى يسأل عنى من نبط الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدل على كعب بن مالك ؟ قال : فجعل الناس يشيرون إلى حتى إذا جاءنى فدفع إلى كتاباً من ملك غسان ، وكتب كتاباً فى سرقة من حرير فإذا فيه : أما بعد ، فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسك،قال: قلت حين قرأتها: وهذا من البلاء أيضاً قد بلغ بى ما وقعت فيه أن طمع بى رجل من الشرك، فعمدت بها إلى تنور فسجرته فيها). وإذا كان كعب رضي الله عنه قد فضح هذه الصلة ، وعمد إلى الكتاب فأحرقه فكم إذن يا ترى من الصلات والرسائل والمخططات كانت تصل لابن أبى ، فيكتمها ويجيب عليها ، ويتآمر من خلالها على الجماعة المسلمة .

وحتى تعرف الحركة الإسلامية سلامة صفها ، فلابد من أن تعرف مقدرتها على تنفيذ مثل هذه الأوامر فى قطاع خاص من قطاعاتها ، وحين لا تنجح فى هذا الحيز الضيق ، فهى على المستوى الأوسع أعجز ، وهى بالتالى تحتاج إلى معاناة مستمرة فى محاولة البناء المستمر فى الانضباط والالتزام .

ونشير فى النهاية إلى أن هذا المجتمع قد عاش مأساة إخوته الثلاثة فى أشد ما يكون يقظة والتزاماً وألما ، حتى إن التوبة حين نزلت من السماء ما تمالك صارخ أن يصرخ مع الفجر بأعلى صوته من قمة الجبل : أبشر يا كعب بن مالك ، حتى إن إحدى أمهات المؤمنين أرادت أن تبشره من المساء فقال ـ عليه الصلاة والسلام : « إذن لا يدعكم الناس تنامون ». وظهر الصف الإسلامى فعلاً أنه كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر ، وكان أروع ما فى الأمر تمام الانضباط مع تمام العاطفة والحب والاشتراك فى الأمل والألم.

السمة السادسة عشرة

سورة براءة وإنهاء الوجود الوثنى

عاد رسول الله ﷺ من تبوك ، واتجهت العرب إلى المدينة تعلن ولاءها وكان موسم الحج الجديد (ثم قام رسول الله ﷺ بقية شهر رمضان وشوالا وذا القعدة، ثم بعث أبا بكر أميراً على الحج من سنة تسع ليقيم للمسلمين حجهم ، والناس من أهل الشرك على منازلهم من حجهم ، فخرج أبو بكر رضي الله عنه ومن معه من المسلمين) (١) .

قال ابن إسحاق: (وحدثنى حكيم بن حكيم بن عباد بن حنيف،عن أبى جعفر محمد بن على رضي الله عنه أنه قال : لما نزلت سورة براءة على رسول الله ﷺ وقد كان بعث أبا بكر ليقيم للناس الحج قيل له: يا رسول الله، لو بعثت بها إلى أبى بكر فقال: « لا يؤدى عنى إلا رجل من أهل بيتى » ، ثم دعا على بن أبى طالب ـ رضوان الله عليه ـ فقال : « اخرج بهذه القصة من صدر براءة وأذّن فى الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى أنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عُريان ، ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو له إلى مدته»، فخرج على رضي الله عنه على ناقة رسول الله ﷺ العضباء حتى أدرك أبا بكر بالطريق ، فلما رآه أبو بكر بالطريق قال : أأمير أم مأمور ؟ قال : بل مأمور، ثم مضيا فأقام أبو بكر للناس الحج والعرب إذ ذاك فى تلك السنة على منازلهم فى الحج التى كانوا عليها فى الجاهلية، حتى إذا كان يوم النحر قام على بن أبى طالب فأذّن بالناس بالذى أمره به رسول الله ﷺ فقال : أيها الناس ، إنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو له إلى مدته ، وأجَّل الناس أربعة أشهر من يوم أذّن فيهم ليرجع كل قوم إلى مأمنهم أو بلادهم ، ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة إلا أحد كان له عند رسول الله ﷺ عهد إلى مدة فهو له إلى مدته ، فلم يحج بعد ذلك العام مشرك ولم يطف بالبيت عريان)(٢) .

(١، ٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٥٤٣ .

لقد كان حج العام التاسع من حيث الشعائر فيه كامل الحرية للمسلمين والمشركين دون وجود سلطة محددة تمنع هذا أو ذاك ، ولكن ظهر المجتمع الإسلامى الضخم الذى يقوده أبو بكر ﷺ ، والمسلمون معه يحجون بحجه ، ولا يبعد أن يكون كثير من المسلمين مع قبائلهم وفى مواقعها .

وكان هذا التجمع مناسبة طيبة لإعلان الأوامر الربانية فى إنهاء الوجود الوثنى فى جزيرة العرب ، والذى استمر عدة قرون وفى الكعبة المشرفة .

ولقد تم خلال الحج الماضى إزالة الأصنام من مكة فقط، وكانت تظاهرة عمرة الجعرانة قبيل الحج فقط،غير أن إعلان الأحكام الإسلامية فى منى يوم النحر كان من الأهمية بمكان، ويعنى أن شريعة الله سوف تطبق كل أحكامها وعلى الناس جميعاً خلال مدة زمنية أقصاها أربعة أشهر إلى السنة ، فخلال سنة وحتى يحل الحج القادم فيمكن التساهل وغض النظر عن بعض مظاهر الشرك فى البيت الحرام ، أما الذين كان لهم وجود قانونى ثابت من خلال عهود ومواثيق مع رسول الله ﷺ ﴿ **فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم** ﴾ [التوبة : ٤] ، لكن استمرار الشرك بصورة دائمة فهذا مرفوض فى شريعة الله فى مكة وجزيرة العرب ، فالعهود المفتوحة بدون قيد ، والتجمعات المشركة القائمة بدون عهد حدده الإنذار النهائى لها أربعة أشهر لإعلان الانضمام إلى المسلمين أو المواجهة معهم .

﴿ **براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين . فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين . وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم . إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين . فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم . وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون** ﴾ [التوبة : ١ ــ ٦] .

وكان هذا الإعلان الرسمى بمثابة حل لأحزاب الشرك والوثنية فى أرض العرب ، إلا التى أقامت وجودها بإذن خاص من رسول الله ﷺ .

وأهم ما يحسن أن تعيه الحركة الإسلامية من هذا الإعلان أن تفقه قصة التدرج فى الحكم والأحكام والخطوات المرحلية المؤدية إلى الهدف ، وشرف التعامل والعهود والمواثيق مع الآخرين .

وإننا لنذكر الشباب الدعـاة أنه ما بين تطبيق أحكام الإسلام فى الشعائر، وما بين فتح مكة سنتان تماماً ، وكان بإمكان النبى ﷺ بعد أن انتهى من هوازن وحنين وما حولها مظفراً منتصرا، أن يقيم فى مكة إلى الحج ، ويمنع خلال شهر أداء كل هذه الشعائر إذ إنه دخل مكة ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى ذى القعدة ، ولكن العبادات لا تتم بالحظر فقط ، وبالأمر فقط . لقد غادر رسول الله ﷺ مكة قبيل الحج وجعل أميراً على المسلمين فى مكة عتاب بن أسيد ، الشاب الذى لم يمض على إسلامه شهران أو أكثر ، وبقى عتاب بن أسيد رضي الله عنه مع من أسلم حديثاً من أهل مكة فحج بالمسلمين ، وبقى معاذ بن جبل رضي الله عنه فى مكة يفقه الناس فى الدين ويعلمهم القرآن .

مضى عام كامل ومعاذ تحت إمرة عتاب يفقه الناس فى الدين ، وإن كان قد استدعى رضي الله عنه لأداء المهمة نفسها فى اليمن ، وكانت سنة كافية لأسلمة الحج كله إذا صح التعبير ، ولكن رسول الله ﷺ مدّد الأمر عاماً آخر حتى تأخذ التربية مداها ، ويأخذ التفقيه مداه ، وأن يتعامل مع قلوب الناس لا مع أجسادهم لابد من سلخ آثار الوثنية من القلوب والنفوس التى علقت بها هذه الآثار ، واستمرت التربية سنتين كأملتين حتى كانت حجة الوداع .

لقد ارتبط الحكم الإسلامى فى جانبيه الشعائر والشرائع بهذا المدى الزمنى العظيم ، والسلطة الوحيدة المسيطرة هى سلطة المسلمين ، وهى القوة الوحيدة فى الساحة ، ومع ذلك اقتضى الأمر هذا المدى الزمنى الطويل ليمنع فيه حج المشرك وطواف العُريان .

إننا نجد الشباب الإسلامى المتحمس وهو يتصور دولة الإسلام القادمة من خلال بلاغات حربية وانقلاب عسكرى ، ومنذ اليوم الأول الذى تعلن فيه إسلامية الدولة ، وفى بلاغات متلاحقة،وأيام قلائل، تلغى كل مظاهر الكفر والشرك فى الإذاعة والتلفاز، ومظاهر الفساد ومواخير الزنا فى المسارح والملاهى والسينمات ، ويصدر قرار بالحجاب الإسلامى.

إن هذا التصور العجيب الذى يملأ قلوب الكثير من الشباب هو تصور غير إسلامى ، بل ويبالغ الشباب بكل أسف فى ذلك لدرجة اتهام القيادة المسلحة بالمداهنة فى دين الله لو تلكأت عن هذا التنفيذ وبالانحراف ، وبموالاة الكفار .

لقد سمعت ذلك الشاب المتحمس وهو يناقشنى على صوت موسيقى ظهر خطأ فى برنامج إسلامى ، من إذاعة لدولة حليفة يقول لى : هذا هو الانحراف، وكما انحرف الفلسطينيون فى فتح، وانتقلوا من الإسلام فى البداية إلى العلمانية ها أنتم تنحرفون كذلك، بل وبلغ الحماس عند بعض الشباب أن نفض يديه من الجماعة المسلمة حين وجد هذا الصوت فى هذا البرنامج .

لهؤلاء الشباب الذين نقرأ عتابهم وهم رصيد هذه الحركة ، لهؤلاء نقول : رويداً رويداً ، فها هو رسول الله ﷺ يستلم السلطة فى مكة ، ويبقى الحرم يعج بالمشركين والعراة سنتين كاملتين حيث تم التمهيد المناسب والتفقيه اللازم ، والتهيئة النفسية الكاملة ، وتم بعد هذا كله إلغاء هذه المظاهر الماجنة فى ظل الكعبة .

إنه نداء حار إلى الشباب كى يفقه هذا الدرس وفى أعظم صور المفاصلة بين الإسلام والشرك ، ومع هذا وُضع له مدى أربعة أشهر لإلغاء التجمع ، ومدى سنة كاملة لتنفيذ الحكم الإسلامى الكامل فى البيت الحرام وغيره وإعلان الحرب على الوجود المشرك ، كان فى بلاغات لا تغدر بالناس ، ولا تفرض عليهم الأمر فرضاً ، بل تتيح لهم الفرصة للتعرف والتفقه ، بحيث يتمكن كل فرد فى الأمة أن يتعرف على الإسلام من خلال الدعاة المنبثين فى كل مكان، وكانت عظمة الإنذار السادس أن الأمان مفتوح لكل مشرك جاء ليتعرف على الإسلام، وله كامل حريته أن يسلم أو يعود إلى تجمعه المشرك إن لم يقتنع بالإسلام، دون خطر على وجوده وحياته ، بل على المسلمين أن يبلغوه مأمنه . إنها دورة تدريبية كاملة لمدة سنة تتيح لكل مشرك فى أرض العرب أن يتعرف على الإسلام ويفقه أحكامه خلال هذا العام ، وله كامل الحرية بعدها فى اختيار الإسلام أو الشرك ؛ لأن ضمان عودته إلى حزبه قائم فأبلغه مأمنه ، وبعدها تكون الحرب المعلنة، أو الدخول فى الدين. وليت الشباب يدركون عظمة هذا الدرس ، وأنهم يتعاملون مع بشر يحرصون على دخولهم فى حظيرة الإسلام ولا يتعاملون مع صنم يكسر ويحطم ، وانتهى الأمر،

ولا ينسوا أبداً أن المظاهر الماجنة فى ظل الكعبة بقيت سنتين ورسول الله ﷺ حاكم أرض العرب ، طالما أن هذا الأمر يخص مقدسات الناس فلابد من التدرج فى إزالته حتى يألفه الناس ولا يفرون أو ينفرون .

السمة السابعة عشرة
الحج الأكبر ومائة وثلاثون ألفاً من المسلمين

قال ابن إسحاق : فلما دخل على رسول الله ﷺ ذو القعدة تجهز للناس ، وأمر الناس بالجهاز له،وعن عائشة رضي الله عنها قالت: خرج رسول الله ﷺ لخمس ليال بقين من ذى القعدة.

ثم مضى رسول الله ﷺ على حجه فأرى الناس مناسكهم ، وأعلمهم سنن حجهم وخطب الناس خطبته التى بين فيها ما بين فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: « أيها الناس، اسمعوا قولى فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبداً : أيها الناس ، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا . وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلغت فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها ، وإن كل ربا موضوع ، ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تُظلمون، قضى الله أنه لا ربا، وإن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله،وإن كل دم كان فى الجاهلية موضوع ، وإن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وكان مسترضعاً فى بنى ليث فقتلته هذيل ، فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية ، أما بعد أيها الناس ، فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد فى أرضكم هذه أبداً ، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم .

أيها الناس ، إن النسيء زيادة فى الكفر يُضل به الذين كفروا ، يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرَّم الله ، ويحرموا ما أحل الله ، وإن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً . منها أربعة متوالية ، ورجب مضر الذى

بين جمادى وشعبان . أما بعد أيها الناس ، فإن لكم على نسائكم حقا ، ولهن عليكم حقا ، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحد تكرهونه، وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرِّح، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، واستوصوا بالنساء خيراً، فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمات الله ، فاعقلوا أيها الناس قولى فإنى قد بلغت .

وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً، أمراً بيِّناً ، كتاب الله وسنة نبيه.

أيها الناس ، اسمعوا قولى واعقلوه ، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم ، وأن المسلمين إخوة فلا يحل لامرئ إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه فلا تظلمن أنفسكم ، اللهم هل بلغت ؟ » .

فذكر لى أن الناس قالوا: اللهم نعم، فقال رسول الله ﷺ: « اللهم اشهد».

قال ابن إسحاق : وحدثنى عبد الله بن نجيح أن رسول الله ﷺ حين وقف بعرفة قال: « هذا الموقف ـ للجبل الذى هو عليه ـ وكل عرفة موقف » . وقال حين وقف على قزح صبيحة المزدلفة : « هذا الموقف، وكل المزدلفة موقف » ثم لما نحر بالمنحر بمنى قال : « هذا المنحر، وكل منى منحر »، فقضى رسول الله ﷺ الحج وقد أراهم مناسكهم وأعلمهم ما فرض الله عليهم من حجهم من الموقف ورمى الجمار وطواف البيت، وما أحل لهم من حجهم وما حرم عليهم فكانت حجة البلاغ ، وحجة الوداع وذلك أن رسول الله ﷺ لم يحج بعدها .

ارتبط مع حجة الوداع نزول قول الله عز وجل : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم** ﴾ [المائدة : ٣] .

وفى صدد الحديث عن المنهج الحركى نقف على عتبة النهاية لهذه الخطوات التى ابتدأت بقول الله عز وجل : ﴿ **اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم** ﴾ [العلق : ١ ـ ٥] .

ابتدأ الإسلام بشخص رسول الله ﷺ فى مكة فى جبل غار حراء وهو

شاخص ببصره بين الأرض والسماء ، وجبريل يقول له : أنت رسول الله ، وأنا جبريل وها هى تنتهى بجوار غار حراء ، وعند الصخرات من جبل عرفة ، وحوله مائة وثلاثون ألفاً من المسلمين يمثلون جزيرة العرب قاطبة ، ومن هذا الموقع وفى هذا الموقف يعلن ـ عليه الصلاة والسلام ـ إتمام المهمة ، وتبليغ الرسالة وإكمال الدين على لسان نبيه محمد ﷺ :

﴿ **اليَوْمَ أَكمَلتُ لَكُمْ دينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نعْمَتي وَرَضيتُ لَكُمُ الإسلام دينا** ﴾ ، لقد ابتدأت القاعدة الصلبة قبل ثلاث وعشرين عاماً بشخص رسول الله ﷺ ، وانتهت بهذه المجموعات الضخمة التى تمثل الأرض العربية آنذاك .

وأمام هذا الحشد الضخم من الأمة ، كان الخط الأول : « خذوا عنى مناسككم » ، وبذلك تتجه الأمة لترى رسول الله ﷺ وهو على راحلته يؤدى المناسك فيقتدى الناس جميعاً به ، ويرونه وهو على الراحلة بحيث يتم بهذه العملية إلغاء كل المناسك الوثنية التى كانت موجودة فى أرض الحرم ، والحج هو أعظم تجمع بشرى فى ذلك الوقت فلابد من إيضاح المعالم الكبرى للدعوة ، والتى يتم عليها التقاء البشر جميعاً لما لها من أهمية خالصة وحيث تقف الناس جميعاً بعرفة . أعلن المبادئ الكبرى على الناس جميعاً وهى :

أولا : حرمة الأموال والدماء والأعراض : وهذا يمثل الخط الفاصل بين الإسلام ونظم الأرض ، فالشيوعية اليوم تجعل الأموال والأعراض والدماء ، فى حكم المشاع ، كما أن الرأسمالية تبيح الأعراض وتنتهك الأموال وتسفك الدماء . والميزان الحقيقى للوجود الإسلامى فى الأرض هو الحفاظ على حرمة الدماء والأموال والأعراض .

ثانياً : حرمة الربا : وهو الهرم الذى يرتفع الظلم فيه حتى يسحق الفقراء فى الأرض .

ثالثاً : العدل : وهو سمة الإسلام الأولى فى هذا الوجود وبه قامت السموات والأرض، ومن أجل ذلك فأول ربا يوضع هو ربا العباس بن عبد المطلب عم محمد ﷺ .

رابعاً : حقن الدماء : وذلك حيث يتحول الحكم الإسلامى إلى القصاص،

والانتقال من مفهوم الثأر إلى مفهوم القصاص، هو انتقال من العشيرة إلى الدولة، ومستوى العدل نفسه فى الربا هو هو نفسه فى الدماء « وإن أول دم أضعه هو دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب » ، والأمة التى تصان أرواحها ودماؤها هى أمة متقدمة جدا فى مضمار الحضارة والمدنية ، وأن يكون الأمن مستتبا هو الذى يحقق السعادة للأمة .

خامساً : إلغاء الوثنية : فلن تعود الوثنية للأرض العربية ، أو تعود الأصنام والأوثان إليها بعد أن جاء الحق وزهق الباطل ، لكن الشيطان سيتدخل فى صرف الناس عن الاستقامة على دين الله .

سادساً : حرمة التلاعب بدين الله : فقد انتهى دور الشيطان فى أرض الإسلام أن يعيد إليها الوثنية من جديد ، لكنه قد يدخل فى دين الله ما ليس فيه حين يشرّع الناس ما لم يأذن به الله. إنها الحاكمية لله تعالى، وليست للبشر . فالنسىء نموذج من هذه النماذج وهو تأخير الأشهر الحرم والتلاعب فيها ، يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله .

وهذه هى القضية التى يقوم عليها الصراع بين الإسلام والجاهلية ؛ إن الحكم إلا لله قضى ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم .

سابعاً : حق الرجل على المرأة: ومن خلاله يتبلور النظام الاجتماعى فى الإسلام ، فالمرأة تبع للرجل ، والقوامة للرجل على المرأة والمفهوم الإسلامى للأسرة هو أن تكون المرأة وقفاً على الرجل ولا تأتى بالفاحشة البينة ، وعند الفاحشة فللرجل قسر المرأة وقصرها عليه ولو فى الضرب غير المبرح والهجر فى المضجع والموعظة الحسنة .

ثامناً : حق المرأة على الرجل : وهى حين حبست نفسها عليه فعليه رزقها وكسوتها بالمعروف ، وعليه أن يحسن المعاملة فهن أمانة الله عند الرجال ، وبكلمات الله استحلت فروجهن فاستوصوا بالنساء خيراً .

تاسعاً : ودستور الأمة ينطلق من المصدرين الأساسيين ، ومناط التشريع عليهما كتاب الله تعالى وسنة رسوله ، ولا ضلال لمن تمسك بهما .

عاشراً : والرابطة العليا فى الأمة هى رابطة العقيدة ورابطة الإسلام ، فالأخوة من خلالها « تعلمُنَّ أن كل مسلم أخ للمسلم ، وأن المسلمين إخوة فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفسه » .

وحيث تم تبليغ هذه المبادئ العشر وقد أعلنت فى اجتماع يضم مائة وثلاثين ألفاً لابد لهؤلاء أن يحملوا الأمانة إلى الأرض كلها ، وإلى الأجيال فيما بعد . ومن أجل هذا كان الخطاب على الملأ : « اللهم هل بلغت » . فتجيب جماهير الأمة : اللهم نعم ، فيرفع يديه لرب السماء قائلاً : « اللهم اشهد » .

السمة الثامنة عشرة
إلى الرفيق الأعلى بعدَ إتمام النعمَة

ولا غرابة أن تكون وفاة رسول الله ﷺ من سمات هذه المرحلة ؛ لأن الوفاة التى ارتبطت بقيام دولة الخلافة، يعنى أن هذا المنهج الحركى لم يكن خاصاً بالنبوة بمقدار ما كان خاصاً بالأمة ، ولعل معيشة تلك اللحظات يعطى الحدود العامة لهذه السمة .

روى ابن إسحاق عن عائشة قالت : رجع إلىَّ رسول الله ﷺ فى ذلك اليوم حين دخل من المسجد ، فاضطجع فى حجرى فدخل علىَّ رجل من آل أبى بكر ، وفى يده سواك أخضر فنظر رسول الله ﷺ إليه فى يده نظراً عرفت أنه يريده ، فقلت : يا رسول الله ، أتحب أن أعطيك هذا السواك ؟ قال : « نعم » فأخذته فمضغته له حتى لينته ، ثم أعطيته إياه ، قالت : فاستن به كأشد ما رأيته يستنُّ بسواك قط ، ثم وضعه ، ووجدت رسول الله ﷺ يُثقل فى حجرى ، فذهبت أنظر فى وجهه فإذا بصره قد شخص وهو يقول: « بل الرفيق الأعلى فى الجنة »، فقلت : خيرت فاخترت والذى بعثك بالحق ، وقبض رسول الله ﷺ .

وفى رواية لها كذلك : مات رسول الله ﷺ بين سحْرى ونحرى وفى دولتى لم أظلم فيه أحداً ، فمن سفهى وحداثة سنى أن رسول الله ﷺ قُبض وهو فى حجرى، ثم وضعتُ رأسه على وسادة ، وقمت ألتدم مع النساء وأضرب وجهى.

وروى ابن إسحاق عن أبى هريرة قوله : لما توفى رسول الله ﷺ قام عمر بن الخطاب فقال : إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ قد توفى ، وإن رسول الله ﷺ ما مات ، لكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات ، والله ليرجعن رسول الله ﷺ كما رجع موسى فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله ﷺ قد مات . وأقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد حين بلغه الخبر ، وعمر يكلّم الناس، فلم يلتفت إلى شىء حتى دخل على رسول الله ﷺ فى بيت عائشة ، ورسول الله مسجىً فى ناحية البيت عليه بُردٌ حبرة ، فأقبل حتى كشف عن وجه رسول الله ﷺ ثم أقبل عليه فقبّله، ثم قال بأبى أنت وأمى، أما الموتة التى كتب الله عليك فقد ذقتها ، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبداً ، ثم ردَّ البُرد على وجه رسول الله ﷺ ثم خرج وعمر يكلم الناس ، فقال : على رسلك يا عمر ، أنصت ، فأبى إلا أن يتكلم فلما رآه أبو بكر لا يُنصت أقبل على الناس، فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ، إنه من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت ثم تلا هذه الآية : ﴿ **وما مُحمَّدٌ إلاَّ رسُولٌ قَدْ خلَتْ من قَبْله الرُّسُلُ أفإن مّات أوْ قُتل انقلَبْتُمْ علىٰ أعْقابكُمْ ومَن ينقلبْ علىٰ عقبيْه فلن يضُرَّ الله شيئًا وسيجزي اللهُ الشاكرين** ﴾ [آل عمران : ١٤٤] .

قال : فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت ، حتى تلاها أبو بكر وأخذها الناس عن أبى بكر ، فإنما هى فى أفواههم فقال عمر: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرتُ حتى وقعت إلى الأرض ما تقلنى رجلاى ، وعرفت أن رسول الله ﷺ قد مات.

أمر سقيفة بنى ساعدة

قال ابن إسحاق : وكان من حديث السقيفة حين اجتمعت بها الأنصار أن عبد الله بن أبى بكر حدثنى ، عن ابن شهاب الزهرى ، عن عبيد الله بن عبد الله ابن عتبة بن مسعود ، عن عبد الله بن عباس ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : (. . . إنه كان من خبرنا حين توفى الله نبيه ﷺ أن الأنصار خالفونا ، فاجتمعوا

بأشرافهم فى سقيفة بنى ساعدة ، وتخلف عنا على بن أبى طالب والزبير بن العوام ومن معهما ، واجتمع المهاجرون إلى أبى بكر، فقلت لأبى بكر: انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار، فانطلقنا نؤمهم حتى لقينا منهم رجلان صالحان، فذكرا لنا ما تمالأ عليه القوم. وقال : أين تريدون يا معشر المهاجرين ؟ قلنا : نريد إخواننا هؤلاء من الأنصار قالا : فلا عليكم ألا تقربوهم يا معشر المهاجرين اقضوا أمركم، قال: قلت: والله لنأتينهم، فانطلقنا حتى أتيناهم فى سقيفة بنى ساعدة، فإذا بين ظهرانيهم رجل مزمِّل فقلت: من هذا ؟ فقالوا: سعد بن عبادة ، فقلت: ماله ؟ قالوا : وجع فلما جلسنا تشهَّد خطيبهم ، فأثنى على الله بما هو له أهل ثم قال: أما بعد، فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منا. وقد دفَّت دافة [1] من قومكم، قال : وإذا هم يريدون أن يحتازونا من أصلنا، ويغصبونا الأمر. فلما سكت أردت أن أتكلم ، وقد زورت فى نفسى مقالة قد أعجبتنى ، أريد أن أقدمها بين يدى أبى بكر ، وكنت أدارى منه بعض الحد [2] فقال أبو بكر : على رسلك يا عمر فكرهت أن أغضبه ، فتكلم ، وهو كان أعلم منى وأوقر ، فوالله ما ترك من كلمة أعجبتنى من تزويرى إلا قالها فى بديهته أو مثلها وأفضل حتى سكت ، قال : أما ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل، ولن تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش هم أوسط العرب نسباً وداراً، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين فبايعوا أيهما شئتم، وأخذ بيدى ويد أبى عبيدة بن الجراح، وهو جالس بيننا ولم أكره شيئاً مما قاله غيرها، كان والله أن أقدَّم فتضرب عنقى لا يقربنى ذلك إلى إثم ، أحب إلىَّ من أن أتأمَّر على قوم فيهم أبو بكر .

قال قائل من الأنصار : أنا جُذَيلها المحكك، وعُذيقها المرجب، منا أمير ومنكم أمير، يا معشر قريش، قال : فكثر اللغط وارتفعت الأصوات حتى تخوفت الاختلاف ، فقلت : ابسط يدك يا أبا بكر ، فبسط يده فبايعتُه ثم بايعه المهاجرون ثم بايعه الأنصار .

وعن أنس بن مالك قال: لما بويع أبو بكر بالسقيفة وكان الغد، جلس أبو بكر

---

(١) دفَّت دافة : القوم يسيرون جماعة سيراً ليس بالشديد .

(٢) الحد : أى كان يدارى حدة فى خلق الصديق .

على المنبر فقام عمر فتكلم قبل أبى بكر فحمد الله ، وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : أيها الناس، إنى كنت قلت لكم مقالة بالأمس ما كانت مما وجدتها فى كتاب الله، ولا كانت عهداً عهد إلىّ رسول الله ﷺ، ولكنى قد كنت أرى أن رسول الله سيدبر أمرنا ، وإن الله قد أبقى فيكم كتابه الذى به هدى الله ورسوله ﷺ فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداكم له ، وإن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله ﷺ ، ثانى اثنين إذ هما فى الغار فقوموا فبايعوه، فبايع الناس أبا بكر بيعة العامة بعد بيعة السقيفة) (١) .

* * *

وفاة رسول الله ﷺ ، أضخم محنة شهدتها الجماعة المسلمة الأولى فى حياتها، والمحنة الأولى التى عانتها فى أحد كان أضخم ما فيها ما بلغهم من مقتل النبى ﷺ ، وفيها نزل قول الله عز وجل : ﴿ **وما مُحمَّدٌ إلاَّ رَسُولٌ قدْ خلتْ من قبْله الرُّسُلُ أفإن مَاتَ أوْ قُتلَ انقلَبْتُمْ علَىٰ أعْقَابكُمْ ومَن ينقلبْ علَىٰ عقبَيْه فلَن يضُرَّ اللَّه شيئا وسيجْزي اللَّهُ الشَّاكرين** ﴾ [آل عمران : ١٤٤] .

ولم يكن يدور فى خلد المؤمنين أن تكون موجة الردة الضخمة هى التمثيل العملى للانقلاب على العقب ، ولكن ضخامة هذه المحنة ، تبدو فى حس المسلم حين يطمئن إلى أن قائده رسول رب العالمين، وحين يطمئن إلى أن قائده سيد ولد آدم ، فأى شىء يقلق باله،ومن أى شىء يخاف بعد ذلك ، فهو على هداه ولكن أن يفتح المسلمون أعينهم على الدنيا ذات صباح فلا يجدون رسول الله ﷺ بين أيديهم ، إنه حقا لأمر جلل ، ومن أجل هذا فما أطاقه عمر بن الخطاب ولم يكن على استعداد فى حسه أن يقبل أن محمداً قد مات. ومن أجل هذا هدّد بقطع عنق كل من تسول نفسه أن تتحدث عن موت رسول الله ﷺ وليس موسى ﷺ أكرم منه، فلا غرابة أن يمضى لمناجاة ربه كما مضى موسى ـ عليه الصلاة والسلام.

غير أن الصديق الأكبر رضي الله عنه جاء إلى رسول الله ﷺ ورأى أنه قد مات حقا بعد أن كشف البرد عن وجهه ، وجاء يواجه الناس بالحقيقة السافرة دون أدنى تلجلج أو تردد وحاول إسكات عمر فلم يفلح ، ثم خطب وقال كلمته التاريخية الخالدة :

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٦٥٨ ـ ٦٦٠ .

من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت . بهاتين الكلمتين لخص الإسلام كله ؛ لأن الإسلام هو عبادة الله لا عبادة من دونه : ﴿ **وإذْ قَالَ اللَّهُ يا عيسى ابن مريم أأنت قُلْتَ للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قَالَ سُبْحانك ما يكُونُ لي أنْ أقُول ما لَيْس لي بحقّ إن كُنتُ قُلْتُه فقد علمْته تعلمُ ما في نفسي ولا أعلَمُ ما في نفسك إنك أنت علاَّمُ الغُيُوب . ما قُلْتُ لهُمْ إلاَّ ما أمرتني به أن اعْبُدُوا الله ربّي وربّكُم** ﴾ [المائدة : ١١٦ ، ١١٧] .

ولئن بقيت النصرانية بعد عشرين قرناً تعانى من هذه الوثنية، وتعانى من هذا الشرك، فلقد استطاع الصديق الأكبر والخليفة الأول أن يحل المشكلة منذ لحظاتها الأولى بهذا البيان الحاسم ، فعبادة البشر تنتهى بموتهم ، أما عبادة الله تعالى فلا تنتهى حتى يرث الله تعالى الأرض ومن عليها ، وهكذا ظهر أثر التربية العظيمة ، والإيمان الثابت فى أعظم المحن التى يتزلزل لها الأبطال وأعاظم الرجال حين تم الفصل بين المبدأ والقائد ، ويبقى المبدأ هو الثابت وعليه يتلاقى الناس ، وحين لم يتمكن الفاروق الأكبر رضي الله عنه أن يصمد أمام هول الصدمة التى هى وفاة النبى ﷺ، تمكن الصديق رضي الله عنه أن يجنب المسلمين فتنة ما بعدها فتنة، وبقى الإسلام على مدى خمسة عشر قرنا من الزمان دين الوحدانية أو لا يوجد فى هذا الوجود بهذا التوحيد غيره، وأن يصدر هذا الصبر من أبى بكر بالذات الذى كان خدن النبى ﷺ حتى قبل البعثة، ولم تجمح العاطفة به هذا الجموح الذى يجعله يستسلم لها، بل شعر بأن مسؤولية الأمة فى عنقه فما يجدى البكاء فى لحظات العاصفة وهو يحس بأعماقه فى هذه المسؤولية ، حين جعله رسول الله ﷺ خليفته من بعده فى الصلاة على المسلمين .

والدرس المهم للحركة الإسلامية من هذا الحدث هو أنه لا توجد قيادة فى الأرض يحق لها أن تفتن المسلمين ؛ لأن كل امرئ يؤخذ من كلامه ويرد إلا المصطفى ﷺ الذى يوحى إليه من رب العالمين ، فأى قائد يحق له أن يستأثر بالأمة بحجة أن الأمة تنهار بانهياره .

نحن لا ننكر أبداً دور القيادة فى الأمة، ونعلم أن كثيراً من الأمم تنهار بانهيار رجالاتها وأبطالها ، لكننا نحن الأمة المسلمة بالذات ، حين نكون على مستوى هذا الدين ، ومستوى هذه العقيدة لا يجوز أن يهز كياننا سقوط أية قيادة باستشهاد

أو اعتزال أو عزل ؛ لأن العاصم لنا من الفتنة هو هذا الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

هذا من جهة ، ومن جهة ثانية يحسن أن نعذر شباب الدعوة حين يتزلزلون من فقدان قائدهم الذى علقوا آمالهم به . فإذا كان رسول الله ﷺ حين مات تزلزل عمر رضي الله عنه ، فمن هو أكبر من عمر فى جيلنا حتى لا يصيبه هذا الزلزال ؟

صحيح أنه لا مقارنة بين فقدان أى قائد فى هذا الوجود ، وبين فقدان رسول الله ﷺ لأن كل قواد الأرض قد يخطئون ويزلون، وتخونهم الحكمة ، أما رسول الله ﷺ فهو صلة الأرض بالسماء،وكما قالت أم أيمن رضي الله عنها: أبكى لانقطاع الوحى من السماء فرسول الله ﷺ حين يغيب عن هذه الدنيا بجسده الشريف ، ويغيب معه وحى الله تعالى لخلقه يحق لمن يتحدث عن مصيبته أن يقول :

وما فقد الماضون مثل محمد ولا مثله حتى القيامة يفقد

ونحن نتحدث عن المنهج الحركى للسيرة النبوية لابد أن نلحظ أثر هذا المنهج والرسول ﷺ مسجىً فى بُرده الشريف ، وقد انتشر الخبر ووصل إلى داخل بيت النبوة أن الأنصار اجتمعت لتختار أميراً بعد رسول الله ﷺ، وحين ندع العواطف ومنطقها تتحكم فينا يقتضى الأمر منا لو كنا مع أبى بكر وعمر وأبى عبيدة رضي الله عنهم ، أن ندع الدنيا يتصارع عليها المتصارعون ونبقى نحن ويبقى الرعيل الأول بجوار الجسد الطاهر حتى يجهزوه ويكفنوه ويدفنوه . وإنه لمن العقوق أن يمضى هؤلاء الخلص بعيداً عنه ، لكن عندما يكون منطق العقيدة التى تحكم العواطف وتتحكم بها هو الذى يسود تختلف الصورة ، فوفاة رسول الله ﷺ تقتضى أن يتفق المسلمون على أمير بعده قبل أن ينتقض الأمر ، واحتمالات انتقاضه واردة لأبعد الحدود، فهذا مسيلمة الحنفى فى اليمامة قد ارتد، وذاك الأسود العنسى فى اليمن قد ارتد، وكلاهما ادعى النبوة، ومن أجل هذا لم يجد الصديق والفاروق والأمين حرجاً من أن يمضوا إلى سقيفة بنى ساعدة ليعالجوا الأمر هناك قبل أن ينفرد الأنصار بالرأى، وتعقد البيعة . عندئذ تتفاقم المشكلة أكثر وأكثر ويكون نقض البيعة أدهى وأمر من عقدها ابتداء بلا شك . والتقى المهاجرون بالأنصار وكانت الأنصار ترى أنها أحق بالأمر بعد رسول الله ﷺ فالبلد بلدهم ، والنبى ﷺ أوى إليهم ، واختارهم على غيرهم من أهل الأرض ، والمهاجرون تبع لهم بذلك .

هذا هو منطق الأنصار وحجتهم ، بينما كان منطق المهاجرين يقوم على أساس أن النبى ﷺ من قريش والعرب لا تدين إلا لقريش إذ هم سدنة البيت الحرام وحماته ، ومحمد ﷺ منهم .

وأمام توازن المنطقين وإدلاء كل منهما بحجته كان الحل الثانى : منا أمير ومنكم أمير وكان هذا المنطق مرفوضا عند المهاجرين أكثر من المنطق الأول ؛ لأنه لا يجتمع سيفان فى غمد. ومن أجل هذا كان جواب أبى بكر رضي الله عنه لهم: يا معشر الأنصار ، لقد كنتم أول من نصر وآزر فلا تكونوا أول من بدّل وغيّر .

وكانت هذه الكلمة ذات مفعول أشد من وقع السيف أعادت لهم صحوتهم ، فهم أنصار الله ورسوله فلم لا يكونوا أنصار خليفته من بعده .

وكانت وصية رسول الله ﷺ فيهم قبيل وفاته : « أوصيكم بالأنصار فإنهم كرشى وعيبتى ، وقد قضوا الذى عليهم وبقى الذى لهم فاقبلوا من محسنهم ، وتجاوزوا عن مسيئهم » ، فلحظوا أن هذه الوصية بهم تعنى أنهم سيبقون أنصاراً فى كل وقت ، كما تقول الرواية الأخرى : « إن الناس يكثرون ، وتقل الأنصار حتى يكونوا كالملح فى الطعام » .

وكانت الخطوة الحاسمة الثالثة أن دعا أبو بكر رضي الله عنه للبيعة لأحد الرجلين ثم رست البيعة عنده ، وبايعه المهاجرون والأنصار البيعة الخاصة فى السقيفة ، ثم كانت البيعة العامة فى المسجد .

إن اختيار القيادة بين الأقران من أعقد الأمور ، وفى أكثر النظم ديمقراطية نجد الاختيار يأخذ سنة وسنتين حتى ينجلى الأمر ، وسقوط القيادة المفاجئ كثيراً ما يوقع الصراع بعد أولئك ، وتتحكم مراكز القوى فيها وقلما يصل الأكفاء بعد سقوط القيادة . أما إذا كانت القيادة تاريخية وكانت عبقرية ، فالصراع يكون أشد بل يصل فى مثل هذه الظروف أضعف المرشحين ؛ لأن الأقوياء لا يتنازلون فكيف إذا كانت القيادة هى خير أهل الأرض وسيد ولد آدم وخير الثقلين الجن والإنس ، كيف يكون الأمر بعد ذلك ؟

إن سرعة اختيار الخليفة التى لم تتجاوز ساعات قلائل بعد وفاة النبى ﷺ ليدل دلالة واضحة على قوة هذا الصف وسلامته وانصهار لحمته ، وكلما كان

الصف ضعيفاً ممزقاً كلما كان اختيار القيادة صعباً عسيراً ، ولقد شهدنا بعض فصائل الحركة الإسلامية المسلحة عقب محنة ضخمة زلزلتها أن القيادة المنتخبة انحنت مرات أمام العاصفة ؛ أمام العواطف المتوترة، وسقطت هذه القيادة أربع مرات خلال سنتين متتاليتين .

وحين نضع الصورتين قبالة بعضهما بعضاً ، نشعر بعظمة التحام الصف ، والتئامه وتشابكه بحيث يستحيل فك اشتباكه .

الخاتمة

وأخيراً، ونحن نودع المنهج الحركى للسيرة النبوية نود أن نؤكد الخطوة التالية:

١ ـ سمات هذا المنهج فى عهديه ومراحله المتعددة منتزعة من واقع المرحلة وارتباط الحلقات بعضها ببعض، بحيث تمثل فى النهاية كلا متكاملاً يمثل حقيقة المرحلة.

٢ـ قد تتكرر بعض السمات بين مرحلة وأخرى ، وتكرارها يعنى ديمومة هذه السمة، وأنها تتجاوز المرحلية لتكون أصلية فى خط السير كله أو جله .

٣ ـ والهدف من عرض هذا المنهج الحركى : هو أن تملك الحركة الإسلامية المعاصرة دليل عمل تسير على ضوئه وتبنى خطتها على خطاه .

٤ ـ ولكن هذا لا يعنى ضرورة التوافق والتطابق بين مرحلية الحركة الإسلامية اليوم ، ومرحليتها فى السيرة النبوية ، بل تعنى فى معظم الأحيان التشابه والتقارب ، وذلك لاختلاف الظروف والأشخاص والأشياء بين عالمنا اليوم وعالم الدعوة الأولى .

٥ ـ وأهم ما أتمناه من خلال هذا المنهج هو أن يتمكن الدعاة فى الحركة الإسلامية من التفريق بين الأسس الدائمة الثابتة ، وبين الخطوات المرحلية المتدرجة ، وألا يضعوا أحكام مرحلة اكتمال الدين وانتصار الإسلام محل أحكام مرحلة العهد السرى بفرعيه ، ولو أن الدعاة حين يفاجؤون بواقع معين يختارون الشبه المناسب من المرحلة المناسبة ؛ لكان فى ظنى المنهج قد حقق هدفه الذى كتب من أجله .

٦ ـ وأؤكد للأخ القارئ الذى عشت معه فى هذا السفر الطويل أن السمات والأحكام التى وصلت إليها هى أحكام ظنية ، قد يغلب أحياناً عليها المسحة

الشخصية والاندفاعة العاطفية ، وبالتالى فقد أخطئ فى التشخيص أو الاستنتاج أو الحكم فما كان من توفيق فمن الله ، وما كان من خطأ فمن نفسى .

٧ ـ وإنى لأدعو الأخوة القائمين على الحركة الإسلامية أن يعيشوا هذه التجربة ويمدونى بصالح آرائهم ، وخلاصة تجاربهم لأتجاوز الخطأ إن كان ثمة خطأ فلا شىء أجدى من الحوار فى هذا المضمار ، لنتلمس الخطا الصحيحة للوصول إلى الهدف البعيد فى هذا المسار الطويل .

٨ ـ ولئن عشت ربع قرن فى العمل الإسلامى لكنه يبقى محدوداً فى إطار حركة محددة ، وتبقى التجارب الأخرى الغنية تمدنا بزادها العظيم فى هذا المجال .

٩ ـ ولئن كنت أكثرت من عرض تجربة الحركة الإسلامية المسلحة فى قطر من الأقطار، فليس هذا يشهد الله ذا صلة بانتمائى لهذا القطر أو ذاك ، فنحن بحمد الله أبناء الإسلام العظيم أنى حل وأنى ارتحل ، لكنه من منطلق الممارسة العملية من جهة ، ومن جهة ثانية فالمنهج الحركى للسيرة النبوية فى مرحلة الدولة لا يمكن مقارنته إلا مع الحركة الإسلامية التى انطلقت فى تكوين الدولة فى تنظيمها على الأقل ، ومن خلال تجربتها الحافلة بالصواب والخطأ ، ومن خلال تعاملها مع خصومها وأعدائها وحلفائها على صعيد الواقع العملى .

١٠ ـ وكم كنت أتمنى أن تكون بقية التجارب الإسلامية ماثلة بين يدى لأعرض نماذجها من خلال المنهج الحركى، فالدعاة أبناء أب واحد كما يقول ـ عليه الصلاة والسلام: ﴿ **مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ** ﴾ [الحج: ٧٨].

والله أسأل فى نهاية المطاف أن يتقبل عملى هذا ، ويجعله خالصاً لوجهه ، وأن يرزقنى به شفاعة نبيه ، ولعل دعوة صالحة تنالنى من أخ كريم يغفر الله تعالى

بها الزلل ، ويقيل العثرات .

﴿ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِين مِن قَبْلِنا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا ما لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا على الْقَوْمِ الْكَافِرِين ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين